البجعة
تودع الصياد

د. غالي شكري
باريس ١/٧/١٩٨١

دار الآفاق الجديدة

البَجعَة تودّع الصّيّاد

د. غالي شكري

البجعة تودّع الصيّاد

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الأولى

١٤٠١هـ / ١٩٨١م

مقدّمة

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات التي كتبتها خلال الفترة الواقعة بين ديسمبر (كانون الاول) ١٩٧٩ وديسمبر ١٩٨٠ أي انها على وجه التقريب حصاد عام واحد هو العام التالي لإبرام معاهدة الصلح المنفرد بين النظامين المصري والصهيوني.

وقد تعددت منابر هذه المجموعة من المقالات من المجلة الاسبوعية إلى الجريدة اليومية الى المجلة الشهرية، ومن باريس إلى بيروت ودمشق وطرابلس. ومعنى ذلك، ببساطة، انه كان عاماً ساخنا بالغ الاضطراب في حياتي وحياة بلادي... فالانتقال «المتشرد» بين منبر وآخر وبين بلد وآخر، يعكس إلى حد بعيد «الحالة - الصدمة» التي واجهت الجميع بعد الحدث المروع.

وهل يستطيع الكاتب أن يهرب من قدره، مهما خطط لنفسه، فانه أسير فكره ومواقفه. كم وددت العودة إلى القاهرة أو إلى بيروت، لأودع المنفى الغربي إلى الابد. ولكني لم أستطع. كم وددت التفرغ نهائيا للعمل الأكاديمي والبحث العلمي والتعليم الجامعي، فلم أستطع. شيء ما يربطني بالاحداث اليومية في وطني وأمتي. لذلك أتحرك وفقا لهذا الرباط شبه المغناطيسي والذي يوجهني كيفما أراد. وكل ما أدريه أن هذا الرباط السرّي يقودني دوما في الطريق الصحيح، ويجسد لي دوماً مجموعة القيم والمبادىء والمثل العليا الثابتة التي احرص عليها.

...فلا يهم بعدئذ متى اكون غداً، فالجغرافيا في خاتمة المطاف هي ثمرة التاريخ،

د. غالي شكري

باريس ١٩٨١/٧/١

القسم الأول

بعد احتجاب مصر

الغرب ليس روسياً ابيض . . . ولا زنجياً اسود

كان توفيق الحكيم عصفوراً قادماً من الشرق، كذلك احمد الصاوي محمد وطه حسين وهيكل، وبعدهم يحيي حقي ثم محمد مندور ولويس عوض وانور عبد الملك.. الى عشرات المثقفين العرب يجوبون العالم الاوروبي في وقتنا الحاضر.

ومن الطبيعي ان هذه الاجيال المختلفة لم تصل باريس ولندن وروما في وقت واحد، بل هي اقبلت في ازمنة متباعدة، فبعضهم غادر شاطىء البحر المتوسط من الشرق في اوائل هذا القرن، وبعضهم غادره عيشة الحرب العالمية الثانية، والبعض الثالث ركب السحاب الابيض والازرق عند اواخر الاربعينات واواخر الخمسينات ولا زال... حتى نهاية السبعينات، حيث طرأت على نسيج بساط الريح تغيرات لا اول لها ولا اخر.

ولو ان هذه «الاجيال» توجهت في قارب واحد الى مرسيليا، لرأت فرنسا بعدة عيون، لاختلاف عين كل فرد عن الاخر. اما وانهم ابحروا وطاروا في عصور متباعدة، فلا شك ان صورة فرنسا وغيرها اختلفت من الالف الى الياء.

... وهذه كلها بديهيات.

ولكن المشكلة ان آخر الاجيال العربية التي وصلت الى الغرب لا تكاد غالبيتها تراه، الا باحدى العينين التي سبق ان رأته منذ كانت

الباخرة وسيلة المواصلات الوحيدة... الى الشاطىء الاخر. فلا زال البعض يرى الغرب «روسيا ابيض» كما رآه توفيق الحكيم منذ اربعين عاما، وان استبدل الروسي الابيض في «عصفور من الشرق» بالزنجي الاسود... فالفكرة في الحالين واحدة، وهي ان الشرق مهد الروح وان الغرب مهد المادة، والاثنان لا يلتقيان كما قال رديارد كبلنغ شاعر الامبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس، وكما ردد من بعده العقاد. بل وامتدت الفكرة حتى كتاب «الشرق الفنان» للمفكر العقلاني زكي نجيب محمود.

وهي الفكرة التي تنتظم عددا من الاعمال الفنية العربية، شعرا ونثرا، فحوارنا مع الغرب لم ينقطع على طول الحبل المشدود بين نقيضين: الانبهار الاعمى بالحضارة «الحديثة» او الانكفاء على الذات لدرجة العودة الى القرية او الغابة او القبيلة... وكان الشاعر الكبير ت. س. اليوت رائدا للحداثة في الشعر، وداعيا متحمسا للعودة الى القرون الوسطى. كذلك الكاتب الاميركي هنري تورو، وغيرهم صف طويل ممن ثاروا على الحضارة الصناعية وفضلوا عليها «برابرة الطبيعة» او الذين ثاروا على الحضارة الغربية وفضلوا عليها الشرق بسحره الرومانسي الغيبي التاريخي.

ولكن المشكلة مع المثقف العربي تختلف، فقد نفهم «تمرد» بعض كتاب اوروبا واميركا واحيانا «ترفهم» في التلهف على الماضي او الشرق، ولكن من الصعب ان يفهم المرء، النغمة ذاتها، في «قنديل ام هاشم» حيث يعود الطبيب في قصة يحيى حقي بادوات العلم الحديث، ولكنه سرعان ما يفضل عليها في الممارسة خبرة «الخرافة» الموروثة من عصور الانحطاط او الفقر او الجهل. وفي جميع الاحوال «التخلف»

ويبدو مثيرا للعطف مشهد المثقف المنتمي الى دنيا التخلف وهو يحاكم الحضارة «الغربية» من موقع التقدم عليها... رغم انه «يستخدم»

انجازات هذه الحضارة بدءا من الثياب حتى وسيلة المواصلات، فضلا عن « اللغات » التي (يبرطم) بها بين الحين والاخر.

والقضية من بدايتها لا رأس لها ولا ذنب، بل هي مقلوبة رأسا على عقب... فليس حقيقيا مثلا ان الغرب هو المادة والشرق هو الروح، وليس صحيحا العكس ايضا. فالحضارة التي تنجب سوفوكل وشكسبير وبيتهوفن وبيكاسو وشارلي شابلن، يستحيل ان تكون حضارة بلا روح. كذلك الحضارة التي تلد المسيح ومحمد والمتنبي وابن رشد وطه حسين. كذلك فالحضارة التي اكتشفت القارات والبخار والنسبية والسبرنطيقا والكمبيوتر، هي بغير شك حضارة « مادية ». ولكن الذين « يستهلكون » منجزات هذه الحضارة دون فكرها بدءا من السيارات والطائرات والبنايات وانتهاء بالدواء مرورا بعشرات الخدمات « التكنولوجية » لا يقلون « مادية » عن غيرهم، الا من حيث ان مادية المنتجين ارقى بكثير من مادية المستهلكين.

وليست القضية في خاتم المطاف مساواة عادلة نخرج منها بالقول اننا مثلهم ماديون وروحيون، فالاشكال الحقيقي ليس بهذه البساطة. لأن واقعنا يقول اننا لاسباب مختلفة سقطنا في وهاد التخلف اكثر من ستة قرون. كنا رواد النهضة قبل ذلك في العصور الوسطى، وكانت اوروبا ظلاما حالكا. ولكن التغني بالماضي وحده لا يوقظ الموتى من قبورهم بل الوعي بالتخلف الراهن، هو اول خطوات التقدم.

وليس عيبا في هذه الحال الاعتراف الايجابي بتقدم الحضارة في الغرب. واقول « الحضارة في الغرب » لا الحضارة الغربية الا بمقدار ما اضاف اليها الابداع الاوروبي والاميركي. فالحقيقة ان الحضارة الانسانية من احدى الزوايا، هي مجمل تاريخ الانسان في كل زمان ومكان، كونتها شعوب العالم كله في مراحل ازدهارها. والابداع الغربي الحديث

لا ينطلق من فراغ. بل هو يستند على تراكمات الماضي الذي شارك فيه الجميع، ومتغيراته النوعية.

لذلك كان من «حقنا» المشروع ان نتفاعل مع هذه الحضارة دون اي احساس بالنقص، فنحن لا «نأخذ» ولا «نستورد» ولا نسترد «دينا». بل نحن «ننهض» من رقادنا الطويل من حيث انتهى الأبداع الانساني لا من حيث كنا او من حيث كان.

والذين ينكرون هذه الحقيقة باسم «الاصالة» ينسون ان الفكر القومي نفسه لم يكن بعيدا جدا عن افكار فيلسوف فرنسي هو برغسون ولا عن افكار فيلسوف الماني هو شبنغلر، ولا عن صور الوحدة القومية التي احرزها الالمان والطليان.

والذين يبالغون في رسم هذه الحقيقة وكأننا امة مقطوعة الجذور ينسون ان احد اركان عصر النهضة الاوروبية (وهو الجذر الرئيسي للحضارة الغربية الحديثة) ليس بعيدا جدا عن ابن خلدون وابن سينا والكندي وابن رشد وابن مسكويه والفارابي.

علينا فقط ان نعي تغير الشكل من حضارة الى اخرى، فالعاطفة او الروح في الغرب تعبر عن نفسها بأساليب تختلف عن الاشكال العربية او الشرقية. ولكنها موجودة في فنهم وحياتهم، رغم آلام الحياة واهوالها. كذلك «المادية» عندنا موجودة، ربما في أكثر اشكالها ابتذالا، ولكنها تتخذ اشكالا مختلفة عن مثيلاتها في الغرب.

ولكن مرض «التخلف» اللعين يصيبنا بالازدواجية، فنحن «روحانيون» بالكلام وامام الغير، وماديون حتى العظم في الفكر والسلوك... في السر شيء وفي العلن شيء آخر.

وليس هذا مرضا اخلاقيا فحسب، بل هو نمط ثقافي اولا واخيرا.

تحيّة الى كتّاب المغرب

(١)

باستثناء الكلمة البارزة التي القاها رشاد ابو شاور الروائي الفلسطيني في مؤتمر دمشق للكتاب العرب، لم يكن هناك سوى اتحاد كتاب المغرب حاضرا . . . ذلك الحضور المفعم بالصدق العفوي والوعي الحر .

رسميا ، تسلم اتحاد كتاب المغرب في شخص رئيسه محمد براده امانة « الكلمة » ، اي امانة « الحرية » من اتحاد الكتاب اللبنانيين صاحب الدور التقليدي في حمل راية الحرية والكلمة .

فلأسباب لبنانية محض في رأي البعض ، وعربية ايضا ، يضيف اخرون ، تنازل الاتحاد اللبناني عن دوره العريق .

لكن الاتحاد المغربي كان حاضرا ، كذلك الكلمة الفلسطينية البارزة .

(٢)

اركز الحديث هنا على اتحاد كتاب المغرب ، لأن منظمة التحرير وفي اطارها اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، لا ينطبق عليها ما ينطبق على الدول .

والمغرب دولة . . . وكأية دولة اخرى لها نظامها واحزابها ومؤتمراتها وكواليسها ، وادباؤها ايضا .

عن هؤلاء الادباء ، اذن اتكلم . . . فهم على الرغم من انتمائهم لدولة ، لم يمثلوا هذه الدولة في مؤتمر الكتاب العرب . وهم ايضا لم يمثلوا انفسهم

كأفراد، بل « حضروا » كاتحاد، لا كتحالف بين احزاب، بل كتحالف بين اتجاهات للفكر والثقافة والفن. تحالف « حدّه الادنى » حرية العقل والضمير والابداع.

وحده، كان اتحاد الكتاب اللبنانيين في الماضي، يطعمنا نحن الجوعى للحرية هذا الانطباع. لم يكن ممثلا لسلطة ولا لحزب ولا لمحور. ربما كان للنظام اللبناني شبه الليبرالي فضل في ذلك. ولكن أكبر الفضل كان يعود للادباء انفسهم، فقد يلتقي احدهم من اهل اليمين في طريق الخليل بن احمد بآخر من اهل اليسار. لأن الفكر الادبي كان في مخيلة الجميع مستقلا عن الهوية الحزبية، ولا اقول الانتماء السياسي. اما حين تصبح هذه الهوية هي بطاقة الانتساب الى « اتحاد الكتاب » فان الاوراق تختلط والامور تضطرب، كما هو الحال في اتحاد الكتاب اللبنانيين الراهن.

اما اتحاد الكتاب المغاربة، فهو يحتل عن جدارة طليعة اتحاداتنا كلها، ويقدم نموذجا واقعيا لما « يمكن » ان تكون عليه . . . فالامر ليس مستحيلا.

لماذا ؟

لأن اتحاد كتاب المغرب ليس امتدادا سريا او علنيا لوزارة الاعلام او الثقافة في بلاده. وبالتالي، فهو في اي مؤتمر للأدب او للادباء، ليس ملتزما بوجهة نظر وزير الاعلام او أمين الدعوة في الحزب. ومن ثم فهو لن يقول في اي مؤتمر كلاما يمكن ان يقوله وزير الخارجية او زعيم المعارضة بصورة افضل.

انه يتكلم عن الادب والادباء كمواطنين مبدعين، تصطدمهم السياسة ويصدمون السياسة، ولكن مملكتهم ليست « من » هذا العالم، بل « في » هذا العالم . . . لذلك تختلف لغتهم عن لغة البيانات المشتركة والخطب المنفردة التي قيلت وتقال وستقال على مدى نصف قرن من دون ان تميز فيها التاريخ والقائل والحدث، لانها تخلو من « الانسان ».

تكلم محمد برادة في دمشق بلغة الانسان والابداع والحرية، فاختلفت لغته عن الآخرين. وكان طبيعيا ان لا يفهمه الكثيرون ممن احتلوا مقدمة المنصة، وان يفهمه الاكثرون من قواعد القاعة.

ليست القضية ان رئيس الاتحاد المغربي كان صريحا في القول، ولا أنه كان ذا وجه واحد في الغرف المغلقة وقاعة الخطابة، ولا انه كان شجاعا ثوريا جريئا . . . لقد كان ذلك كله واكثر.

كان كاتبا.

لم يتكلم في ضوء الذكريات حين كان وزيرا، ولا في ضوء الامنيات ان يصبح وزيرا. لم يتكلم واجهزة الأمن في بلاده تحميه وتحرضه، او انها تطارده وتترصده.

تكلم ككاتب عربي معاصر من المغرب. وحين يتكلم «الكاتب» سواء كان من اقصى المغرب او اقصى المشرق، فانه يخاطب «الكتّاب» جميعا اينما كانوا . . . في الزنزانة او المستشفى العقلي او رصيف المنفى.

محمد برادة - اكرر - تكلم «ككاتب» لا كمرشح للعمل في جامعة الدول العربية او هيئة الأمم المتحدة، فلم يتستر وراء البلاغة الادبية ليقفز خطابه فوق رؤوس الادباء الى من يعنيهم الامر . . . من ارباب السلطة والسلطان. تكلم «ككاتب» لا كمرشح لمجلس النواب او مجلس الشيوخ او مجلس الوزراء.

لذلك وصلت كلماته الينا، نحن الذين حرمتنا الظروف من التوجه الى دمشق.

لم تصل عبر وسائل الاعلام، بل عبر شيفرات الحرية . . . وصلت الى كل زنزانة محكمة الاغلاق، والى كل معتقل عالي الاسوار، والى كل منفى داخل الوطن او وراء البحار.

هل نحيّ اتحاد كتاب المغرب حقا؟ لعل الادق اننا نحيّ الكلمة العربية التي ذبحت وجنت وجاعت... ولم تنتحر بعد.

١٩٧٩/١٢/١٤

البجعة

تودع الصياد

(١)

اذا قدر عليك ان تكون كاتباً منذ ثلاثين سنة، فانه يتعين عليك أن تتخذ من فلسطين قضية حياتك وموتك، لأنها لن تكون بعد عام ١٩٤٨ احدى المشكلات السياسية التي تتناقل اخبارها صحف وطنك بين الحين والآخر، بل ستصبح اردت ذلك أو رغبت عنه مصيرك الشخصي دون زيادة أو مزايدة ودون نقصان أو مناقصة.

ستصبح هذه القضية المقدسة ـ قضية وجودك كفرد ينتمي الى ما يدعى بالنوع البشري، لا كوطن فقط أو كأمة ـ هي سبب حزنك أكثر من ربع قرن لا بسبب ان بلدك او بلد اشقائك هزم في أربع أو خمس حروب، بل لأنك مضطر كل خمس أو عشر أو خمسة عشر سنة أن تكذب نفسك علناً، وأن تنفي اليوم ما قلته بالأمس، وأن تنفي غداً ما قلته اليوم، وهكذا... فالرأي لن يعود رأيك بعد هزيمة ١٩٤٨، سيصبح رأي الحاكم وحاكم الحاكم وحاكم حاكم الحاكم، بحيث لا تعود أكثر من بجعة تبحث عن الصياد.

(٢)

لن يعلو صوت فوق صوت المعركة. والمعركة تجيء دائما. ولكن قبل الموعد أو بعده، لذلك تستمر. ولأن المعركة مستمرة، فأنت في حالة طوارىء دائمة. مطالب بأن تكون في الخدمة وتحت السلاح دون سؤال. لا

أحد يسألك أي شيء. عليك فقط أن تكون حاضراً متى تطلب واينما طلبت: إلى السجن، المعتقل، القبو الجهنمي، المستشفى الأكثر بياضاً من العدم، القبور المفروشة طريقها بالمخدرات وامواس الحلاقة والجوع، المنافي المتحركة الارصفة الى المجهول. انت «مطلوب» في قضيـة مقـدسـة: فاعتقالك أو انتحارك أو اغتيالك، فداء للحاكم الذي يعرف وحده الجواب على كل الاسئلة في كل الدقائق والثواني. دمك عقوبة المفارقة، فأنت لا تعرف ما كان يجب أن تعرفه دون أن يقوله لك أحد. ودون ان يستشيرك احد. ودون ان يتذكر وجودك احد... إلاّ لحظة المحرقة. وعليك الاستشهاد أردت ذلك أو رغبت عنه، لأن فلسطين قضية مقدسة، من أجلها تؤمم الديمقراطية فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة. والحاكم هو المعركة. لذلك عليك أن تجيد سماع الصوت وأن تبدع في صداه، فالبجعة تظل تبحث عن الصياد.

(٣)

ثلاثون عاماً عليك أن تكذب نفسك وأن تقنع الناس بأن الكذب ليس كذباً. ثورة اللغة ألغت المسافات الوهمية بين الحقيقة والحقيقة الأخرى. والاجداد يموتون غيظا، يقول كاتب ياسين، لأن تلك المسافة كانوا يسمونها الكذب. رأسك يدور، ولكن لا تتعب. ليس مسموحاً لك بهذا الترف. عليك أن تؤمن عام ١٩٤٧ بأن فلسطين أرض عربية، جزء لا ينفصل من بلادك. وعليك أن تؤمن عام ١٩٧٧ بأنك كنت على خطأ عظيم، فالأرض ليست «كلها» عربية، وبلادك شيء وفلسطين شيء آخر. عليك ان تقرع اجراس المجد للحاكم المقاتل. وأن تقرع له الاجراس ذاتها حين يهزم، وأن تجدد له البيعة حين يخون... فهو هو لم يتغير، ولا صوت يعلو فوق صوته، لأن البجعة منذ ثلاثة عقود تبحث عن الصياد.

(٤)

أنت تشيخ وليس الزمن. الزمن يشيخ وليس أنت. لا تدري. ولكن

الأرض تدور كما تعلمت في الطفولة . وإذا بك تدور معها وانت تدري . ظللت ترفض وترفض وترفض عشرين عاماً، كان حزنك أثناءها يتلون احيانا بألوان الطيف أو ألوان الورد . بعد سبع سنوات فقط على الهزيمة الاولى كانوا يحتلون كل سيناء، فلم تجفل . قاومت وهزمت، ولكنك انتصرت . كنت في المرآة عملاقاً . لقد قلت « لا » بملء الفم والعقل والقلب والدم . ظلت فلسطين قضيتك المقدسة . فلسطين العربية كلها .

بعد قليل كنت تشهد عرساً آخر . بعد عامين فقط من انتصار السويس كنت تعدو في طريق الوحدة بين مصر وسوريا، لأنك كنت تؤمن بانه طريق فلسطين . . . العربية كلها .

وفي نشوة الاعراس نسيت ما كان يجري أمام عينيك . في غمرة الفرح القاسي لم تكن ترى . كان الحاكم العربي قد عثر في فلسطين المقدسة على نقيضها، عثر فيها على الحاجز المكهرب والاسلاك الشائكة التي تحول بينك وبين الحرية والعدل والتقدم والكرامة الانسانية . أوقفك عند الحاجز بسؤال: حريتك أم حرية فلسطين؟ وأوقفك عند الاسلاك وسألك: العدل لك أم لفلسطين؟ واجبت مرتين: فلسطين فلسطين . ولم تسمع ليلتها فلسطين وهي تبكي بصوت مشنوق . ولم تر البجعة وهي تصلي للمرة الأولى في حياتها ألا يجيء الصياد .

(٥)

كان مطلوباً منك كل عقد من الزمان أن تحول خوفهم أو هزيمتهم إلى « مبدأ » جديد يساير روح العصر، حتى أصبح تحرير فلسطينك المقدسة من المحرمات ومخلفات العصور القديمة . أنت أنت . لم تمت بعد . في حياتك الواحدة ـ وما يستجد ـ مطلوب أن تكون اثنين وثلاثة وربما عشرة في ربع قرن، وكأنك تناسخت في عدة عصور . وكأنك كنت خائنا منذ ثلاثين عاماً حين رفضت، ثم تطورت في طريق الوطنية حتى انحنيت لعلم صهيون فأصبحت راية الوطنية . أو العكس، انك كنت عربياً منذ ثلاثين عاماً، ثم

أخذت تستحم في نهر الهزيمة فذاب لحمك ودمك وعظامك، ولم تبق سوى الثياب، تدل على أنك يوماً ما كنت عربياً .

ها هي فلسطين العربية كلها تقول لك: لم يفقد بعض البشر ايمانهم بالمسيح منذ ألفي عام، فهل تفقد انت ايمانك بالقدس في ثلاثين عاماً فقط؟

كان الصياد قد وصل، ولكن البجعة كانت قد طارت للأبد .

١٩٨٠/١/١٨

البديل

□ استطيع ان اقول، بقلب مطمئن، ان مؤتمر دمشق الاستثنائي، لوزراء الثقافة العرب حول «الغزو الفكري الصهيوني لمصر» قد تأخر انعقاده ثلاثين عاما، على الاقل.

وقد اخترت الاعوام الثلاثين الأخيرة، لمجرد القول بأن تحقيق «الحلم الصهيوني» عام ١٩٤٨، كان كافيا جدا لنستيقظ، على ان الغزو قد اكتمل، وانه ليس مقصورا على الارض... بل هو يستهدف العقل والوجدان، اولا واخيرا.

وما دعاه السادات بالحاجز النفسي الذي توهم انه يستطيع تحطيمه بزيارته المضادة للتاريخ، هو تعبير صحيح عن حالة «الرفض العقلي والوجداني» لقيام الدولة الصهيونية.. لذلك لاحظ المؤرخون لكل الحروب العربية الاسرائيلية، انه بالرغم من الانتصارات التي احرزها عدونا، فان «غصة في القلب» كانت تشوب هذه الانتصارات، نتيجة الرفض العربي من داخل الداخل، للتعايش المقهور مع هذا الكيان الغريب. وليس انتظار غولدا مائير وموشي دايان لصوت الهاتف القادم من القاهرة عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة، الا انتظاراً لانكسار هذا الرفض... فقد كانوا يعلمون ان جمال عبد الناصر ليس حاكما عربيا، بل هو صوت ذلك الرفض الداخلي العميق في النفس العربية. وبالرغم من الهزيمة، لم يصل صوت عبد الناصر ـ عبر الهاتف ـ الى آذان مائير ودايان.

بعد عشر سنوات، في العام ١٩٧٧، ذهب حاكم مصر شخصيا في حركة مباغتة ضد التاريخ، ليسمع صوته لملايين الصهاينة في «اسرائيل» والعالم. وبالرغم من «النصر المغدور» عام ١٩٧٣ فقد ادرك الاسرائيليون قبل غيرهم ان صوت السادات ليس هو الصوت الذي كانوا ينتظرونه على الهاتف عام ١٩٦٧، ليس هو الصوت العربي ولا هو ضمير مصر.

لذلك كانت معركتهم الحقيقة قد بدأت، بمعاهدة الصلح المنفرد، ولم تنته. وهي المعركة التي اتخذت لها اسما رمزيا هو «تطبيع العلاقات» وفي مقدمتها العلاقات الثقافية. والذين يراقبون مسيرة التطبيع بين النظامين المصري والصهيوني خلال الاشهر الثلاثة الماضية، يلاحظون بغير عناء ان الجبهة الفكرية والادبية والفنية، هي الجبهة المشتعلة» في مصر بين الصهاينة والمصريين. فرغم الحرص الاسرائيلي التقليدي على الغزو الاقتصادي والسيطرة العسكرية والتدخل السياسي، فانهم يولون «الثقافة» اهتمامهم الرئيسي والاول. ذلك انهم يرون - عن حق - ان الانتصار في هذه المعركة هو الانتصار الحقيقي والحاسم، فالقبول العقلي والوجداني بوجودهم، هو المقدمة الاولى لاي قبول آخر. هو ايضا الانقلاب التاريخي لارادة المصريين ومشاعرهم وضميرهم القومي.. الانقلاب التاريخي الاول منذ الفتح العربي لمصر.

ويلاحظ المراقبون ايضا على مسيرة التطبيع، أن الحاكم قد بزل غاية الجهد: في «الاعلام» لدرجة حذف الايات القرآنية التي تمس اليهود، في «التربية» لدرجة وضع اسم «اسرائيل» بدلا من فلسطين في خرائط الجغرافيا العربية، ولدرجة حذف حقائق الصراع في الاعوام الثلاثين الماضية من كتب التاريخ العربي. في «الثقافة» لدرجة ترجمة مذكرات دايان ومائير وبن غوريون وايبان الى العربية واصدارها بأسعار زهيدة باعتبارها كتبا: «ادبية» ولدرجة استقبال «كبار» ادباء النظام من الحكيم الى نجيب محفوظ للسفير الاسرائيلي في القاهرة.

ولكن الاسرائيليين يدركون اكثر من غيرهم ان هذا القبول هو قبول « الحاكم» لا قبول الصوت الذي ينتظرونه منذ تأسيس الكيان، والذي لم ينقله الهاتف الى آذانهم في هزيمة ١٩٦٧ ... انهم يرصدون التفاصيل الصغيرة في الحياة اليومية للمصريين، ويشعرون في العمق بأن « لا » كبيرة تستتر تحت الالسنة وخلف الشفاه الصامتة. انهم يرصدون الاعمال الادبية والفنية للمنتجين الحقيقيين في الثقافة المصرية، لأدباء مصر غير المتقاعدين، لمثقفيها غير الموظفين، فاذا بهذا الانتاج كله واصحابه يقولون: لا. لا. لا. ويستخلصون من نبرة الصوت الصامت وايقاع الصمت الصارخ انهم مرفوضون، لا زالوا مرفوضين، وسيبقى الرفض هو الصوت الحقيقي لشعب مصر... حتى ينتصروا في معركة الثقافة، معركة العقل والقلب والارادة والضمير.

★★★

هذه المقاومة في مصر هي ذاتها في كل قطر عربي منذ هزيمتنا العسكرية الاولى. ولكنها مقاومة الفطرة العنيدة في مواجهة الشعور بخطر الابادة، ومقاومة اللاوعي الصلب في مواجهة الاحساس بخطر الانقراض. ولاننا امة غائرة الجذور الحضارية رغم آيات التخلف التي تغمرنا، فان الابادة التي نستشعرها هي الابادة الحضارية، والانقراض الذي يؤرقنا هو الانقراض الحضاري.

ان احدا لا يستطيع ان يتهم تاريخنا بالتعصب، واليهود بالذات لا يستطيعون الزعم بانهم عانوا بيننا طيلة القرون التي عاشوها في صفوفنا كمواطنين. ربما يكونون قد ابتلوا باضطهادات مارسها الاجنبي عنا في حكمه لبلادنا، كما اضطهد غيرهم من مسيحيين ومسلمين. ولكنهم لم يعرفوا اضطهادا خاصا بهم من جانب العرب، لا لان العرب لهم طبيعة عرقية ضد التعصب، بل لان افكارهم الدينية الكبرى تخلو من العنصرية، فليس هناك « شعب مختار » في الاسلام او المسيحية.

اما اليهود في ظل كيان صهيوني مقتطع من ارض عربية وعلى حساب شعب كامل هو الشعب العربي الفلسطيني، فانهم لا يغتصبون ارضا فقط ولا يطردون شعبا من وطنه فحسب، بل هم يقدمون «بديلا حضاريا كاملا» لهوية المنطقة باسرها. هذا البديل يتخذ من «ارض المعاد»، ركيزة للدولة، ومن بعض اليهود القادمين من كافة انحاء العالم «شعبا مختارا». ولكن هذه «الدولة» وذلك «الشعب» ليسا اكثر من نقطة انطلاق «للبديل الحضاري الكامل»، وهو الهوية الصهيونية بأيديولوجيتها العنصرية. هذا البديل، في الشرق الاوسط، لا يتوقف عند حدود الاجلاء والاستيطان والتوسع العسكري، بل يعني اولا واخيرا «سحق الهوية الحضارية العربية» وتسويد الهوية الصهيونية العنصرية... فالاسرائيليون لا يستهدفون من «التطبيع» تعايشا، بل يرومون انتصارا مطلقا وسيادة كاملة.

وهو الانتصار الذي لا يتطلب في المائة سنة القادمة ان يكون هناك حاكم اسرائيلي في الرياض او الرباط، ولا ان يكون جيش «الدفاع» الاسرائيلي مرابطا في تونس او الخرطوم.. فهذا كله ممكن في ما بعد، اي بعد ان يكون «العقل الصهيوني» هو الحاكم السيد من المحيط الى الخليج. بعد ان ينمحي تدريجيا شيء اسمه «العقل العربي» او «الحضارة العربية» او «الارادة العربية» وتسود الهوية الحضارية البديلة.

في غير الشرق الاوسط، ربما تتخذ هذه الهوية اشكالا اخرى للسيادة، ولكن ما اقرب الشبه وما ابعده بين ما تم في اميركا الشمالية، وما يراد انجازه في بلادنا. لذلك، فرغم اية ارتباطات اقتصادية او عسكرية او سياسية بين «اسرائيل» والولايات المتحدة، علينا ان نتذكر دائما ذلك «الشبه» في مشروع ونشأة الدولتين.

المهاجرون الاوروبيون من اضطهاد «البروتستانتية» في اوروبا الكاثوليكية، هم غزاة اميركا الشمالية التي لم تكن في اي وقت ارضا بلا شعب. كان المهاجرون متعددي الانتماءات الوطنية الاصلية، وكان سكان

اميركا من الهنود الحمر شعبا واحدا . وتوحد المهاجرون تحت راية « البديل الحضاري الكامل »، وانهم الرواد » لاكتشاف « العالم الجديد » البكر والمتخلف. ودارت ابشع مذابح التاريخ البشري، باسم « العنفوان » و « الهرب من الاضطهاد » و « الحضارة » - وبالتدريج اصبح المهاجرون هم « البديل » المنتصر، واضحوا هم الاميركيين وغيرهم مجرد « زنوج » . هوية حضارية كاملة، حلت مكان الهوية الاصلية . وبمرور الزمن اصبح « الاميركي الاسود » شاكرا لسيده الابيض انه يسمح له بالبقاء « على قيد الحياة » ولو في احياء بعيدة عن البيض، ولو في كنائس لا يدخلها البيض، ولو في مدارس لا يختلط فيها السود بالبيض. تحول الهنود الحمر في خاتمة المطاف الى « فولكلور » بشري .

★ ★ ★

وقع ذلك في التاريخ، لا في الاحلام ولا في الكوابيس . ولم يعد احد يذكره بسوء، بل العكس فالولايات المتحدة هي احدى اعظم الدول في التاريخ باكمله . . . كما يكتبون التاريخ. بل اصبحت المذابح والمجازر عنوانا كبيرا على « حق التقدم في هزيمة التخلف » . وفي النادر ما يشير احدهم الى « العنصرية البيضاء في الولايات المتحدة » .

لقد استخدمت هذه العنصرية مكتشفات اوروبا في البارود والبخار والبندقية لتبيد على الملأ شعبا كاملا . ولكنها قبل ذلك واثناءه وبعده استخدمت الكتاب والصحيفة والبيانو واللوحة والتمثال والرقصة في تسويد « الهوية الحضارية البديلة » . ولا يهم بعد ثلاثة قرون ما اذا كان حاكم تكساس من السود، وحاكم كليفورنيا من البيض، فقد اصبح الاسود اكثر بياضا من البيض - ملكيا اكثر من الملك، نقول - حين اصبح مستعمرا حضاريا من الداخل، لا يهم بعدئذ ان يكون الابيض هو السيد الاقتصادي والعسكري والسياسي، فهذه مجرد نتيجة لسيادته . . . الثقافية .

طبعا، لسنا هنودا حمرا، ولن نكون. ولكن الاسرائيليين كالاميركيين الاوائل، واكثر. انهم قطعان من المهاجرين من اوروبا مثلهم. وهم هاربون من «الاضطهاد» الحقيقي والمزعوم مثلهم. وهم رأوا في فلسطين «عالما جديدا» ودعوها ارضا بلا شعب مثلهم. وهم قتلوا وذبحوا ولا يزالون، مثلهم. وهم «شعب مختار» لارض موعودة، مثلهم. وهم يحملون «هوية حضارية بديلة» كالرسالة المقدسة مثلهم.. هذه الرسالة لا تتوقف بهم عند حدود احتلال الارض، ومن الارض لا تتوقف عند حدود فلسطين.

انها الرسالة التي تدرك يقينا انها النقيض للوجود «الحضاري» العربي، نقيض «الهوية» الحضارية العربية، انها «البديل» المرشح لتحويل العرب جميعاً الى هنود حمر.

ولسنا هنودا حمرا، لالف سبب وسبب يشعر به ويحسه المواطن العربي من طنجه الى البصرة. هذا الشعور والاحساس يولد الرفض الشعبي الفطري، عقلا ووجدانا، للغزو الفكري الصهيوني لمصر وغيرها.

ولكن الرفض الفطري شيء، والمقاومة الواعية بحجم التهديد والغزو شيء آخر... الرفض الشعبي اللاشعوري شيء، والمقاومة المخططة الاستراتيجية امر آخر.

ذلك ان الرفض يظل عملا سلبيا، تتضاعف سلبيته جيلا بعد جيل، بتنازلات الانظمة العربية عن الارض العربية وخذلانها للشعب الفلسطيني.

اما المقاومة الاستراتيجية فهي وحدها التي تعي ان المراد الصهيوني لا يعرف «الوسط» ولا التعايش، بل هو «البديل» لهويتنا الحضارية بمضمونها القومي. اي ان جوهر المعركة الثقافية مع «اسرائيل» هو النصر الكامل او الهزيمة الكاملة. الوجود او الانقراض لاحد الطرفين. اما الارض والاقتصاد و.. و.. فهي تفاصيل ونتائج المقدمة الاولى.

لذلك اقول، لقد تأخر مؤتمر دمشق الاستثنائي لوزراء الثقافة العرب

اكثر من ثلاثين عاما . . . وارجو الا تتأخر نتائجه اكثر من ثلاثين عاما اخرى .

١٩٨٠/٧/٧

أين « الداخلية » في مؤتمر « الثقافة » ؟

■ تمنيت لو ان مؤتمر وزراء الثقافة العرب في دمشق، قد ضم في تشكيل الوفود جميع السادة وزراء الداخلية العرب وجميع السادة رقباء الاعلام والمصنفات الادبية والفنية العرب. بمثل هذا التشكيل يتكامل المؤتمر على نحو اكثر دقة وموضوعية وامانة . . للتاريخ .

ذلك ان وزير الداخلية ـ لا وزير الثقافة ـ هو وحده الذي يملك قوائم المعتقلين والمقتولين والمنتحرين والمجانين من « المثقفين » في بلاده. كذلك السيد الرقيب وحده الذي يملك قوائم الكتب والمجلات والافلام والاصوات والافكار وحتى الخيلات المصادرة في بلاده .

وقبل اي حديث عن الغزو الفكري الصهيوني وغير الصهيوني لمصر وغيرها ، لا بد من ان تكون « ورقة العمل » الاساسية لمثل هذا المؤتمر، هي مجموع القوائم التي يملكها السيد وزير الداخلية والسيد رقيب الاعلام. . . وبغير هذه القوائم يصعب على العقل ان يتصور كيف يمكن مقاومة الغزو الفكري، ايا كان لونه وايا كان مصدره. فالذين يقاومون الغزوات الفكرية هم المثقفون لا وزراء الثقافة. والذين يقاومون الغزو الصهيوني بالذات، هم المثقفون العرب القوميون، والاشتراكيون، والديموقراطيون، بالذات. وهؤلاء هم الذين يحتفظ بهم وزراء الداخلية العرب في اماكن امينة بعيدة عن العيون تسمى احيانا خطأ بالسجون واحيانا اخرى ـ خطأ ايضا ـ بالقبور، واحيانا ثالثة ـ خطأ كذلك ـ بمستشفى الامراض العقلية .

ولكنهم في جميع الاحوال « محفوظون » في علب مجففة لا تخترقها رطوبة الاحداث ولا حرارة الشرق الاوسط... لان السادة وزراء الداخلية يدركون المعنى الحقيقي للثقافة، اكثر من وزراء الثقافة انفسهم، بحيث انهم يرون في المثقفين كنوزا قومية يجب الاحتفاظ بها او التحفظ عليها بعيدا عن الاعداء والاصدقاء على السواء. ويضيف خفاف الظل منهم ان المثقف بطبعه يحب الوحدة ويعشق التوحد، لذلك نهيء له اسباب الخلوة، مجانا وعلى حساب الدولة.

وايضا، بغير الحصول على قوائم السادة الرقباء في الوطن العربي، يصعب على العقل ان يتصور كيف يمكن مقاومة الغزو الفكري المشار اليه، بغير استخدام الريشة والوتر والازميل والكتاب والاسطوانة والمجلة والصحيفة والفيلم والشريط الصوتي... اذا كان الغزاة انفسهم يستخدمون هذه الوسائل. ولكن المؤكد ان الصور والالحان والاغاني والروايات والمسرحيات والاشعار والمقالات والافلام التي تستهدف مقاومة الغزو الصهيوني، لا تصل المغزوين العرب. لان الهواية الرئيسية للرقيب العربي هي اللعب بالمقص على هذه الاعمال. ومن نجا من الهواية واحترف الراحة، فانه يمنع دخولها اصلا، وكفى المؤمنين شر القتال.

كم كان المشهد سيكون مسليا، لو انضم الى مؤتمر وزراء الثقافة في دمشق، ممثلا شجاعا لاتحاد الصحفيين العرب او اتحاد الكتاب العرب، وقدم لائحة بأسماء الصحفيين والكتاب المعتقلين في سجون بعض السادة من أعضاء المؤتمر أو الكتاب المطاردين أو الفنانين المنتحرين. وكم كان المشهد سيكون أكثر مدعاة للتسلية لو اكتشف الحضور أن هؤلاء « المغدورين » جميعاً تهمتهم الوحيدة أنهم يقاومون الغزو بكافة اشكاله: يقاومون الأقليمية (أي العنصرية)، يقاومون الفاشية في أسلوب الحكم (أي العنصرية)، يقاومون البغاء الاقتصادي من السمسرة إلى الرشوة إلى بيع البلاد للأجنبي على حساب المواطن الكادح المسحوق (أي العنصرية). أي انهم يقاومون

« الصهيونية العربية » الأكثر شراً من الصهيونية ـ اليهودية ، المفضوحة . ماذا لو اكتشف الحضور أن محنة الشاعر المغربي العظيم عبد اللطيف اللعبي الذي يقضي منذ خمس سنوات حكماً بالسجن والتعذيب لدرجة الاشراف على الموت ، هي أنه متهم « بفلسطين » لا غيرها ؟

لقد كان مثيرا للسخرية ان يوقع الوزير المغربي في مؤتمر دمشق على اول المقررات بالموافقة ، وهو النص الحازم والحاسم الذي « يؤكد مسألة الديموقراطية في الثقافة العربية وحرية الاديب والمفكر العربي . فهو القاعدة الاساسية التي تقف عليها الثقافة العربية لمواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني » . كان مثيرا للسخرية ان يوقع الوزير المغربي على هذا الكلام لانه وزير اوقاف وليس وزيرا للداخلية . ولانه وزير اوقاف فقد كان له الفضل في الاشارة الى ان راديو السادات يحذف بعض الايات القرآنية التي تمس اليهود . اما حذف عبد اللطيف اللعبي وغيره من المثقفين القوميين الديموقراطيين المغاربة ، فهو امر لا يخصه . واذا كان قد وقع على قرار يحترم الديموقراطية وحرية المثقفين فان وزير الداخلية المغربي لن يحاسبه على الارجح ، بل لعله سيرشحه للحصول على وسام الدعاية للديموقراطية في الغرب .

وكم وددت لو ان ممثلا لاتحاد الناشرين العرب قد انضم الى مؤتمر دمشق ، ومعه قوائم الكتب والمجلات والافلام المصادرة في العواصم العربية ، وكذلك قوائم الكتب والمجلات والافلام المسموح بها . ان بيانا من هذا النوع ، يفصح ويفضح الحقيقة المضادة للهدف من انعقاد مؤتمر دمشق .

سوف نجد في مثل هذا البيان مفارقات مذهلة . سنجد بلدا نصفه عادة بالرجعية ، يسمح بدخول مؤلفات ماركس وانغلز ولينين وماو وتروتسكي . وسنجد في الوقت نفسه بلدا « قوميا وتقدميا » لا يسمح بغير مؤلفات كتاب اليمين والاقليمية . وحتى نكون منصفين فهي تسمح بكل الكتب والمجلات الفرنسية ، دون تمييز او رقابة .

سوف نجد ايضا في مثل هذا البيان، مفارقات مؤسسية: كتب تتكلم عن بلد عربي ما بالخير، فاذا بها لا تمنع الا في هذا البلد، لمجرد عدم استلطاف متبادل بين المؤلف والرقيب او بين الناشر والوزير.

سنجد ايضا كتابا يمنع انتاجهم جملة وتفصيلا، اسماؤهم ذاتها هي المصادرة، او اسماء دور النشر التي يصدرون عنها، واحيانا للاسف الشديد جنسية الكاتب او الناشر.

★★★

على اية حال، التسلية ليست عيباً، ولو كان هناك وقت (ولكن السادة وزراء الثقافة في دمشق اختصروا ايام المؤتمر الى اثنين بدلا من ثلاثة) لاقترحت ان تكون هناك سهرة كوميدية يحييها الفنان الموهوب دريد لحام ليسأل السادة المؤتمرين بعض الأسئلة البريئة، ولكن باسلوبه الساخر لا بأسلوبي الثقيل الظل:

- هل تتصورون ان المثقف المصري وحده هو الذي يحتاج الى دعم وتشجيع وحماية صندوق جامعة الدول العربية؟ ان ارصفة المنفى الممتدة من اقصى الشرق الى اقصى الغرب تعج بالمثقفين العرب الذين لا يقلون مصرية عن المصريين في مقاومة الغزو الصهيوني، ولكنهم لا يعرفون كيف يقاومون الجوع والقهر والغربة؟

- هل تتخيلون اننا عرب حقا؟ اذن، لماذا كانت التفرقة بين القارىء السعودي والقارىء اللبناني والقارىء العراقي، او بين المستمع السوري والمستمع التونسي والمستمع الكويتي، او بين المشاهد القطري والمتفرج الاردني؟ اذا كنا جميعا عربا بالفعل لا بالتزوير، فلماذا يحق لهذا القارىء ما لا يحق لذاك، ولماذا يحق لهذا المستمع ما لا يحق للاخر، ولماذا يحق لهذا المشاهد ما لا يحق لاحد؟ واذا كانت مقاييس التثقيف العربي والاعلام العربي مختلفة من النقيض الى النقيض من المحيط الى الخليج، فكيف يمكن

الادعاء بأن عقلا عربيا او وجدانا عربيا او ثقافة عربية. باختصار، ، كيف نسمح بتسمية انفسنا عربا؟

ـ هل تدركون معنى ثورة المواصلات في عصرنا؟ وكيف ان العالم رغم كل القيود اصبح اصغر كثيرا مما كان الامر عليه في العقد الماضي فقط؟ يكفي تحريك مؤشر الترانزستور، او بطاقة سفر الى الخارج، حتى يكتشف العربي في فرنسا او بريطانيا او الولايات المتحدة ان اعلامكم كله كذب وثقافتكم مجموعة من الترهات والاضاليل؟

ـ تتكلمون بحماس عن الشعب العربي في مصر، وعن المعارضة الوطنية المصرية، وبعض حكوماتكم ضالعة في المؤامرة على هذا الشعب وتلك المعارضة حتى العنق. الم يكن بعضكم هو الذي اشرف على تسميم الوجدان القومي لمواطنيه بغرس بذور التعصب ضد كل ما هو مصري، وخاصة اذا كان وطنيا وقوميا وديمقراطيا وتقدميا. الا يعامل المصريون في بعض اقطاركم وكأنهم مجموعة من المرتزقة، والا تعامل مصر في بعض صحفكم واذاعاتكم وكانها عاهرة، والا يعامل الشعب العربي المصري في بعض اعلامكم وكأنه قطيع من النعاج؟

وتعلمون سلفا ان هذه المعزوفة العنصرية العمياء تتكامل مع خطة السادات في حرف المصريين عن عروبتهم، وتعبئة حملة الكراهية ضد كل ما هو عربي؟

نعم، ليت دريد لحام كان هناك ليصوغ هذه الاسئلة البريئة في قوالب كوميدية خفيفة الظل. ولكنه لم يكن هناك، لا هو ولا محمد الماغوط، ليكتب لنا مسرحية جديدة ـ قديمة، عنوانها « الصهيونية العربية ».

لقد ارادت دمشق، قلعة الصمود القومي، ان تفعل شيئا لمصر والعرب. ارادت ان تقدم الانذار الاخير لخط الدفاع الاول: العقل العربي.

وكان ما فعلته عظيما، فالمقررات والتوصيات، كلها في مستوى

المسؤولية والشعور بالخطر.

ولكن ما فعلته دمشق بنية قوية صافية شيء، وما تكنه الصهيونية ـ العربية، شيء آخر. هذا «الشيء الاخر» هو المزيد من اوراق التوت لتغطية العورة «الصهيونية»، والمزيد من التستر تحت الثياب «العربية». والا، فما تفسيركم لهاتين الحكايتين:

ـ الاولى، انه غداة انتهاء المؤتمر صدرت بعض الصحف العربية وفي صدر صفحاتها الاولى النبأ القائل «مقررات بالمقاطعة الثقافية لمؤسسات مصر غير الوطنية»، وفي الصفحة الاخيرة نبأ آخر يقول «٢٠٠ الف سائح عربي في القاهرة»؟ اليست هذه الازدواجية صورة مبسطة للحقيقة؟ فلست اعتقد، مخلصا، ان قطاع السياحة في مصر من المؤسسات الوطنية التي لا تجوز مقاطعتها. والامر كله مجرد مثل.

ـ الحكاية الثانية هي انني التقيت شابين يحملان بيانا يستنكر اختفاء ثلاثة مثقفين. كان من الطبيعي ان يطلبا مني التوقيع على البيان. ولم يكن من الطبيعي ان اعتذر. ولكني اعتذرت. سألتهما: الى اين سيذهب هذا البيان؟ فوجئا، ولم يدركا على الارجح ماذا اقصد. لقد وقعت على عشرات البيانات، وراحت كلها سدى. ولسنا في وقت تسجيل «المواقف».

كنا عشية انعقاد مؤتمر دمشق، فهل تستطيع لجنة المتابعة ان تدلنا على مكان اختفاء المثقفين الثلاثة؟ الا تريد «تجنيد كل الطاقات العربية لمقاومة الغزو الفكري الصهيوني»؟.

اذن ماذا فعلت اللجنة بأمر هؤلاء... ام ان مؤتمر دمشق كان يحتاج بالفعل لان يحضره وزراء الداخلية العرب، لتقديم بقية «الطاقات» التي اجهل اسماء اصحابها؟

١٩٨٠/٧/١٤

حصار سورية أم محاصرة العرب؟

حين عاد السفير الامريكي الى لبنان الاسبوع الماضي، كان أول تصريح يدلي به للصحافة والاذاعة والتلفزيون، هـو أن حكومته قد رفعت الحظر عن الرعايا الامركيين الراغبين لاي سبب في السفر الى بيروت. وأضاف ان التوتر المسلح في هـذا الوطن الصغير سوف ينتهي ـ بكل تأكيد ـ قبل العام ٢٠٠٠.

وبينما اعتبر بعضهم كلا التصريحين مجرد ـ نكتة دبلوماسية ـ اذ ترافق الكلام الامريكي مع مسلسل المتفجرات في كل بيروت وضواحيها. فان بعضهم الاخر توقف طويلا عند العام الفين الذي ذكره السفير كنهاية للالام اللبنانية..

لماذا؟

يجيب دبلوماسي اسيوي حضر جانبا هـاما من مناقشات مجلس الامن في دوراته السابقة حول الوضع في جنوب لبنان بانه سمع القصة التالية، بين الدكتور كورت فالدهـايم الامين العام لهيئة الامم المتحدة والسفير غسان تويني المندوب اللبناني الدائم في الهيئة الدولية..

كان السيد تويني يشرح باسهاب للامين العام ان الاحتلال الاسرائيلي لاجزاء جديدة من الجنوب اللبناني هـو «تصعيد خطير» لا مثيل له. ينذر بعواقب وخيمة على المنطقة كلها.

وكان الدكتور فالدهـايم ينصت باهـتمام، ولكنه بدا كما لو كان

مستغرقا في «عالم اخر». اضاف توبني كانه يستفز الامين العام للمشاركة في التفكير بصوت عال «كيف لا يستطيع المجتمع الدولي ان يفرض على دولة عضو هي اسرائيل أن تنفذ القرار - ٤٢٥ - الذي يقضي لقوات الامم المتحدة بالحلول مكان القوات الاسرائيلية والميليشيات على الخط الفاصل لحدود البلدين ؟»

ابتسم فالدهايم، كما لو انه أفاق من رحلة طويلة، ليسأل المندوب اللبناني «هل تذكر متى صدر قرار مجلس الامن الذي تشير اليه ؟» أجاب تويني: «منذ ستة أشهر وأكثر» فعلق الامين العام للهيئة الدولية «عيبكم الوحيد أنتم اللبنانيون، أن ذاكرتكم أقوى من اللازم في ما يخص الاخرين.. حين اتخذ القرار ٤٢٥ منذ ستة أشهر كان قد مضى ست سنوات على القرار ٣٣٨ الخاص بحرب تشرين. وهو القرار الذي لم ينفذ قط، لانه استبدل في بساطة تاريخية باتفاقيات كامب ديفيد. لقد بدأت تتغير اللغة الدبلوماسية الدولية عن أزمة الشرق الاوسط منذ ذلك الحين، فلم يعد احد يذكر، على سبيل المثال، بلداً عربياً شريكاً في الحرب هو سورية، ولم يتكلم احد، على سبيل المثال ايضا، عن هضبة محتلة اسمها الجولان. بينما كل ما يجري في جنوبكم اللبناني له علاقة حتمية بسورية والجولان. والمسافة السياسية بين تجميد بل والغاء القرار ٣٣٨ واشتعال الجنوب اللبناني لعرقلة تنفيذ القرار ٤٢٥ عنوانها الحقيقي: الدولة الفلسطينية».

لم يعلق السفير تويني، واعتبر الامر بأكمله حديثا شخصيا.

★

في جامعة جورج تاون بواشنطن، وبقسم مركز الدراسات العربية كان الحديث يدور بين مجموعة ضيقة من الاساتذة العرب والدبلوماسي الاسيوي الذي كان يحاضرهم في حوار مفتوح حول صراع الشرق الاوسط. وكان

بين الحضور شاب أمريكي من أصل لبناني، أتيح له أن يكون قريبا من محادثات العاهل الاردني مع الرئيس الامريكي، فطلب الاذن بالكلام ليروي الواقعة التالية: في احدى فترات الاستراحة بين فريقي المفاوضات كان المستر بريزنسكي يشرح لاحد أعضاء الوفد الاردني معنى «المساحة البيضاء» في خريطة الشرق الاوسط. كان الدبلوماسي الاردني ممسكا بصحيفة أمريكية اقليمية تصادف أنها نسبت الى مستشار الامن القومي الامريكي قوله «السلام في الشرق الاوسط تتكفل به مساحتان بيضاوتان، السادات مع ليبيا غربا، واسرائيل مع الفلسطينيين والسوريين واليساريين اللبنانيين شرقا».

قال الدبلوماسي الاردني بتهذيب شديد: أرجو ان تسمح لي يا سيدي بالقول انني لم افهم تماما المقصود بالمساحة البيضاء، وبالتالي فانني لم أدرك ماذا تقصده من الجملة كلها». ابتسم بريزنسكي دون أن يفاجأ، وقال: المساحة البيضاء، هي الخط العازل الذي يعطل احدى الارادات عن الفعل المضاد لاية عملية جراحية في السياسة الدولية. زيارة الرئيس السادات للقدس، واتفاقيات كامب ديفيد، ومعاهدة واشنطن، ومباحثات الحكم الذاتي، كلها مراحل في عملية جراحية. كنت أستطيع أن أسميها عملية تجميل، لولا أنني أعرف أن التجميل أيضا هو جراحة، فلماذا لا نسمي الاشياء بأسمائها.؟ اذن، هناك جراحة من أجل الشفاء، من أجل السلام في الشرق الاوسط. وهناك أيضا ارادات مضادة لعملية السلام. في المغرب العربي كما تسمونه، هناك ليبيا أولا، أما الجزائر فهي مشغولة الى حد كبير بمشكلاتها الداخلية والحدودية، لذلك فهي تتوقف عند أعتاب النية لا تتجاوزها الى ارادة الفعل. أما ليبيا فشيء اخر. لذلك تصبح مصر هي المساحة البيضاء القادرة على لجم الارادة الليبية. لا يعني ذلك مطلقا أن تكون الحرب هي اللجام، فالتهديد بها وتوتير الحدود وشد الاعصاب يكفي.

اما المشرق العربي كما تسمونه ايضا ـ لا زال الكلام لبريزنسكي ـ فارادات الفعل فيه، المضادة لعملية السلام اخطر بكثير، لعلها هي جوهر الخطر. ولنكن صرحاء يا صديقي فأقول ان جوهر الخطر هو سورية وانا أعلم تماما أن العلاقات العربية مع دمشق باردة كثيرا على الصعيد الاقتصادي وفاترة كثيرا على الصعيد السياسي. سورية شبه محاصرة ولكن الحصار العربي رغم اهميته لا يصنع مساحة بيضاء تحول دون الارادة السورية المضادة لكامب ديفيد. لذلك نرى في اسرائيل هذه المساحة القادرة، عبر الجنوب اللبناني، أن تقف بوجه سورية والفلسطينيين معا. هذه هي قصة المساحة البيضاء. هل هي قصة صعبة؟

اجاب الدبلوماسي الاردني: لا.. ليست صعبة، ولكنها معقدة خطيرة وشبه مستحيلة.

توقف الشاب الامريكي ذي الاصل اللبناني عن الكلام، لانه كما قال لم يتح له أن يعرف كيف شرح الدبلوماسي الاردني لمستشار الامن القومي الامريكي أوجه التعقيد والخطورة في قصة المساحة البيضاء.

ولكن ما لم يسمعه كان مدار «حديث شخصي» بين الرئيسين الامريكي والفرنسي في قمة الدول الصناعية السبع باحدى جزر البندقية. وهو الحديث الذي أشارت اليه جريدة «لوموند» في حينها وقالت انه بلغ في احدى مراحله درجة من الجدة لفتت انتباه بعض اعضاء الوفود الذين كانوا ينتظرون في الردهة الخارجية. والمؤكد ان احدا منهم لم يعرف ماذا حدث بالضبط حتى يتجهم كارتر اثناء خروجه من الغرفة المغلقة، على غير عادته في خداع المصورين.

ولكن المؤكد كذلك، ان نبأ الانسحاب السوفياتي الجزئي من افغانستان، كان مضمون الرسالة التي تلقاها الرئيس الفرنسي جيسكار دستان في ذروة انعقاد المؤتمر. والمؤكد اكثر أن مسيو فرانسوا بوانسيه وزير الخارجية الفرنسية وضع هذا الاسبوع بعض النقاط على بعض

الحروف في « حديث الافطار » الذي عقده مع ثمانية من الصحفيين العرب في باريس .

واذا شئنا ربط الخيوط على نحو مبسط، يمكن الاستنتاج بأن الرئيس الفرنسي قد رأى في المبادرة السوفياتية مدخلا لحل ما في الشرق الاوسط، فالمسألة الافغانية قد ارتبطت دون قصد مقصود، بمسألة الشرق الاوسط، عبر النفط والممرات الملاحية الاستراتيجية.

ويبدو أن الرئيس الفرنسي يرى أن اعترافا أمريكيا بحق تقرير المصير للفلسطينيين، يجد صداه لدى قادة الكرملين ودول النفط بما فيها ايران «هكذا نكون بحجر واحد أصبنا عدة عصافير» يقول ديستان كما نقل بعضهم. و« عصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة» اجاب كارتر، على ذمة الناقلين .

والعصفور، طبعا، هـو مصر..

وفي ترجمة اخرى هـو النفط . .

والمسافة بين مصر والنفط، هـي ذاتها المسافة بين الشرق الاوسط وافغانستان. والترجمة السياسية لهذه المسافة هـي القضية الفلسطينية. والتعبير الاستراتيجي عن هـذه المسافة ـ بعد حرب تشرين ـ هـو سورية. اما التعبير التاكتيكي فهو جنوب لبنان .

... وهـذه الكلمات كلها ليست من عندي، وانما هـي بقلم البروفيسور ناف رودنسون، استاذ العلوم السياسية في جامعة بنسلفانيا. يقول حرفيا في مقال نشرته « كريستيان ساينس مونيتور» بعددهـا الاخير « لم يحدث قط ان اصبح العالم قريتنا الكبرى كما كان يقول الكاتب البريطاني هـ. جـ. ويلز، كما هـو الان، فقد تشابكت اوضاع عالمنا المعاصر على نحو مخيف يجعل من الحلم بالعودة الى اكواخ الغابة كما كان يحلم كاتبنا الامريكي ثورو حلما ذهـبيا. فالمواطن في تكساس الذي سمع فجأة عن افغانستان، لم

يسمع بعد عن فلسطين، وربما لم يسمع ايضا بسوريا، بالرغم من ان افغانستان تعني له سعر صفيحة البنزين بعد عشرين سنة. وهو سعر لن يتحكم فيه بكل تأكيد حكام كابول الحاليين او القادمين وانما سيتحكم فيه بالقطع السوفيات والفلسطينيون. قبل هـؤلاء وبعدهم هناك السوريون الذين ابدوا مهارة فائقة خلال الثلاثين عاما الاخيرة في جعل خاتمهم هو جواز السفر الشرعي الوحيد للقومية العربية. ان دولا عربية كثيرة لا تستطيع الجهر بموافقتها على خطوات الرئيس السادات، خوفا من السوريين وحدهم بالرغم من ان هـؤلاء الاخيرين لا يملكون نفطا، بل ويستطيع معارضوهم ان يتحكموا فيهم قليلا عبر النفط والدعم المالي قلت قليلا، لان هناك خطا احمر لا يستطيع ان يتجاوزه هؤلاء.

وقد كانت سورية دائما تستطيع الوقوف بوجه خصومها المشرقيين او الخليجيين، حين كانت معها مصر، بشكل اوبآخر. اما وقد غابت مصر فهي تمر بتجربة استراتيجية جديدة كليا. انها محاصرة بكل معنى الكلمة. ومع ذلك، فهي ليست ضعيفة مطلقا، لانها تملك اربح الاوراق في اللعبة واعني الجغرافيا والتاريخ وهي امور قد لا تخطر ببال صانع القرار الامريكي او الاسرائيلي او المصري. ولكنها من البديهيات عند العرب، وخاصة الذين يحاصرونها. موقع سوريا وتاريخها الاجتماعي لا يقبلان حتى باتفاقية سيناء الثانية فكيف يمكن ان يقبلا بكامب ديفيد ؟.

وقد بذل البعض ولا زالوا يبذلون جهدا مضنيا لتغيير جواز السفر السوري الى القومية العربية، واستبداله بجواز اسلامي، يمكن العبور به الى القدس دون فلسطين ولكن هذه المحاولة باءت بفشل ذريع، حين ردت اسرائيل عمليا بضم القدس الشرقية ضما قانونيا. ان الرئيس السادات ورئيس الوزراء مناحيم بيغن يكملان بعضهما في سد اي طريق آخر لبقية العرب. ولكن الولايات المتحدة لا يجب ان تفعل لان النمر المحاصر اكثر خطرا في المستقبل المنظور. رئيس مصر وضع العرب كل العرب امام

الاختيار الصعب بزيارته لاسرائيل وتوقيعه الاتفاقيات والمعاهدات. ورئيس الوزراء الاسرائيلي وضع كل العرب امام الاختيار الصعب بالتوسع العسكري في جنوب لبنان وبالضم القانوني للقدس الشرقية.

هنا لا يستطيع العرب من خصوم سورية، الذهاب حتى نهاية الشوط. وهنا لا تفيد محاولة استخراج جواز سفر اسلامي الذي تنشط بعض الجهات العربية وغير العربية لاضفاء الشرعية عليه، بالدعاية الثقافية خارج سورية والاعمال المسلحة داخلها. ونحن الامريكيين لا نستطيع ان نكون مسلمين في افغانستان واعداء للاسلام في ايران. انها لعبة ساذجة لا يقرها البروفسور بريجنسكي باية حال اذا قيست بمعاييره الاستراتيجية. والرئيس كارتر لا يستطيع ان يبرر سلسلة قراراته الارتجالية بالضمير المسيحي وحقوق الانسان، حيث يدين التدخل السوفياتي ـ ونحن معه ـ في كابول. ويسمح بالمغامرة العسكرية الفاشلة في طهران لماذا لا نكون صرحاء في معالجة صراع «الشرق الاوسط» في ضوء المسألة الافغانية. هذا الضوء هو النفط الذي سيبقى قنبلة موقوتة في العشرين عاما المقبلة، الا اذا تجاوز الوفاق الدولي مرحلة البحث عن الصواريخ العابرة للقارات الى مسألة الانابيب الناقلة للنفط من الخليج ولا سبيل لهذا التجاوز بغير قيادة تاريخية للولايات المتحدة لا تخضع للنزوات الانتخابية العابرة. قيادة تبصر اصول المشكلات وجوهرها، لا نتائجها او ديكوراتها. ان لبنان القبرصي ـ نسبة الى الوضع الطائفي الانقسامي في قبرص ـ لا زال ينتظر عند المنعطف كمحكوم بالاعدام. والسبب هو اننا نحاور كافة الاطراف المهمة، وغير المهمة وننسى الطرف الرئيسي، وهو سورية. ومن البديهي ان القرار الفلسطيني هو في النهاية قرار عربي. ولكن يجب ان يكون من البديهي أكثر، ان اكبر اجزاء القرار العربي، بعد غياب مصر هي صناعة سورية.

لذلك كان الحوار، بدلا من الحصار، هو الطريق الوحيد الى حل المعادلة الصعبة بين صراع الشرق وازمة افغانستان. ربما كان غير الطريق

الذي مضى فيه الرئيس السادات. ولكن لكل مرحلة طرقا، فالزمن لم ينته بعد.

احب ان اقول انني تعمدت الاستشهاد المطول بعض الشيء بمقال البروفيسور رودنسون، لأن صاحبه هو احد اعضاء اللجنة الشهيرة التي تكونت مع بداية الرئاسة الاولى لكارتر برئاسة بريزنسكي، وصاغت ما عرف منذ ذلك الوقت بمشروع امريكي لحل أزمة الشرق الاوسط. غير انه طيلة السنوات الاربع التالية جرت تحت الجسر مياه كثيرة.

والقراءة المتعجلة لهذا المقال، قد تستنتج ان كاتبه مع العرب او الحق الفلسطيني او سورية.. ولكن الحقيقة هي غير ذلك وان كان الرجل يستوعب حقائق التاريخ ومتغيرات العصر اكثر من غيره.

والحقيقة الاخرى، هي انه قد آن الاوان، لبعض العرب الا يتوقفوا كثيرا عند الاحداث العابرة او علامات الزمن السطحية، كالانتخابات الامريكية او المبادرة الاوربية، او التصريحات الدراماتيكية لرؤساء بعض الدول الغربية، او البيانات المشتركة التي تصدر بعد حفلات العشاء. وذلك ان الحقائق الاكيدة والتي لا تحتاج الى المنجمين ولا الى اقمار التجسس تقول بحروف كبيرة.

☐ ان حلفا عسكريا غير مكتوب، ولكنه قيد الانجاز يتم على مراحل، بين النظامين المصري والصهيوني والولايات المتحدة الامريكية سيكون مستعدا للعمل الاستراتيجي المشترك بعد ستة اشهر فقط.

☐ النفط، هو المادة الاستراتيجية الخام التي يستهدفها هذا الحلف، لا لحل مشكلات اقتصادية اقليمية لمصر أو اسرائيل، بل لضبط العلاقة في العشرين عاما القادمة بين دول الغرب ودول الخليج.

☐ ـ ان المساحات البيضاء ـ التي اشار اليها بريزنسكي في حديثه مع الدبلوماسي الاردني، ليست اكثر من رايات كرنفالية تشغل العرب، كل

العرب، عن منبع الخطر الحقيقي، ومصبه ايضا.. فليس الاحتكاك بين مصر وليبيا الا تغطية لاستعادة افريقيا بكاملها الى فلك النفوذ الامريكي - الصهيوني.. وما جرى في الصومال وكينيا من تقديم مساعدات علنية للقوات الامريكية هو أول الغيث. كذلك حصار سورية هو في جوهره محاصرة للعرب جميعا، وايران معهم، لاسترداد الخليج بأكمله من باب المندب الى شط العرب.

لذلك يصبح تسويد - كامب ديفيد - على صراع الشرق الاوسط، هو الحل الوحيد امام اعضاء الحلف، لان اي تعديل هو فتح ثغرة في بنائه، لا احد يدري ماذا يمر منها ويتسرب.

ولعل ذلك هو أحد اسرار الصراع المكتوم بين فرنسا والولايات المتحدة، لان اوربا الغربية ليست شريكة في الحلف، وان تمتعت بثمراته. ولكنها متعة التابع، لا متعة الند.

ولعل ذلك ايضا هو احد اسرار التصدع المكتوم في الصف المعارض لسورية وليبيا ومنظمة التحرير الفلسطينية.. لان حصار سورية لم يفد، وتهديد ليبيا لم يفد، واغراء المقاومة لم يفد، كله نفعا. بل سريعا ما بدت الامور على العكس تماما، فالذين يحاصرون سورية اقتصاديا هم المحاصرون باستراتيجية الحلف وادواته على السواء.. والذين يهددون ليبيا يعانون الاهوال داخل حدودهم. والذين يصلون من اجل تصفية القضية هم الذين يحتاجون للصلاة من أجلهم.

... وارجو الا اكون قد تجاوزت الحد. ولكني، رغبت فقط، في تنبيه الذين توقفوا عند تصريحات السفير الامريكي لدى وصوله الى بيروت، بأن سيناريو الاخرين ليس هو السيناريو الوحيد لفيلم الاحداث المقبلة.

١٩٨٠/٧/٧

الوحدة أو الانقراض

في خطابه الاستثنائي بمناسبة العيد الحادي عشر لثورة الفاتح من سبتمبر، أجاب معمر القذافي على كثير من الاسئلة والتساؤلات التي كانت تعتلج بها صدور القوميين العرب في صمت خشية أن يساء تفسيرها أو يصاغ تأويلها على نحو أبعد ما يكون عن مكامن الحب والاعزاز للثورة الليبية

طرح الرجل، بشجاعة يحسده عليها الكثيرون، كل الاسئلة والتساؤلات ودفعة واحدة.

قال عن سورية ما لم يقله بعد أي زعيم عربي آخر. وقال عن لبنان وفلسطين ما كان يجب أن يسمعه إي مناضل عربي آخر. وقال عن مصر ما نتفق ونختلف حوله من موقع الخندق الواحد لا من أي خندق آخر.

وليس من عادتي أن اعلق على خطاب لاحد القادة أو الزعماء. ولا أعد أنني سأفعل هذا من قبيل الاستثناء.. ولكني سأحاول قراءة هذا الخطاب الاستثنائي بطبيعته في ضوء السياق الوطني والقومي والدولي المتدفق بالاحداث والحافل بالمتغيرات.

ولعلي استأذن في البداية ان اسجل مجموعة من النقاط النظرية، يمكن استخلاصها في جلاء ووضوح تام من كلمات العقيد القذافي، حتى نستطيع رؤية الاحداث التي تناولها بمنظاره هو:

● اول هذه النقاط على الاطلاق هو استعادة الحيوية الخارقة للوحدة القومية، باعتبارها ركيزة استراتيجية للانطلاق نحو التنمية او التحرير على السواء.

في ضوء هذه النقطة كان طرحه المباشر للوحدة الاندماجية مع سورية. وكان - قبل ذلك - ادراكه العميق لمعنى الحصار المضروب حول القطر العربي السوري من الداخل والخارج. وهو المعنى الذي أشار اليه بقوله ان سقوط سوريا هو « الانهيار الكامل » للعرب. وأضاف « ان سوريا تتعرض لمؤامرة رجعية في الداخل، فإذا سقطت فان الحدود العربية ستفتح أمام اسرائيل وسيتعرض العراق لما تعرضت له سوريا.. وسيصل اليهود الى «المدينة المنورة»، وأيضا: « ان الذين يتآمرون على وحدة سوريا وعلى صمودها انما ينضمون الى العدو حتى ولو حملوا الكعبة فوق رؤوسهم ».

وهي كلمات، لاتحتاج الى ايضاح، ولكن مجرد الجهر بها في زمن الصمت العربي، بل في زمن التواطؤ العربي، هو شعور طاغ بالمعنى الحقيقي والاصيل والعميق والوحيد، للوحدة العربية.

في ضوء هذه النقطة أيضا، كان القائد الليبي حاسما في القول أن ما يجري في لبنان وفلسطين ومصر لا يقتصر تأثيره على هذه الاقطار وحدها، بل هو يهدد سلبا أية مكتسبات وأية منجزات للشعب العربي في ليبيا. أكثر من ذلك ان الاحتلال الامريكي والصهيوني للقاهرة والقدس وجنوب لبنان، انما هو قهر للحرية في ليبيا. لذلك ليس شعارا ما اطلقه العقيد من تأكيد بأن ليبيا هي « دولة مواجهة »، فالحدور المصرية المحتلة كالحدود الفلسطينية المحتلة تماما.

ومن هنا كان التاكيد الاخر بالغ الاهمية، حيث قال حرفيا: « ان مصر ليست أنور السادات، شعبها وارضها عربيان، ومصيرها عربي وستبقى جزءا من الوطن العربي الممتد من المحيط الى الخليج». ودعا صراحة ملايين من الشعب العربي في مصر للقدوم الى ليبيا التي « ما زالت تتسع

لعشرة ملايين انسان وانه في حال قدوم هذه الملايين، فان الانتاج سيتضاعف».

واذا كان القائد الليبي في هذا المقام قد «لام» الشعب المصري «لان ضباطه وجنوده وعماله وطلابه لم ينتفضوا لمواجهة السادات ومواجهة رأس المال الاجنبي الذي يزحف مجددا الى مصر» فانه لوم الاخ لاخيه. ومن منطلق قومي بحت. ومن هذا المنطلق نفسه نستأذن الاخ العقيد - كما يجب دائما ان نناديه - في القول بأن مصر بلد محتل كفلسطين تماما، فالنظام الحاكم في مصر الان ليس عميلا للاستعمار، لان الاستعمار والصهيونية يحكمان مصر مباشرة. وليس السادات أكثر من طربوش مصري يرتديه الخواجا الامريكي والاسرائيلي. ومن ثم يجب تقييم الحركة الشعبية في مصر، على ضوء هذه الحقيقة: لا يحكم القاهرة نظام مصري رجعي، بل هي عاصمة وطن مغزو ومحتل كالقدس تماما.

لذلك يتخذ النضال العربي المصري شكلا مغايرا ومشابها في الوقت نفسه للنضال الفلسطيني المعاصر. انه مغاير من حيث أن أدوات القهر المباشرة مصرية الوجوه. ومشابه في كونه يتخذ طابع النضال السلمي المشروع والممكن في الداخل، وظهور المقاومة الوليدة للمرة الاولى في تاريخ مصر، في الخارج. ولعل الفرق بين المقاومة الفلسطينية المسلحة والمعارضة الوطنية المصرية هو فارق زمني من ناحية ولان الاحتلال العسكري الاسرائيلي لفلسطين اقتضى اجلاء شعبها من ناحية أخرى. بعد ذلك، وفي الجوهر، لا فرق.

فالانتفاضات الشعبية الفلسطينية قام الشعب العربي المصري بالعديد من الانتفاضات التاريخية المؤثرة، طيلة السنوات التسع الماضية. ولا زال المصريون يذكرون العقيد القذافي عام ١٩٧٢ حين كان في القاهرة، في ذروة الانتفاضة الطلابية العمالية حينذاك، اذ سئل عن رأيه من قبيل الاحراج فما كان منه الا أن بادر الصحفي السائل قائلا: - انني أعتبر

نفسي طالبا في جامعة عين شمس ـ. وكان طلاب هذه الجامعة في طليعة الانتفاضة.

بعد ذلك بثلاث سنوات فقط، تحولت مصانع المحلة الكبرى ـ أكبر مدينة صناعية في وادي النيل ـ الى كومونة يحكمها العمال بالتسيير الذاتي، مما استدعى تدخل الجيش بالدبابات والطائرات. وبعد عام ١٩٧٥ بسنتين فقط كانت انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ـ كانون الثاني الكبرى عام ١٩٧٧ .

ولم تتوقف الانتفاضات الشعبية في مصر يوما واحدا، ولكن سطوة الاعلام المصري والغربي. وغياب أو تجاهل الاعلام العربي، لا يغطي صورة واضحة لتعاظم المعارضة داخل مصر.

على اية حال، فان ـ لوم ـ العقيد القذافي هو كعتاب الاخوة، ودليل أيضا على شمولية النظرة القوميه، فليست الوحدة ان نمتدح بعضنا بعضا بل ان ننقد بعضنا بعضا كذلك. وان يكون الحوار العقلاني من منطلق قومي هو الاساس وهو السبيل.

وفي ضوء هذه النقطة اخيرا ـ رأى قائد الثورة الليبية ـ التي ظهرت في بلد نفطي ـ ان البترول الاجنبي لا ينبغي ان يكون سعره هو نفسه للعربي. كان يدري أن أكثر الاقطار العربية ليست نفطية، وان بعضها في احتياجه لدول النفط الغنية يضطر الى مواقف غير صحيحة. وان بعضها الاخر في اتخاده المواقف الصحيحة يجد نفسه محاصرا بنفط الدول أو بدول النفط على السواء. لذلك كان موقفه في هذه النقطة تحريرا للدول العربية الفقيرة من الحاجة الى الدول الغنية.

● النقطة النظرية الثانية في خطاب العقيد القذافي هي التحديد الصارم للعدو والصديق. وهو ليس التحديد الدارج المألوف وفق اعتبارات عملية موقوتة. بل هو تحديد يتناول بالتعديل الجذري للمفهوم القومي نفسه. قال القائد الليبي، دون تردد: ـ كفى خداعا. ان أمريكا عدو حقيقي. أي عربي صديق لامريكا هو صديق لاسرائيل. وأصدقاء كارتر هم اصدقاء

بيغن ولو نادى زورا وبهتانا بالجهاد المقدس ـ. والاشارة هنا ليست مجرد غمز من قناة حاكم عربي، بل هي استعادة ثورية للمفهوم القومي الاصيل والصحيح والوحيد والعميق، أن لا عروبة رجعية واستسلامية متواطئة او خائنة. العروبة ليست عرقا ونسبا ولا تشدقا بآيات الكتاب الكريم. بل هي الحضارة المتعددة الينابيع الموحدة المصير. اي وحدة المصير القومي والعداء لامريكا واسرائيل ليس عداء للشعب الامريكي ولا لليهود، بل للامبريالية والصهيونية كعقبة كأداء في وجه المصير القومي الواحد للعرب.

فالمصير القومي العربي الموحد يعني تحرير كل شبر من تراب الارض العربية والوحدة القومية للعرب تعني القسمة العادلة بين اقطارهم في الحقوق والواجبات. ومن ثم يصبح بديهيا ان هذا المفهوم القومي الصحيح والوحيد يعني التوزيع العادل للثورة على الشعب، ومشاركة قواه الاجتماعية الحية في صنع القرار: فالاشتراكية والديموقراطية تحلق القومية العربية نحو آفاق لا تحد.

.. والا فالانهيار الكامل، كما يقول القذافي، او الانقراض كما أحب أن أقول.

● النقطة النظرية الثالثة في خطاب القائد العربي الليبي، هي الاعلام. في ضوء هذه النقطة يرى أن الاعلام ليس سلطة، وانه يجب ان يكون بيد الشعب. وضرب مثلا حيا مباشرا على «الفصام» بين الاعلام والشعب، بالحال الاعلامية في الولايات المتحدة الامـريكيـة. وقـال أن المواطـن الامريكي في احدى الولايات لا يدري شيئا عما يحدث في ولاية اخرى. وهذا صحيح. وبالطبع لم يكن مضطرا لان يضيف ان هذا المواطن الامريكي الذي ينتخب كارتر او ريغان لا يعرف شيئا عن حقيقة الاوضاع في بلاده ولا في البلاد الاخرى. ومن ثم فالجهل هنا ليس هو الجهل بالابجدية، بل الجهل السياسي الاعمى. وهو في ذاته ـ خطة ـ اعلامية امريكية لتجهيل المواطنين.

اما الاعلام الثوري فهو ـ على حد تعبير القذافي ـ: ـ يساعد على القضاء بشكل نهائي على الاستغلال وعلى انعتاق المواطن من القيود الخارجية والداخلية ـ .

في ضوء هذه النقطة فان الدعوة القادمة من قائد الثورة في ليبيا ليست مقصورة على اللجان الثورية، في هذا القطر، بل هي دعوة قومية شاملة . . لان الاعلام القطري وان نادى بعضه بشعارات قومية لا يحقق الوعي القومي . أي اننا، على صعيد الاقطار العربية مجتمعة وعلى صعيد جامعة الدول العربية، نحتاج الى ثورة اعلامية شاملة، لا تتوقف عند حدود ثورة المواصلات والتكنولوجيا والالوان والتصوير وفن صياغة الخبر . وانما تستوعب ذلك كله، جنبا الى جنب مع توعية قومية اصلية في أخطر مرحلة يجتازها الفكر القومي العربي على مدى تاريخه .

. . فلاول مرة هناك شعب عربي كامل، محاصر داخل اسوار عالية ـ هو الشعب المصري ـ يتعرض لحملة غسل دماغ جماعية تستهدف تغيير هويته القومية وسلخه من جلده .

. . ولاول مرة هناك تيارات اقليمية وطائفية وعنصرية طافية على سطح الاحداث على نحو ثورة اي ضمير قومي لا زال ينبض ايمانا بوحدة هذه الامة .

. . ولاول مرة هناك تراجع وانحسار للفكر القومي نفسه حتى انه يتخذ في احسن الاحوال موقفا دفاعيا، يصل بالمواطن العادي الى حافة اليأس .

لذلك اعتقد أن اشارة العقيد القذافي الى هذه النقطة لم تكن اشارة عابرة أو مرهونة بوضع خاص في بلاده . وانما هي نقطة نظرية وثيقة الصلة بمجمل رؤياه لمستقبل الامة المحفوف بالمخاطر . . حيث يرقى الاعلام الى درجة قصوى من الاهمية، لا باعتباره جزءا تقليديا من مهام الدولة، اي دولة، بل باعتباره جيشا حقيقيا في اشرس المعارك .

ان السادات يحاربنا في واقع الامر بجيش اعلامي يستهدف اقتلاع جذور الهوية القومية العربية من اعماق النفس المصرية، بل ويستهدف ارباك العقل العربي وانهاكه وتركيعه خارج مصر ايضا .

والولايات المتحدة ـ والغرب كله معها ـ يحاربنا بجيوش اعلامية تبدأ بمراكز البحث العلمي والجامعات ولا تنتهي بالندوات والمؤمرات المزورة التي يدعى اليها الاساتذة العرب . . خاصة القوميين منهم .

واسرائيل تمسك بالمسدس والكتاب معا ، بالمسدس والصحيفة معا ،بالمسدس والراديو معا . . الى آخره .

ونحن . . أين نحن ؟

● □ ●

قبل أن احاول الجواب، احب التاكيد من جديد، انني لم اشأ التعليق على خطاب العقيد معمر القذافي ، بل رأيت ان استخلص منه اهم النقاط النظرية، لاستكشف في ضوئها الاحداث التي تناولها، والتي نحياها ونموتها معه من المحيط الى الخليج .

فهذا الخطاب ليس جرعة مركزة من ديوان الحماسة، ولا هو مفاجأة في السياق العربي والدولي المتدفق بالحوادث والحافل بالمتغيرات. ربما كانت المفاجأة هي ردود الفعل ازاءه حيث اعاد الذكريات الى اجواء االوحدة المصرية السورية منذ اثنتين وعشرين عاما، وحيث استعاد الوهج المضيء المشرق باسم الوحدة العربية

ولكن الحقيقة هي ان الخطاب جزء من حملة الصمود العربية في مواجهة المؤامرة المستمرة على امتنا منذ زيارة القدس المحتلة الى تقنين ضمها عاصمة أبدية للكيان الصهيوني .

وما يعنينا الان هو احدث فصول المؤامرة التي يمكن أيجازها في اربع نقاط :

□ الاولى، هي حشد السادات لقواته المسلحة على الحدود الليبية استفزازا وارهابا وتهديدا بحرب مستحيلة.

وحتى اكون واضحا ابدأ بالقول ان الظروف كلها تدفع النظام المصري الى شن حرب محدودة على الحدود الليبية... فالامريكيون لا يرفضون هذه الحرب بشرط ضمان نجاحها في زحزحة النظام الليبي او هزه في العمق على اقل تقدير. وأيضا بشرط ابعاد اية شبهة للتواطؤ بين القاهرة وواشنطن.. وفترة الانتخابات الرئاسية هي انسب توقيت ممكن تتجاسر الولايات المتحدة على القول بأنها لم تكن هنا، وانها كانت مشغولة حتى العنق.

والاسرائيليون لا يرفضون هذه الحرب، بل يشجعون السادات عليها حتى يخلق وضعا عربيا جديدا اذا نجح، وحتى يتصلوا من ضغوط تمارس عليهم بشأن الحكم الذاتي اذا سقط.

والوضع الداخلي المتفجر في مصر يدفع السادات الى المغامرة، حتى يوجه انظار الشعب بعيدا عن همومهم اليومية التي تصل الى حد المجاعة، والتي وصل الامر بشأنها الى منع اكل اللحوم شهراً كاملا. وهو ما يحدث للمرة الاولى في تاريخ مصر الحديث، على الاقل. توجيه الانظار خارج الحدود، يؤجل تحديق العيون داخلها، لبعض الوقت.

الوضع العربي عموما، لا يمانع في مثل هذه الحرب، سواء سلبا بالتهائه عن قضايا المصير بانشقاقات جانبية، او ايجابا وعن قصد وتصميم بان تفسح هذه الحرب مجالا ـ لاستعادة السادات الى الحظيرة العربية ـ كما يقال تمهيداً لكامب ديفيد الثاني كما لا يقال وان بات معروفا.

أما اكثر الاوضاع اغراء للسادات بالمقامرة، فهو الوضع الليبي نفسه... فخلال احد عشر عاما تمكنت الثورة العربية في ليبيا ان تقوم بتحولات اجتماعية عميقة من شأنها اولا ان تكون مثلا قريبا من عيون المصريين، يقارن به الوضع في مصر، وقد يقتدى به اذا سمحت الظروف. ومن شأن هذه التحولات ايضا انها اقامت من مشاريع التنمية الحصينة ما يجعلها قلاعا

راسخة في وجه التخلف حين ينضب النفط. وكان من شأن هذه التحولات اخيرا ـ وهو ما يدركه السادات قبل غيره ـ انها ترافقت بتطور عسكري استراتيجي بالغ الاهمية.

هذا التقدم الليبي الذي يشبه طفرات القفز لا التطور التدريجي الهادىء، يغري السادات وسادته جميعا، لاجهاضه اولا فاول.

وهو درس قديم مورس مع مصر ذاتها اولا. فقد كانت ضربة ١٩٦٧ من احد جوانبها ضربة للنموذج الناصري في التقدم الاجتماعي والتنمية. وقد اشتهرت كلمات بن غوريون عام ١٩٥٦ للمستر همرشلد الامين العام للامم المتحدة حينذاك حين تلكأت القوات الاسرائيلية في الانسحاب من سيناء. قال له همرشلد ايامها ـ ان مصر بلد مسالم، وعبد الناصر رجل يريد ان يبني وطنه فقط ـ فاجابه الثعلب الصهيوني ـ وهذا بالضبط ما يخيفني ـ.

ولكن....

رغم ان واشنطن لا ترفض هذه الحرب، واسرائيل تشجع عليها، وحالة مصر الداخلية تدفع اليها، والوضع العربي العام لا يمانع منها، والوضع الليبي بوجه خاص يغري بها، الا انها في الوقت نفسه هي الحرب المستحيلة.

وليس هذا رأيي...

بل هو خلاصة ـ تقدير موقف ـ كلف به السادات صفوة من مستشاريه العسكريين والمدنيين منذ اكثر من شهر، واستطاع صحفي اميركي بارز ان يحصل على نسخة موجزة منه، وكاد ينشره في صحيفته الكبرى، لولا تدخل بعض الجهات المؤثرة في اللحظة الاخيرة.

ماذا يقول التقرير الموجز؟

● يقول اولا ان دفعة من الضباط المصريين الذين نقلوا الى الحدود الغربية

منذ اكثر من ستة شهور استطاعوا الاستيلاء الكامل على مجموع القوات المرابطة هناك ... لا لانهم رفضوا الحرب، بل لانهم كانوا جزءا من خطة انقلابية، من المفروض ان تتم بدءا من احدى القواعد غرب القاهرة. وحين اكتشف امر هذه القاعدة كانت الهزيمة حتمية للمرابطين غرب الصحراء. اعدم البعض. وسجن البعض الاخر. وسرح البعض الثالث. ولكن الانتقال من والى الحدود الغربية لم يعد من الاشياء الميسورة او الهينة.

● يقول ثانيا ان محاولة اخرى جرت في القاعدة ذاتها بغرب القاهرة حين انطلقت عدة متفجرات في وقت واحد تصاحبها المدافع الرشاشة اثناء اجتماع عسكري اميركي مصري قتل فيه البعض واصيب الكثيرون بجروح، وتحطمت تماما اكثر من طائرة أميركية قاذفة مقاتلة على الارض.

● يقول ثالثا ان الطائرة الاميركية التي اعلنت القاهرة عن سقوطها لم تكن الاولى ولا الاخيرة، بل هي احدى ثلاث محاولات - تخريبية - جرت بنجاح.

● يقول رابعا ان استطلاعا للرأي اجرته المخابرات المصرية بالتعاون مع - الاصدقاء من الاميركيين والاسرائيليين - والجامعة الاميركية في القاهرة، يقطع بأن الغالبية الساحقة من المصريين تساءلت - كيف نحارب اي بلد، وحكامنا يقولون انهم اصطلحوا مع عدونا حتى يأتينا الرخاء؟ -.

● يقول خامسا ان دولا مهمة في اوروبا الغربية حذرت السادات من انه لن يجد لديها ما تعطيه من دعم معنوي اذا قام بهذه الحرب. وبعض هذه الدول كتب الى بعض القادة العرب بما لديه من معلومات.

هل هذه الاسباب وحدها تكفي لجعل الحرب مستحيلة؟
شخصيا، اكتفي بها

ولكن خطاب معمر القذافي. بما يشتمل عليه من برنامج عمل قومي، يجعلني على يقين من انها .. فعلا مستحيلة.

٢ ـ النقطة الثانية في فصول المؤامرة، هي ضرب الصمود السوري، من الداخل والخارج.

واذا كنت قد قلت ان الحرب بين السادات وليبيا هي الحرب المستحيلة، فاني احب ان اقول عن الصمود العربي السوري انه الصمود الحتمي. أي لن تسقط سورية.

لماذا، وكل الظواهر ضارية في حمل بذور الشك؟ تسليح عربي لا يتوجه للجيش السوري البطل. بل الى صدور هذا الجيش وقلوب ابناء الشعب الذي ينتمي اليه. تصعيد انعزالي لبناني: تهديدات اسرائيلية بالقول والفعل. سياسات عربية متخاذلة تحاصر القلعة العربية في دمشق بدعوات مشبوهة لاستعادة السادات الى الحظيرة. بعبارات كلامية اوروبية تستكمل احكام الدائرة الجهنمية كلها ظواهر تبذر الشك (في الصمود العربي السوري).

ولكن الجواب، حلق به عاليا نسور الجو السوريون، وهم يدافعون عن سماء لبنان وقضية فلسطين.

كانوا وحدهم يتحدون الصلف الاسرائيلي باعلى صوت يخترق الصمت العربي.

كانت سوريا ولا تزال ـ كما قال القذافي تماما ـ وحدها في مواجهة العدو بالإصالة عن نفسها، وبالنيابة عن الامة العربية كلها... حتى عن اولئك الذين باعوها بالجملة او يبيعونها بالتقسيط المربح!

لذلك كان الصمود السوري هو الصمود الحتمي. انه صمود التاريخ والطبيعة ذاتها.

ومن هنا يفهم المرء الى غير حد المدلول العميق لدعوة القذافي الى وحدة اندماجية بين ليبيا وسوريا. ويصبح خطابه برنامجا قوميا للعمل الوحدوي يحيي املا كاد الناس يظنونه سرابا.

٣ ـ النقطة الثالثة في احدث فصول المؤامرة، بدأت بانتفاضة الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة، وقيام ـ اسرائيل ـ بارهاب رؤساء البلديات العرب سواء بطردهم او ببتر سيقانهم.. حتى وصلت الانتفاضة الى اضراب المعتقلين العرب اضرابا شاملا عن الطعام لمدة تزيد عن اربعين يوما.

واكب ذلك ما يسمى بنهاية الطريق المسدود امام مفاوضات الحكم الذاتي بين النظامين المصري والصهيوني.

ماذا فعلت اسرائيل للتغطية المضادة؟

مزيد من المستوطنات. شق قناة بين البحرين الميت والمتوسط. تقنين ضم القدس عاصمة ابدية للكيان مطاردة مكثفة للبنانيين والفلسطينيين في جنوب لبنان.

أي، المزيد من احتلال الارض وقتل البشر.
والحكام العرب يلجأون الى مجلس الامن..
والى لجنة تحرير القدس في الرباط..
والى الجهاد المقدس بمذكرته التفسيرية الرافضة للقتال.

والى قطع العلاقات الدبلوماسية مع كوكب المريخ والزهرة لانهما لم ينقلا سفارتيهما من القدس.

لذلك كله قال معمر القذافي عبارته الرمزية العميقة انه اذا لم نتحول الى الوحدة، فسينضم الى المقاومة الفلسطينية، ويتوجه الى الجليل الاعلى ليقاتل ويموت هناك ـ انني جندي اعيش شريفا او اموت شريفا، لا اريد قيادة ولا رياسة ـ.

٤ ـ النقطة الرابعة والاخيرة في احدث فصول المؤامرة هي تطور الامور عسكريا في المناطق الشرقية من بيروت، بتنسيق واضح مع تطورها في الجنوب. فاذا اضفنا مسلسل المتفجرات في كل المناطق، وجود

الاوضاع السياسية على كافة الاصعدة، لا يرى ـ كما رأيت خلال ما يزيد على الاشهر الثلاثة الاخيرة بنفسي وعلى الطبيعة ـ سوى ان المقصود هو:

● تكريس تقسيم لبنان دون الحاجة الى التشريع لذلك حتى يستفيد الانعزاليون من الشرعية بما تنفقه اجهزة الدولة ومؤسساتها من الميزانية الرسمية . . حتى جنود سعد حداد يتقاضون مرتباتهم .

● محاصرة الوجود السوري في لبنان بهدف استدراجه الى معركة لا يحدد زمانها ولا مكانها، او بهدف انسحابه، حتى يتم لاسرائيل والمليشيات المتحالفة معها هدفها المشترك في تصفية المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية تمهيدا لتوسيع رقعة الدويلة الفاشية لتمتد فوق كل لبنان .

ويصبح لدينا ثلاث اسرائيلات، لا واحدة . الاولى في فلسطين، والثانية في مصر، والثالثة في لبنان . هذه هي الحقيقة دون زيادة او نقصان، دون لف او دوران، دون اقنعة او ماكياج .

وهي الحقيقة العارية التي اطلعنا عليها القذافي في خطابه، كما لو كنا نرى انفسنا في المرآة للمرة الاولى .

وهي ايضا الحقيقة التي تصرخ في وجوهنا، ربما للمرة الاخيرة: الوحدة او الانقراض . ولا بديل آخر . اما ان نكون عربا او لا نكون على الاطلاق .

فهل نبرهن للتاريخ مرة واحدة على اننا تلاميذه الاكفاء؟

٨٠/٩/٨

الوَحدة أوّلاً . . الوَحدة أخيراً

. . . وهناك

« تفويض بالتغيير »

للجنرال ايزنهاور كتاب وحيد اصدره قبيل وفاته تحت عنوان « تفويض بالتغيير » يؤرخ فيه لمرحلة الرئاسة الاميركية في الخمسينات، حيث اقبل قائد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كأول رئيس أميركي تحوط عنقه قلائد النصر العسكري، وتزدحم فوق صدره اوسمة المعارك التي خاضها، وفي قلبه نجوم علم الولايات المتحدة التي فوضته « بالتغيير ».

وكان التغيير الاميركي المقصود هو اعادة بناء مركز الولايات المتحدة كقائد وحيد للمعسكر الغربي، بما يتطلبه ذلك من تلميع الوضع الداخلي، واحتلال مقعد الزعامة العالمية الذي فرغ بعد الحرب بتراجع الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية، على الصعيد الخارجي.

وكان ما يسمى بملء الفراغ حينا وبمبدأ ايزنهاور حينا آخر يعني بالنسبة لنا نحن العرب الدخول في مسلسل الاحلاف الغربية.

وقد ادركت القومية العربية حينذاك ان المطلوب هو استبدال الاستعمار القديم باستعمار جديد، فكان ردها المدوي هو تفويض آخر بالتغيير المضاد للاحلام الاميركية، وذلك بابرام الوحدة بين مصر وسورية.

نحن الان في الثلث الاخير من عام ١٩٨٠.

والتغيير الاميركي الذي كان حلما في عهد ايزنهاور، اصبح واقعا واكثر، في عهد كارتر ـ بيغن ـ السادات:

● اكبر دولة عربية هي مصر، اضحت قاعدة صريحة للاستعمار الاميركي والصهيونية.

● لبنان، حيث يستضيف المقاومة الفلسطينية، أصبح دويلات يخضع بعضها مباشرة لاستراتيجية الكيان الصهيوني.

● قواعد التدخل الاميركي السريع في الخليج العربي، تبنى على قدم وساق من الصومال الى سلطنة عمان مرورا بمصر.

● التفكك العربي يبلغ حده الاقصى حتى لم يبق هناك بلدان متجاوران على وفاق.

... وكلها عوامل وعناصر تشكل مناخا عربيا يكاد يكون نقيضا لمناخ اواسط وأواخر الخمسينات، حيث كان الرد القومي على التغيير الاميركي هو قيام أول دولة وحدوية في التاريخ العربي الحديث.

ومعنى ذلك بوضوح، أن الدوافع الايجابية التي جعلت من دولة الوحدة عام ١٩٥٨ امتدادا موضوعيا للمد الثوري العربي بعد معركة السويس حينذاك، قد حلت مكانها تراكمات سلبية منذ هزيمة ١٩٦٧ الى اليوم.

... كذلك، فان احدا لا يستطيع ان ينكر ما تراه كل العيون من خطر حقيقي يتمثل في تحول البندقية المصرية عن الاتجاه شرقا نحو اسرائيل، الى الاتجاه غربا نحو ليبيا، وما يعنيه ذلك من مضاعفات داخل الجماهيرية الليبية ذاتها. كما ان احدا لا يستطيع ان ينكر ما تسمعه كل الآذان من تهديدات اسرائيلية صريحة لسورية، وما تعنيه من دعم مباشر لاتجاهات التخريب المسلح داخل هذا القطر. فهل يمكن للوحدة ان تكون حاصل جمع مأزقين؟.

... ان الوحدة، اية وحدة، يجب ان يكون مكفولا لها الحد الادنى من مقومات اسمها، أي وحـدة الارض. والمســافــة الهائلــة بين ارض الجماهيرية والاراضي السورية، لا يمكن اختصارها بالجو أو البحر اذا شئنا

وحدة الانسان هنا وهناك، فكيف يمكن القفز فوق أوامر الطبيعة؟ لقد تعلمنا دائما ان الاقطار المجاورة هي صاحبة الاولوية في اقامة الوحدة بينها: وحدة وادي النيل، وحدة المغرب العربي، وحدة الخليج.. الى آخره. أما ان نقيم جسرا بين المشرق والمغرب، فهو المعجزة، في عصر لا يعرف المعجزات.

... وليس أخيرا ان التجربة السياسية للثورة الليبية قطعت شوطا يختلف مجراه عن التجربة السياسية السورية، فكيف يمكن أن يلتقيا وفي أي مصب؟.

هذه الاسئلة وغيرها كثير، لا يجب ان نبادر عليها فورا بالقول ان اصحابها غير وحدويين أو في احسن الفروض، هم مشككون. واذا كنا قد استخرجناها من دهاليز الصمت الى حيز العلن، فما ذلك الا ليقوم حوار ديمقراطي علني حول اخطر خطوة تمس المصير القومي في الصميم. اننا بغير هذا الحوار نصبح كالنعامة، نخفي رؤوسنا في الرمال ونظن ان الصياد لن يرانا.

والحقيقة هي ان الصيادين جميعا على أهبة الاستعداد، وقد استنفروا قواتهم ـ منذ اعلان طرابلس ـ الى الدرجة القصوى.

ولعلي لا اتجاوز اذا قلت ان الوحدة المقبلة بين سورية وليبيا ليست اكثر من «تفويض بالتغيير» تمليه روح الامة العربية وارادتها الخفية، على كاهل الجيل العربي المعاصر بمختلف اتجاهاته وعقائده ومصالحه، كفرصة اخيرة للنجاة من الصفة التي اطلقت عليه طيلة عشر سنوات، وهو انه جيل الهزيمة.

ولعلني أيضا لا أتجاوز اذا قلت ان وحدة الخمسينات كانت أمرا ممكنا، ومع ذلك فقد هزمت. والمطلوب من الجيل الحالي ان يصنع وحدة تبدو في ظل كل المواصفات التقليدية كما لو كانت أمرا مستحيلا، ومع

ذلك ليس أمامها من خيار سوى النجاح... او السقوط اللانهائي لدرجة الانقراض.

بعد هاتين الوقفتين ـ او نقطتي النظام ـ أحب ان اضيف، انني كعربي من مصر، أراني معنيا بالدرجة الاولى من جانب اية وحدة عربية، فاذا كانت بين سورية وليبيا، أراني مسؤولا عن هذه الوحدة كأي مواطن عربي آخر من القطرين.

واستأذن في شرح الاسباب:

١ ـ برهنت احداث التاريخ القديم والمعاصر، على ان مصر اما ان تكون عربية او لا تكون على الاطلاق. ولانني احب لوطني ان يكون ولا يضيع، فأن اية خطوة توحد العرب ستشكل نقطة جذب لبلدي.. بعيدا عن مهاوي الضياع.

٢ ـ ان ليبيا غربا وسورية شرقا تبدوان لي في زمن المد والنهوض، عمقا استراتيجيا طبيعيا لمصر، وجناحين تحلق بهما نحو افاق غير محدودة. وهما في زمن الردة والسقوط، تبدوان لي كطرفي كماشة يقبضان على عنق النظام المرتد.

٣ ـ لم يعد هناك شك، في ما أظن، ان احتجاب مصر العربية، قد اصاب العرب في الصميم، مما يؤكد لكل اقليمي مصري ان مصر هي جزء من لحم ودم الامة العربية، ويؤكد لكل اقليمي غير مصري ان استرداد مصر لا استبدالها هـو الاستراتيجيـة الوحيـدة الممكنـة لاسترداد الذات والارض وفلسطين ولبنان والكرامة لكل فرد يعيش من المحيط الى الخليج.

لهذه الاسباب الثلاثة، على الاقل، اراني معنيا بالوحدة المقبلة، واكثر من ذلك مسؤولا عن نجاحها.

كيف؟.

لنتفق اولا على انه من المفارقات النادرة في التاريخ ان تكون هناك امة

واحدة ليست مجسدة في دولة واحدة . هناك بالطبع ، أمثلة حية في عصرنا :

☐ هناك المانيا المقسمة كاحدى نتائج الحرب العالمية الثانية ، وهو الانقسام الذي يكاد يكون بمعنى ما عقابا على نازية المانيا الهتلرية وجموحها في شهوة السيطرة على العالم .

☐ وهناك كوريا المقسمة كاحدى نتائج الحرب الكورية ، وجموح الولايات المتحدة في السيطرة على أي جزء من الاراضي الكورية ، مهما تناقض ذلك مع ارادة الشعب الكوري الممزق بين شمال مستقر ومتقدم وجنوب مشتعل دوما بالاضطرابات .

☐ وكانت هناك حتى اربع سنوات مضت فيتنام التي ما ان طهرت ترابها الوطني من الاستعمار الاجنبي ودعائمه الاقتصادية والاجتماعية في الجنوب ، حتى بادرت الى الامر الطبيعي وهو توحيد الشمال والجنوب .

لنتفق ثانيا على انه من المفارقات الايجابية ان تكون هناك عدة امم في دولة مركزية واحدة ، كما هو الحال في الاتحاد السوفياتي ويوغسلافيا وسويسرا ، حيث تتعدد القوميات والجمهوريات واللغات ، ومع ذلك نجحت التجارب الثلاث في اقامة الدولة الواحدة .

اين نحن من ذلك ؟ .

كل ما نعرفه ان هناك امة واحدة تضمنا منذ حوالي خمسة عشر قرنا ، وان عوامل داخلية وغزوات خارجية جزأت الدولة الواحدة التي كانت تضم هذه الامة ، وان الاستعمار الغربي قد اطمأن منذ اكثر من ثلاثة عقود الى تأسيس الكيان الصهيوني كمشروع نهائي لشق وحدة الوطن العربي وتفتيته الى اقطار ودويلات .

ولكننا ، غالبا ، لا نستخلص من العوامل الداخلية والغزوات الخارجية والمسيرة المعقدة للدولة الصهيونية فوق ارضنا ، ما يشبه القوانين الثابتة :

● أول هذه القوانين ، ان هناك « ممنوعا دوليا » باقامة الوحدة العربية

التي يمكن ان تصبح بثرواتها الطبيعية وموقعها الاستراتيجي ومخزونها الحضاري، قوة كبرى تنافس القمم الدولية المعاصرة.

● ثاني هذه القوانين هو تجريد مصر من جميع اسلحة القوة، بعزلها عن العرب اذا كان ذلك ممكنا، واضعافها عسكريا واقتصاديا اذا لم يكن الهدف الاول ممكنا.

● ثالث هذه القوانين هو الانتقال من حالة «القطرية» العربية الى مرحلة الدويلات العرقية او الطائفية حسب خصوصية كل قطر ومكامن الانفصام والانفصال داخله. ان «القطر» العربي حالة وسطية غير قابلة للدوام، بين مرحلة الدولة الواحدة التي كانت ومرحلة القبائل التي سبقت، فاما العودة الى العشائرية الاولى أو ان البديل الوحيد سيكون دولة واحدة.

● رابع هذه القوانين هو ان التخلف الاقتصادي والاجتماعي هو أقصر الطرق الى تفتيت الامة الواحدة باقطارها المتعددة، فلا تنمية حقيقية الا في ظل الكيانات الكبرى المتحدة، ولا تنمية مستقلة الا في ظل الاشتراكية بالنسبة للدول الحديثة الاستقلال، ولا اشتراكية حقيقية الا في ظل دولة موحدة ديموقراطية. من هنا، كانت الانظمة الدكتاتورية البدائية هي أصلح الانظمة لتكريس التخلف العربي الذي يبقى درعا واقيا من قيام دولة الامة الواحدة.

هذه هي القوانين شبه الثابتة، فأين كنا منها وأين اصبحنا طيلة الثلاثين عاما الماضية؟.

كنا، انصافا لجيل اعطى اقصى ما لديه من طاقة، نناضل طيلة الخمسينات والستينات مقومات التفويض الاميركي بالتغيير المضاد لوحدة الامة العربية. كنا، اعترافا بالحقائق وابتعادا عن الاوهام، نناضل طيلة السبعينات مقومات التفويض الشعبي العربي بالتغيير، لتجاوز الهزيمة العربية الشاملة.

علينا ان نعترف كذلك ان التفويض الاميركي بتغيير المنطقة، والذي اخفق ايزنهاور في انجازه، امكن تحقيق الكثير من بنوده في زمن كارتر ـ بيغن ـ السادات.

علينا ان نعترف اخيرا، ان كارتر ليس اميركيا فحسب، وان بيغن ليس وحده الصهيوني، وان السادات ليس فريدا بين الحكام العرب.. فلولا ان من بينهم اكثر من كارتر واكثر من بيغن واكثر من السادات، لما استطاعت هزيمة ١٩٦٧ ان تحقق اكثر الاحلام الصهيونية جنونا، كما قال دايان، عام ١٩٧٧.

لذلك كان الرد الوحيد على المستحيل الذي اصبح ممكنا باحتجاب مصر واحتراق لبنان وتهويد القدس، هو صنع المستحيل لقيام الوحدة الممكنة بين سورية وليبيا، كمحاولة اخيرة بحجم «القرار» لمنع امة كاملة من الانتحار يأسا ومن الانقراض استسلاما لتفويض اميركي بتحويل العرب الى هنود حمر.

فالوحدة اولا، والوحدة اخيرا، هي طوق النجاة الوحيد من هذا المصير الوحيد الذي ينتظرنا حتما سواء شعرنا به او خدرنا الحواس عن الشعور به.

ولا شك ان الوحدة المنبثقة من اعماق الظلمة، تختلف شكلا وموضوعا عن الوحدة القادمة في الخمسينات من انغام الزهور ورائحة الياسمين. ولا شك ايضا ان الوحدة بين سورية وليبيا تختلف قطعا عن الوحدة بين مصر وسورية. ولكنها الوحدة في جميع الاحوال كرد وحيد يبدو لاخلص اصدقائها جنونيا، على اللامعقول العربي الذي نحياه ونموته منذ حرب تشرين المجيدة الى اليوم.

ان ما يراه بعضهم مستحيلات يصعب قهرها كـالعـامـل الجغـرافي واختلاف التجربة السياسية والمآزق الداخلية والحصـار العـربي والتـآمـر

الاميركي ـ الصهيوني ـ الساداتي، كلها ممكنة الاختراق، اذا جاءت الوحدة «تفويضا بالتغيير» يمكن ايجاز نقاطه الاساسية من واقع الخطابين اللذين القاهما معمر القذافي وحافظ الاسد في طرابلس، واللذين يجب ضمهما كوثيقتين ملزمتين من وثائق الوحدة، لا بين القطرين على مستوى القمة، بل كميثاق تعاقدي بين القيادتين من ناحية والشعب العربي كله من ناحية اخرى. فهذه الوحدة لن تكون بأية حال ملكا لليبيين والسوريين وحدهم، بل سيكون مسيرها ومصيرها شأنا قوميا خالصا للعرب جميعا.

ما هي هذه النقاط الاستراتيجية في كلمات القذافي والاسد؟ انها باختصار ما يلي:

١ ـ انها وحدة قتالية تستهدف تحرير التراب العربي، بقصد اعادة توحيد الامة العربية كلها بدلا من وصولها الى حافة الهاوية السحيقة بتمزقها الى دويلات.

ولن يستطيع اي مواطن عربي ان يفهم من هذا التحرير مجرد الحصول على مقعد فلسطين في اية مفاوضات محتملة تدبر مكانها وزمانها اوروبا الغربية ورومانيا وبعض الحكام العرب.

وانما الوحدة القتالية بمفهومها الاستراتيجي الدقيق، هو استرداد مصر ووقف احتجابها الاضطراري، كمركز حتمي لاسترداد ما ضاع من تراب عربي وما هو في سبيله الى الضياع. وهنا تصبح الكماشة الليبية السورية حول عنق النظام المصري الراهن قهرا رائعا للعامل الجغرافي الذي يتحول فورا من كونه عائقا للوحدة الى ضرورة نوعية كفرض الوحدة.

ولكن المهم في حده الاقصى هو وضوح هذا الهدف المركزي والمحوري للوحدة كقاعدة قتالية، لان استرداد مصر يعني في الحقيقة مراجعة جذرية شاملة لموقف واسلوب التعامل مع مصر الشعب والنظام. وقد كان الرئيس حافظ الاسد حاسما غاية الحسم واضحا غاية الوضوح حين

قال في خطابه عشية الاعلان الوحدوي بطرابلس « ... ولكن شعب مصر الشقيق لن يستسلم ابدا، ولن يستطيع السادات ان يفرض استسلامه على شعبنا في مصر، هذا الشعب العظيم الذي لم ينفصل طيلة تاريخه عن امته العربية الواحدة. كان عبرالتاريخ جزءا لا يتجزأ من هذه الامة ناضل معها وناضلت معه في صف واحد من اجل هدف واحد، هو هدف الوحدة العربية وهدف الامة العربية الواحدة. ان مصر لا يمكن ان تكون عدوة للعرب، ولن يستطيع السادات ولا بيغن ان يفرضا عليها ذلك. ان مصر لا بد ان تعود عاجلا أو آجلا لتتصدر النضال العربي ولتأخذ مكانها الرفيع العالي في مقدمة الامة العربية الواحدة. ان مصر العربية هي مصر عبد الناصر التي حاربنا معها عبر كل تاريخنا بشكل مشترك، كل اعداء العرب، وكل الغزوات التي تعرضنا لها في وطننا العربي. ان مصر هذه لا بد ان تسحق السادات، وكل من تصهين وان تطرد بيغن وان تعود الينا وعند ذاك سنقيم عرسا عربيا جديدا عرسا وحدويا جديدا ».

ان هذه الكلمات ليست مجرد عاطفة صادقة وعميقة فياضة بالحب لمصر، بل هي تعديل جذري لمفاهيم اقليمية شاعت في الزمن الاخير، فلا عروبة بغير مصر، ومن يكره مصر يقف عامدا في الصف المضاد لعروبة العرب، مهما تستر بشعارات قومية.

ان هذه الكلمات التاريخية بحق والتي نطق بها الرئيس العربي السوري بالاصالة عن سورية العظيمة وبالنيابة عن عمق اعماق الضمير القومي العربي، تصلح لان تكون نقطة الانطلاق الجوهرية في اعتبار الوحدة الليبية السورية قاعدة قتالية ضد اعداء الامة العربية.

ان ترجمتها الاستراتيجية والتكتيكية تعني - واكرر - مراجعة جذرية شاملة في الموقف واسلوب التعامل مع مصر الشعب والنظام... فالتفرقة العملية الحاسمة بينهما تتطلب تبديلات أساسية في الموقف من شعب مصر العربي في الداخل والخارج، والموقف من المعارضة الوطنية المصرية في

الداخل والخارج، في علاقات القوى الخارجية بكل من مصر الشعب والنظام المرتد .

ولن اقول اذا تم استرداد مصر سيحدث كذا وكذا، بل سأقول اذا صيغت استراتيجية « الاسترداد » ضمن المواد الاساسية للوحدة المقاتلة، فان استرداد التراب العربي في فلسطين ولبنان وسيناء والجولان، سيكون جزءا لا يتجزأ من الجوهر والمركز والمحور، اي تحصيل حاصل .

٢ ـ انها وحدة قومية ذات مضمون طبقي لا لبس فيه، فهي وحدة الشعب ضد الفئات الاستغلالية والشرائح الطفيلية على الانتاج الوطني . وقد اثبتت كل الاحداث والملابسات على انه من الخصوصيات البارزة للقومية العربية، انها لم تكن في يوم من الايام قومية توسيعية او استعمارية او عنصرية كما حدث للقوميات الاوروبية، بل لعل العكس هو الصحيح، فهي قومية ناضلت الاستعمار، وهي لا تشعر بأية « خطيئة » في حق قوميات اخرى، وبالتالي لا ينبغي ان ترث عقابا ـ كما هو الوضع في المانيا ـ عن جريمة لم ترتكبها كهتلر، ولا هي خاضت حربا كما هو الوضع في كوريا .

وانما برهنت الاحداث على ان اصحاب الامتيازات من انظمة الحكم العربية والتي ترتبط استراتيجيتها حكما بالاستراتيجية الاميركية، لا مصلحة لهم في الوحدة العربية، وقد دفعوا الملايين للاجهاز على تجاربها السابقة . لماذا ؟ لان الوحدة القومية العربية لن تقوم لها قائمة الا على اكتاف اصحاب المصلحة الحقيقية فيها، اي الطبقات الشعبية، الجماهير المنهوبة الثروات، والمستغلة اقصى درجات الاستغلال . لذلك كان العقيد القذافي حاسما غاية الحسم وواضحا غاية الوضوح حين قال عن الوحدة السابقة انها :

« تحطمت بواسطة قوى الاستغلال . يجب ان يبدأ من أول يوم في مسيرة الوحدة فرز القوى المعادية للجماهير الشعبية، فرز قوى الاستغلال وتدميرها، لان اليمين العربي هو حلقة في سلسلة اليمين العالمي الذي ينتهي

بواشنطن. ان اليمين واحد، وقوى الاستغلال واحدة مترابطة مصلحيا، متحالفة طبيعيا. اذن لا يمكن للجماهير التي تبحث عن التقدم ان تتحالف مع قوى الاستغلال المرتبطة مصلحيا مع الاستعمار الاميركي والصهيونية والرجعية العربية».

ان هذه الكلمات الحاسمة والواضحة لمعمر القذافي تصلح لان تكون نقطة الانطلاق الجوهرية لتعديل جذري وشامل لمفاهيم رأسمالية الدولة والقطاع العام والقطاع الخاص وغير ذلك من عقائد ومؤسسات لم يحسم الموقف فيها في ضوء التحول الى الاشتراكية... لذلك ان درس التاريخ الوحيد أمامنا يعلمنا انه من الخصوصيات البارزة للوحدة العربية الممكنة، هي ان تكون اشتراكية أو لا تكون على الاطلاق.

٣ ـ تبقى مسألة الديموقراطية، وهي وحدها القادرة على قهر المسافة الجغرافية من ناحية، وحماية التحول الى الاشتراكية من ناحية اخرى.

والديموقراطية التي اقصدها هنا، على كافة المستويات. أي ديموقراطية العلاقة بين التجربتين السياسيتين في القطرين. والديموقراطية في علاقة الشعب بالحكم سواء من زاوية المشاركة في صنع القرار أو في مراقبة تنفيذه.

ومن الخصوصيات التي عرفها «العالم الثالث» كما يسمى، ان الديموقراطية في اقطاره تعني التقدم الاجتماعي وانتصار القوى الشعبية والتحرير. لذلك ركزت الامبريالية المعاصرة كل خبراتها ومخابراتها على تثبيت انظمة دكتاتورية فاشية عسكرية او مدنية للحيلولة بين أوطان العالم المتخلف والاستقلال الحقيقي والتقدم الحقيقي.

وهل اجدني بحاجة الى تعداد الانقلابات الدموية التي اعترفت بها المخابرات الاميركية لخلع النظم الديموقراطية واحلال الطغيان مكانها؟

وهل اجدني بحاجة الى تعداد تجارب الوحدة العربية التي اسقطها الى

جانب عوامل عديدة، غياب الديموقراطية ؟

بل هل اجدني بحاجة الى الاستئذان في القول بأن هزيمة ١٩٦٧ - فضلا عن الانفصال بين مصر وسورية عام ١٩٦١، كان من اسبابها المباشرة ان المسافة بين ضرورة التحرير وضرورة التنمية لم تمتلىء بالديموقراطية، فكان السقوط ؟

وارجو اخيرا الا اكون بحاجة الى التقاط او احصاء كلمة الديموقراطية في الوثائق الوحدوية لاعلان طرابلس، فالجماهير والتجارب والنكسات خير من الوثائق تقول: لا وحدة ممكنة القيام بغير الديموقراطية .

لا وصاية على الشعب

ولا وصاية على العقل

فقد اعطيا تفويضا بالتغيير لمصلحة المستحيل الذي يغدو ممكنا حين تشطب الوحدة المقبلة على « الممنوع الدولي » بجسارة الفدائي الذي لا يخشى الموت، لانه يؤمن انه اختصر الطريق بدمه الى الارض.. والحرية.. والاشتراكية. وهي النجوم الثلاث المكتوبة بالدم العربي على راية الوحدة اولا، واخيرا .

١٩٨٠/٩/١٥

رسالة مفتوحة الى وزراء الثقافة العرب
هذه هي قصَّة
الغزو الفكري . .
خارج الغرف المغلقة

اكتب هذه الكلمات قبيل انعقاد المؤتمر الاستثنائي الذي دعت اليه الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، للبحث والتحاور حول ما يمكن عمله في مواجهة الغزوة الفكرية الصهيونية لمصر، بعد تطبيع العلاقات بين النظامين المصري والاسرائيلي .

والارجح ان هذه الكلمات سترى النور، والمؤتمر العتيد يغلق ملفاته، والسادة الوزراء يستعدون لمغادرة دمشق الى عواصم بلادهم .

ومن ثم، فليس المقصود هنا، ان اقدم « ورقة عمل »، ولا المقصود ان اقدم ـ طلبات ـ اشعر بضرورتها كعربي من مصر .

ما المقصود اذن، من هذه الرسالة المفتوحة الى السادة وزراء الثقافة العرب المجتمعين في دمشق، العاصمة العربية الوحيدة التي بادرت بالدعوة الى هذا الاجتماع؟ ولعلني تعمدت صفة (الوحيدة) التي اسبغتها على العاصمة السورية، لتكون مدخلا صريحا الى هذه الكلمات . . فانه من المثير للدهشة والاسى معا . أن يتصور عربي واحد أن الغزوة الفكرية الصهيونية لمصر، هي لمصر وحدها دون بقية اقطار العرب . بل انني لا اتجاوز الحد اذا قلت ان « تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل » لا يؤرخ تماما، لبداية ذلك الغزو .

❋

وقبل اي حوار لا بد ان يكون الفرق واضحا بين المعرفة في ذاتها،

والغزو الفكري. ان اجادة العربي السوري أو المصري أو العراقي أو السوداني للغة اجنبية، يختلف جذريا عن رسوخ اللغة الفرنسية لدى العربي الجزائري، للدرجة التي يصبح معها «التعريب» بعد ربع قرن من الثورة الجزائرية المسلحة، وثمانية عشر عاما من الاستقلال الوطني، مشكلة حية الى يومنا:

والفرق في الحالين واضح: وهو ان اللغة الام ـ العربية ـ ليست موضع جدل عند السوري أو المصري والعراقي، وبالتالي فاجادته لاحدى اللغات الاجنبية هو نوع من المعرفة. أما مزاحمة الفرنسية للعربية في الجزائر، فهو نوع من الاستعمار الحضاري ـ الثقافي، اللغوي.

وليس ذلك الا مجرد مثل.

هل نأخذ مثالا آخر.. من الترجمة؟

ان مشروعا مصريا قديما كان يسمى «مشروع الالف كتاب» تكفل بنقل عشرات الكتب الغربية الى لغتنا، وقد أسهم ايجابيا في تكوين أجيال عربية كاملة.. بينما كانت (مؤسسة فرانكلين للنشر) في الوقت نفسه، تقوم بعملية تخريب ثقافي كاملة للعقل العربي المعاصر، بنقلها عشرات الكتب الى لغتنا ايضا.

ومن منا ينسى مشروع ـ جامعة الدول العربية ـ باشراف الدكتور طه حسين، في نقل أعمال شكسبير الى العربية بأقلام كبار الكتاب المترجمين، العرب؟ ومن منا ينسى كذلك مطبوعات الجامعة الامريكية أو «سلسلة الناقوس» التي كانت تصدرها مكتبة الانجلو المصرية، و ـ سلسلة العالم الجديد ـ التي كانت تصدرها دار الكرنك، برعاية مكتب الاستعلامات الامريكي في القاهرة.

حتى ما يسمى بالقطاع الخاص في النشر، قد سجل ـ على مدى سنوات ـ مساهمات غنية في الانفتاح الثقافي على الغرب والشرق.. فلا أحد ينكر

ما قدمته ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ و ـ دار الكاتب المصري ـ و ـ الدار المصرية للكتب ـ ودار الفكر ودار النديم ـ . . وغيرها وغيرها .

أما حين اشرفت الدولة ـ الناصرية ـ على سوق الكتاب، فقد تمكن القارىء المصري، والعربي عموما، من الانطلاق نحو ـ المعرفة العالمية ـ كما لم يحدث في تاريخه من قبل .

وكانت هناك، في ترجمات هذه الازمنة كلها، أعمال لليهود وغير اليهود، في الادب والفلسفة وحتى . . الفكر السياسي .

ولكن الفرق بين « المعرفة » أو الثقافة من ناحية، و ـ الغزو الفكري ـ من ناحية اخرى، كان واضحا . . سواء كانت الترجمة عن قطاع عام وطني كمشروع الالف كتاب أو قطاع عام اجنبي كمؤسسة فرانكلين، أو كانت عن قطاع خاص وطني كلجنة التأليف والترجمة والنشر أو قطاع خاص أجنبي كدار الكرنك .

ما هو هذا الفرق؟ .

انه، بالدقة، في « الاستراتيجية العليا » للثقافة الوطنية، أو الثقافة التابعة للاجنبي .

فأعمال شكسبير التي نقلتها الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية هي جزء لا يتجزأ من « الاستراتيجية العليا للثقافة القومية »، وأعمال دوستويفسكي التي نقلها الراحل سامي الدروبي ونشرتها المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، هي جزء لا ينفصل عن (الاستراتيجية العليا للثقافة القومية) . . لان هذه الاعمال تخضع اولا وأخيرا للتخطيط الوطني، والقومي، لمؤسسات وطنية وقومية، تضع في اعتبارها حاجة المواطن العربي والمرحلة التاريخية العربية الى ترجمة هذا العمل دون ذاك، في هذا الوقت دون ذاك، لهذا المؤلف الامريكي أو الاجنبي أو الروسي أو الفرنسي اليهودي أو المسيحي أو البوذي، دون ذاك .

أما مؤسسة فرانكلين أو مكتبة الانجلو المصرية أو دار الكرنك أو غيرها من مئات دور النشر التابعة لمكتب الاستعلامات الامريكي في هذه العاصمة العربية أو تلك، والخاضعة لتخطيط قادم من واشنطن، فان الامر الذي يعنيها أولا واخيرا هو غزو العقل العربي وتربية الوجدان العربي وتطويع الفكر والشعور العربي وفقا لاحتياجات الاستراتيجية السياسية غير العربية في هذا القطر.. أو المنطقة بشكل عام.

وما قلناه عن اللغة او عن الترجمة، يمكن تطبيقه بسهولة اكبر على الاذاعة والتلفزيون والسينما وغيرها من الوسائل الحديثة التي تخاطب الكم الاكبر من المواطنين.. حيث الامية الابجدية تسحق وعي الغالبية الساحقة، وحيث - أمية المتعلمين - تجذب العين والاذن الى ثقافة التسلية والمتعة الاستهلاكية.

.. فهل نستطيع الان أن نكرر أن المعرفة لذاتها شيء وأن الغزو الفكري شيء اخر؟ اكثر من ذلك، هما نقيضان: فالمعرفة لذاتها تحتاج الى الانفتاح الحضاري على الاخرين بلا حدود، سوى انها جزء من - الاستراتيجية العليا للثقافة القومية -. أما الغزو الفكري فهو الاستراتيجية المضادة، ومن ثم فهو يحتاج الى اليقظة والدرجة القصوى من الاستعداد للحرب.

ليس كل ما هو اجنبي، غزوا فكريا، وليس كل ما هو ناطق بالعربية، وطنيا قوميا.

لذلك أقول - دون تردد - أن الغزوة الفكرية الصهيونية لم تكن في يوم من الايام، لمصر وحدها، بل لكل أقطار العرب، وأنها أيضا سبقت (تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل) بزمن طويل.

كيف ذلك؟

❋

لنتفق أولا، على أن جوهر الفكر الصهيوني، لا يخص الاداب أو الفنون أو الثقافات اليهودية وحدها، ان هذا الجوهر في عبارة مختصرة هو عنصرية العرق أو الدين أو المذهب أو اللون.. وفي عبارة اقل اختصارا، فان هذه العنصرية تعني الايمان المطلق بتفوق الجنس أو العقيدة أو اللون على بقية الاجناس والعقائد والالوان. كما تعني ان هذا التفوق يمنح صاحبه حقا مطلقا في السيطرة الكاملة على الاخرين.. وغالبا ما يكون هذا الحق منسوبا الى أساطير غيبية لا تقبل النقاش، أما السيطرة على الاخرين فلا علاقة لها بالغيبيات، بل هي تسلط عملي وقهر مباشر يستهدف الاستغلال الاقتصادي والتوسع العسكري والهيمنة الاجتماعية.

ليس الكيان الصهيوني الا احدى الترجمات العصرية للفكرة العنصرية في الشرق الاوسط.

قبله بكثير، كانت الامبراطورية العثمانية ترجمة أولى، بعد انهيار الدولة الاسلامية في عصر ازدهارها العظيم.

قبله ايضا، كانت الحروب الصليبية ترجمة ثانية..

قبله كذلك، كان الاستعمار الغربي الحديث، بألوانه الانكليزية والفرنسية والايطالية..

.. فالدولة الصهيونية ليست اكثر من امتداد، لمشروع (الغرب العنصري) منذ مئات السنين.

وفي كل مرحلة من هذه المراحل، كانت (الثقافة) هي الكساء الحريري اللامع الذي يكسو الغزو بكل مقومات الاغراء.

كان ـ الاسلام ـ هو راية السلطنة العثمانية.

وكان ـ الصليب ـ هو راية حروب بيت المقدس.

وكانت ـ الحضارة الحديثة ـ هي راية الاستعمار الغربي بألوانه المختلفة.

وكانت ـ التوراة ـ و ـ أرض الميعاد ـ و ـ شعب الله المختار ـ هي رايات الصهيونية .

وكانت هذه الرايات ـ الثقافية ـ كلها ، تلتقي في التطبيق عند مشروع استراتيجي واحد، لم يتغير منذ افول الحضارة العربية الاسلامية . هذا المشروع هو: تجزئة الارض الى دويلات، والدين الى مذاهب، واحياء عصور البداوة والجاهلية بترسيخ البنى الاجتماعية القبلية والعشائرية ، وتكريس القيم الغريزية والعلاقات العصبية الضيقة ، ودعم الشكل الاوتوقراطي في الحكم المحلي التابع لمركز اجنبي خارج الحدود ، وتقوية النسيج الثيوقراطي في العلاقات الاجتماعية ، وتغذية المسافة الهائلة بين فقر الغالبية وثراء القلة من حاملي السياط نيابة عن الوالي أو الخليفة أو الامبراطور .

تلك كانت ـ ثقافات ـ عصر الانحطاط ، عصر الانقلاب الحقيقي والشامل على الاسلام، حتى ولو رفع قادة الثورة المضادة راية القرآن، وعصر الانقلاب الحقيقي والشامل على المسيحية الشرقية، حتى ولو رفع قادة الحروب الصليبية راية المسيح ، ثم هو عصر الانقلاب الحقيقي والشامل على الاسلام والمسيحية معا ، بارتفاع راية (شعب الله المختار) .

.. هو انقلاب حقيقي وشامل على ينبوع الينابيع في الحضارة العربية الاسلامية ، في ذروة ازدهار مجدها العظيم ، حيث كان التفاعل الحر والخلاق مع الثقافات الاجنبية هو مصدر العطاء التاريخي للعالم الذي كان يغط حينذاك في سبات العصور المظلمة ومحاكم التفتيش وصكوك الغفران والبحث في جنس الملائكة . حينذاك كان العرب ، والمسلمون عامة ، يعتمدون على العقل والعقلانية ، على الحرية والحوار ، على التاريخ والتقدم الاجتماعي ، ففتحوا أرجاء العالم الواسع . ولم تكن الفتوحات العسكرية قط الا ترجمة حضارية لغياب الفكر العنصري ، وحضور: الوحدة القومية ، العدل الاجتماعي ، حرية الفكر والتعبير .

ولم يبدأ مغيب شمس الحضارة العربية الاسلامية منذ ضياع الاندلس الى فقدان فلسطين، الا حين غابت الاقانيم الثلاثة عن جوهر النهضة: تفتتت الدولة الواحدة، وساد الظلم الاجتماعي، وطغت الدكتاتورية العمياء.. وكان - الفكر العنصري - هو الكساء الحريري اللامع الذي يكسو منذ الف سنة ولا يزال، هذا التخلف المروع لدرجة تهديد امة كاملة بالانقراض.

❋

ليس الفكر العنصري كله مستوردا، فلا شك أن هيمنة الشرائح الاجتماعية ذات الحظوة والنفوذ لدى السيد الاجنبي قد ساهمت بنصيب موفور - ولا تزال - في (اختراع) أفكارها العنصرية.

ولا شك ايضا ان التمزق القومي والظلم الاجتماعي والقهر الديمقراطي - بالتقدم - خلق اوضاعا تشبه الامر الواقع، هي الثغرة الواسعة التي نفذ وينفذ منها الاجنبي.

غير انه لا شك بالمقدار نفسه وأكثر، ان هناك غزوا فكريا يرافق ما تواضعنا على تسميته بفجر نهضتنا الحديثة.. قد نما وتعاظم عقدا بعد عقد وجيلا بعد اخر، حتى وصل بأكبر دولة عربية هي مصر الى حد (تطبيع العلاقات) مع جوهر الفكر الصهيوني، وهو العنصرية. ان هذا التطبيع يعلن فقط الدرجة الخطيرة التي وصل اليها الغزو الفكري، لا في مصر وحدها بل في اقطار العرب.. فكما أن الغزوة الصهيونية للعقل العربي المصري، متمثلة في التطبيع، هي ذروة التخلف، فان - مصر - بدورها ليست أكثر من مؤشر على سيادة هذا التخلف على بقية العرب.

.. ذلك أن الفكر العنصري في بلادنا، خلال المائتي سنة الاخيرة قد اتخذ طريقين لا ثالث لهما:

☐ الاول: هو الاستلاب المطلق، بالاغتراب الكامل عن اسس الحضارة القومية، بالخلط الشائن بين جوهر الحضارة الحديثة من ناحية والغرب من ناحية اخرى، بحيث أصبحت الحداثة والتقدم والتطور كلها معاني ترادف

الغرب، وكان ذلك استعمارا حضاريا للعقل العربي، ولا يزال.

☐ والثاني: هو رد الفعل المطلق، بالانكفاء الكامل على الذات (العشائرية أو القبلية أو الطائفية، لا الوطنية ولا القومية) بالخلط الشائن أيضا بين الحضارة الحديثة والغرب، بحيث أصبح كل ما هو غربي من عمل الشيطان.

كلاهما اتجاهان عنصريان سائدان في حياتنا الثقافية ـ العقلية والوجدانية ـ الى اليوم، لا علاقة لهما بالمعرفة لذاتها (معرفة الغرب او التراث العربي)، ولكن لهما كل العلاقة، الغزو الفكري، سواء ـ كنا غزاة مدينتنا ـ كما يقول الشاعر، أو كان الاخرون هم الغزاة. وهو غزو الثورة الثقافية المضادة لجوهر ثقافتنا القومية في أمجد عصور ازدهارها.. حيث كانت المعرفة والتفاعل الحر مع الثقافات الاخرى، جزءا لا ينفصل عن (الاستراتيجية العليا للثقافة العربية).

أما الان، فأين هذه الاستراتيجية؟ هذا هو السؤال الكبير والحقيقي والشامل، لاية أسئلة فرعية حول الغزوة الصهيونية للفكر المصري، فهي أقدم من ـ التطبيع ـ وأشمل من أن ينفرد بها المصريون. انها قديمة قدم العاهات المزمنة التالية:

١ ـ تمزق العقل العربي بين واقع التجزئة المخيف، والفكر القومي الاخذ في الانحسار والتراجع، تحت وطأة الاحداث العابرة في تاريخ كل أمة.

٢ ـ سيادة الظلم الاجتماعي بكل اشكاله والوانه ومستوياته، وتردد الفكر الاجتماعي العربي عن مواجهة هذا الظلم تحت وطأة القهر الديمقراطي العنيف.

٣ ـ غياب حرية الفكر غيابا يكاد يكون تاما، بحيث لم تعد هناك الامكانات القديمة للانفلات من أسلحة القهر والرقابة المتطورة.

ان هذه العاهات، هي الثغرة الواسعة، التي نفذ منها وينفذ الفكر الصهيوني وغيره من الافكار العنصرية التي تجعل بعضنا يشعر ـ بالعبودية ـ للغرب أو اسرائيل، كما تجعل بعضنا الاخر يتوهم التفوق المطلق والناجز، على العالم كله من أقصى الشرق الى أقصى الغرب، ومن الشمال الى الجنوب. والنتيجة هي أن العنصرية تسود ثقافتنا وتفرخ كل يوم اسرائيلات فكرية جديدة تسمي نفسها حينا بالفكر المسيحي في لبنان وحينا اخر بالثقافة البربرية في الجزائر، وحينا ثالثا بالاخوان المسلمين أو جماعة الامة القبطية في مصر.

كلها تفريعات من شجرة واحدة، هي العنصرية، ثقافة الثورة المضادة للقومية العربية والاشتراكية والديمقراطية، ثقافة الغزو الاستعماري، وان نطق بعضه بالعربية.

وهي شجرة غائرة الجذور الى ما قبل التطبيع، ومتعددة الاغصان حتى لتتجاوز مصر شرقا وغربا وجنوبا.

فما هي الاستراتيجية القومية الموحدة القادرة على المقاومة على الحرب؟

❋

هل اجاب السادة وزراء الثقافة العرب في مؤتمرهم عن هذا السؤال البريء؟

.. أرجو.

١٩٨٠/٦/٣٠

هكذا يتكلم الغرب
ومن له أذنان للسمع . . . فليسمع

مقدمة

هذا المقال هو خلاصة عدة محاضرات شرفتني بالقائها ومناقشتها إحدى المجموعات العربية من الشباب الجامعي في باريس خلال الفترة الواقعة مابين ٢٧ اكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٨٠ و ١٢/٢٩ من العام نفسه. وباستثناء خمسة عشر يوما أمضيتها خارج فرنسا، فقد كانت هذه الاحاديث كما احب أن أسميها تلقى اسبوعيا في حلْقة حرّة للحوار.

وكان نصيبي كما سيتضح من المطالعة أن أعرض لموقف الغرب المعاصر من العرب المعاصرين، كما يتجسد هذا الموقف في المؤلفات أو الكتابات التي تتناولنا مباشرة أو بطريق غير مباشر.

ولا بد من الاشارة الى انه كان يعقب كل حديث تعليقات غنية وهامة، كان بودي ادراجها هنا لولا أنها لم تسجل وقد تكرم بعض الاصدقاء فطلبوا مني الاذن بطبع هذه الاحاديث كما هي دون تعديل في نشرة خاصة بهم، ولكني استأذنتهم بدوري في نشرها كما هي ودون تعديل على نطاق أوسع.

وها أنذا أفعل، راجيا من القارىءأن يتصور المناخ الذي القيت فيه، فيغفر ما قد يلاحظه من تقصير هنا أو هناك، بالتكرار احيانا أو عدم الانضباط الاكاديمي أحيانا أخرى.

١ ـ نيكسون: هذه هي الحرب العالمية الثالثة:

اعتاد الرؤساء الامريكيون ان ينشروا ـ بعد مذكراتهم ـ كتبا ذات طابع استراتيجي، بعد انتهاء مدد ولاياتهم.

وهي عادة يقصدون منها تثبيت اسماءهم في تاريخ العلم السياسي جنبا الى جنب مع الشعارات التي يطلقها كل منهم فور تسلمه مقاليد الرئاسة، لتثبيت اسمه في التاريخ الامريكي.

ولست اريد، هنا، أن أضرب الامثلة، ولكني اتذكر ان الشعار الذي بدأ به نيكسون حياته الرئاسية كان «المجتمع العظيم». وما لا يحتاج الى الذاكرة هو كتابه الاخير الذي لم يهتم به الاعلام العربي الى الان، بالرغم من اهتمامه المفرط احيانا بمؤلفات أقل قيمة بكثير، وان كانت اكثر دويا في الغرب. وكأننا نسب الاعلام الغربي علنا ونحتذي به سرا وعمليا... فكتاب الرئيس الامريكي السابق «الحرب الحقيقية» لم يحظ بعشر معشار الضجة التي حظيت بها مذكرات هنري كيسنجر.

وذلك بالرغم من أن كتاب وزير الخارجية الامريكي الاسبق لم يكن قط في المستوى الجدير بأستاذ لامع في تاريخ الاستراتيجية الدولية.

لماذا اذن؟

لان كتاب ريتشارد نيكسون، على الرغم من كل ما فيه من وجهة نظر متطرفة الانحياز الى سياسة القوة، ومتطرفة الولع بالمجد الامريكي الاستعماري، فانه يتضمن مجموعة من الحقائق تلفت النظر رغما عن المؤلف الى دهاليز الاستراتيجية الامبريالية ومخططاتها المحتملة في السيطرة على العالم الثالث حتى نهاية القرن العشرين على الاقل.

بينما كتاب الدكتور كيسنجر الذي يكتسب مصداقية مؤلفه لمجرد انه كان ـ وزير خارجية العصر ـ كما لقبه نيكسون نفسه ذات يوم، فانه يغطي على الحقائق المؤكدة بستار كثيف من الشكوك لا تليق برجل تصدى

لكتابة.. مذكرات. وقد لجأ الى ما يسمى في اللغة الاكاديمية بالغش والتدليس، وذلك باعتماده اسلوب الايهام الروائي في التركيز على التفاصيل والدقائق الصغيرة حتى نستغرق فيها وننسى فعلا، القضية الرئيسية أو الواقعة المحورية التي يهملها الكاتب عن عمد اهمالا تاما.

ولست هنا في مجال المقارنة بين الكتابين، ولكني استشهد بهما في مجال التحذير من الانسياق وراء الاعلام الغربي في الترويج لاحدهما وتجاهل الآخر... فاللعبة السياسية الامريكية اقتضت من كيسنجر ان يتذكر ولا يتذكر في الوقت نفسه. اي انه لم يؤلف كتابه ـ بعد تقاعد ـ لوجه الحقيقة والتاريخ.

أما نيكسون الذي لا يتوقع له أن يلعب أي دور سياسي علني أو سري، فانه يكتب دفاعا عن النفس أمام الامة الامريكية، كنوع من الاحساس بالذنب. وهو احساس يدفعه للمغالاة في الولاء الامبريالي والمبالغة في تصور زعامة أمريكا... ولكن هذا الاحساس يدفعه ايضا لقول ما يعتقد انه الحق. وهو الرجل الذي اشتهر بفضيحة ووترغيت بأنه.. كذاب.

ماذا يقول نيكسون في ـ الحرب الحقيقيةـ؟ يقول ان العالم كله ينتظر أو لا ينتظر الحرب العالمية الثالثة. بعضهم يقول ان الردع النووي يمنع الحرب تلقائيا. وبعضهم الاخر يرى أن تفوقا ـ أو جنونا ـ سوفياتيا أو امريكيا، يمكن ان يشعل الحرب فجأة. والحقيقة ـ يقول الرئيس الامريكي الاسبق ـ أن كلا الفريقين يفكران في أمور الحرب والسلام بمنطق ما قبل العصر النووي، على خلاف ما يتصورون. انهم يظنون ان الحرب الثالثة يمكن ان تقوم بالاسلوب نفسه الذي قامت به الحرب الاولى أو الحرب الثانية.

والحقيقة ـ يقول نيكسون ـ أن الحرب العالمية الثالثة الحقيقية قائمة فعلا، ولا تحتاج الى بداية دراماتيكية كما حدث في الحربين السابقتين. اننا

نعيش في اتون الحرب الثالثة سواء صدقنا أم لم نصدق. وليس ذلك من قبيل التفكير والتأمل او الافتراض النظري، وبالتالي فهو ليس فكرة تحتاج الى اثبات أو فرضاً يحتاج الى برهان. وانما يحتاج الامر كله الى مجرد التقاط الانفاس ورصد الوقائع التالية. ويصر نيكسون على تسميتها بالوقائع لا الاسباب، لانه بذل جهدا في تحديدها على النحو التالي:

● فقد أحصى عدد القتلى يوميا في الحرب العالمية الثانية، وكذلك عدد المنشآت المدمرة وكميات الاسلحة التي استنفذت، وايضا عدد الجرحى والمشوهين، بل اعداد الحيوانات والطيور التي نفقت والاشجار والنباتات والاثار التي اندثرت أو ابيدت وتحولت الى رماد. ثم احصى عدد الامراض الجديدة والاوبئة التي استجدت والبحار والاجواء التي تلوثت. أكثر من ذلك انه قاس الزمن الذي خسرته البشرية في طريق التقدم.

واستخلص بعد ذلك كله نسبة الدمار الكوني في اليوم الواحد اثناء الحرب.

● ثم راح يحصي عدد القتلى من البشر والحيوانات والطيور وعدد المنشآت والاثار المدمرة والبحار والاجواء الملوثة وعدد الامراض الجديدة والاوبئة المستحدثة خلال السبعينات من هذا القرن على مستوى الكرة الارضية كلها.

ويلاحظ أن المؤلف في ذلك كله لا يحصي مطلقا ضحايا الزلازل والبراكين والاوبئة الطبيعية والمجاعات والفيضانات والصواعق وحوادث الطائرات والبواخر والسيارات وغير ذلك مما يحدث في أزمنة السلم.

واستخلص بعد ذلك كله نسبة الدمار الكوني في اليوم الواحد اثناء الحروب المتصلة في آسيا وافريقيا وانقلابات أمريكا اللاتينية.

● وانتهى الرئيس الامريكي الاسبق على نحو رياضي غير مسبوق في علم الاجتماع السياسي الى النتائج التالية:

١ ـ ان ما تخسره البشرية المعاصرة منذ بداية السبعينات في اليوم الواحد هو عشرة اضعاف ما كانت تخسره في اليوم الواحد اثناء الحرب الكونية الثانية .

٢ ـ رغم عدم استخدام الاسلحة النووية في الحرب الراهنة، الا ان العشرة الاضعاف المذكورة تعادل ضعفي القوة النووية التي استخدمت,للمرة الاولى في هيروشيما وناجازاكي. وذلك لاسباب رئيسية ثلاثة هي على الترتيب: اتساع العمق الاستراتيجي لرقعة الحرب، استمرارية الحرب، الاستخدام الفعلي للقوة النووية في بعض مراحل الحرب وبعض اجهزتها الالكترونية .

٣ ـ ان الحروب القائمة منذ عشر سنوات يمكن اجمالها سياسيا تحت عنوان ـ حرب العالم الثالث ـ ولكنها استراتيجيا هي الحرب العالمية الثالثة بين العملاقين، وتحديدا تكتيكيا هي حرب البترول والمواقع الاستراتيجية .

٤ ـ ومن ثم فسوف تستمر هذه الحرب ـ في رأي نيكسون ـ طيلة العشرين عاما القادمة على الاقل، اي حتى نهاية القرن العشرين في أحسن التقديرات. ومن ثم فهي ـ رغم عصر السرعة ـ تبدو كما لو كانت أطول الحروب في التاريخ الانساني .

٥ ـ اذا كانت الاتفاقية الثانية للحد من انتاج الاسلحة الاستراتيجية بين العملاقين والمعروفة باسم ـ سالت ٢ ـ قد احتاجت لاكثر من تسع سنوات ولم توقع بعد، بالاضافة الى انها تختصر الكم النووي دون المساس بالنوع، فان البشرية سوف تحتاج الى الف سنة تقريبا للتوصل الى ـ سالت ١٠٠ ـ التي تختزل الكم دون المساس بالنوع ايضا .

وهذه نكتة تاريخية لا بد من الكشف عن وجهها المأساوي، وهو أن ايا من القوتين العظميين لن يفرط لامد يطول في المستقبل غير المنظور في قواه النووية الجوهرية. ومن ثم فالحرب المباشرة بين الجبارين غير واردة في هذا العصر ولا في العصور التالية. والبديل الوحيد ـ بعد نهاية الحرب العالمية

الثالثة القائمة الان ـ هو توجيه القوة النووية هنا وهناك لمصلحة السلام والرخاء والتقدم.

● القسم الاخر من كتاب ريتشارد نيكسون يخصصه بكامله لاستراتيجية ـ السلام والرخاء والتقدم ـ كما ينبغي التخطيط لها في العشرين سنة الباقية على نهاية القرن.

وهو هنا، يعيد قراءة كتاب ـ التحدي الامريكي ـ الذي اصدره المفكر الفرنسي شرايبر منذ سنوات محذرا أوروبا من مسافة التقدم التي تفصلها عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي معا، وهي المسافة المرشحة لاطراد الزيادة بمعدلات ـ الخمسينات والستينات ـ من شأنها أن تجعل أوروبا بعد عشرين عاما بلدا كنيجريا الحالية اذا قيست بفرنسا الان.

يعيد نيكسون قراءة هذا التحذير الفرنسي للغرب الاوروبي ليحاكيه قائلا بصراحة مرعبة للمواطن الامريكي ان الولايات المتحدة لم تعد تحتل المكانة الاولى في المجتمع الدولي المعاصر كما يوهم مواطنيها الراديو والتلفزيون والسينما والصحافة. ان امريكا وطن من الدرجة ـ العالمية ـ الثانية، بعد ان احتل الاتحاد السوفياتي المرتبة الاولى منذ خمس سنوات على الاقل. والمؤلف هنا يفرد أمامنا ثلاث خرائط: الاولى للعالم، والثانية لامريكا الشمالية، والاخيرة للاتحاد السوفياتي. ثم نكتشف ان الخرائط الثلاث تحولت بين ايدينا الى خمس واربعين خريطة، لان كل واحدة من الثلاث الاصلية قد نسخت منها عدة خرائط اخرى بألوان مختلفة... فهذه هي الخريطة الاقتصادية، وهذه هي الخريطة الزراعية، وتلك هي الخريطة الصناعية، والرابعة للتعليم، والخامسة للاسكان، والسادسة للمواصلات البرية والبحرية والجوية، والسابعة لمناطق الزلازل والبراكين والفيضانات، والثامنة للبطالة، والتاسعة خريطة صحية، والعاشرة للمناجم وآبار النفط.. الى آخره الى آخره.

وليس المهم الدخول في التفاصيل، فالاهم هو النتيجة النهائية التي

يستخلصها الكاتب: وهي أن الاتحاد السوفياتي من منظور استراتيجي هو الدولة الاولى في العالم المعاصر بكافة المقاييس.

● ثم يجيء التحذير في صورته العملية التي تحمل آراء نيكسون السياسية، وهي:

١ ـ انه اذا لم تلحق الولايات المتحدة بالاتحاد السوفياتي وتتفوق عليه خلال العشرين سنة القادمة، فان العالم الغربي بأكمله بقيادة الولايات المتحدة سوف يتحول الى حطام يشبه فرنسا وبريطانيا بعد معركة السويس في منتصف الخمسينات. بل سيكون هناك وضع أكثر اثارة، وهو أن أوروبا الغربية ستكون تحت رحمة الاتحاد السوفياتي والحزام الاشتراكي. أما العالم الثالث فلن يكون أكثر من احتياطي تحت الاستدعاء بكل معانيه الاقتصادية والعقائدية، لا العسكرية فحسب من قبل المنظومة الاشتراكية المتزايدة الحجم والعمق من اسيا الى امريكا الجنوبية الى افريقيا، وفي الوسط أوروبا الشرقية.

٢ ـ حينذاك لن تكون الصين رغم اتساعها أكثر من جزيرة محاصرة من الداخل والخارج، وستعود حتما الى فلك الاشتراكية العالمية. ولا يعود الكلام عن يوغسلافيا أو رومانيا أكثر من أضغاث أحلام ازال بريقها الاستقلالي وهج الشمس.

٣ ـ ومن ثم، فالعالم الثالث هو ميدان الحرب العالمية الثالثة الدائرة رحاها الان امام كل العيون والاذان دون أن يصدق أحد. انه الميدان الجيوبوليتيكي، ولكن الحرب الاستراتيجية عالمية العمق قطباها هما النظامان الرئيسيان في دنيانا الراهنة، ولا ضرورة مطلقا لاستخدام مصطلح القوتين العظميين لانه لا يصوغ المتغيرات الجوهرية في هذه الدنيا التي تودع قرنا ـ لن يتاح لجيلي ان يشترك في مراسيم وداعه ـ كما يختتم نيكسون الجزء الثاني من كتابه المثير.

● أما القسم الثالث، فهو الرد على السؤال البديهي: وماذا تستطيع الولايات المتحدة ان تفعل؟

ويجيب الرئيس الامريكي الاسبق، بأننا لسنا أمام القدر العاتي في احدى مآسي الاغريق، ففي حوزة امريكا من الارصدة الاستراتيجية ما يمكن ان يحرز لها النصر في هذه الحرب، لو اتيحت لها القيادة التاريخية الرشيدة.

وليس من المهم التوقف هنا عند مجموعة السباب والشتائم التي يكيلها نيكسون للرئاسات الامريكية المتعاقبة، وخاصة الرئيس الحالي كارتر.

بل ليس من المهم ايضا التوقف عند هالات المجد التي يقيمها لمبادىء ويلسون ورئاسة روزفلت، فالاهم انه يختار من كيندي نموذجا استثنائيا للقيادة التاريخية، ليقول:

١ - ان مجابهة الاتحاد السوفياتي مجابهة صريحة ومكشوفة على الصعيد الدولي، هي الطريق الوحيد لتجاوزه والتفوق عليه.. ان مقاطعة الاولمبياد في موسكو لا ينبغي أن يكون حركة تكتيكية عابرة، بل منطلق رمزي لما هو أكثر فعالية وجدوى: عدم التوقيع على سالت ٢ ولا على أي سالت اخرى لانها - اتفاقيات النفاق الدولي - ولا معنى حقيقيا لها. منع التعامل التجاري وخصوصا القمح والالات الدقيقة. دعم المنشقين في الداخل، والترحيب المطلق بمن يأتي منهم الى امريكا دون قيد أو شرط.

دعم الكنيسة الروسية، لانها تستطيع ان تلعب دورا ايجابيا ضد النظام. دعم الاسلام والمسلمين في الجمهوريات السوفياتية الشرقية، لان العامل الديموغرافي سيلعب دوره في القريب العاجل. تشجيع الدعوة الدينية - اسلاما كانت أو مسيحية أو يهودية أو بوذية - حين تتجه هذه الدعوة الى تفكيك النظام الايديولوجي. تشجيع الدعوات القومية حين تتجه الى الانفصال. تشجيع الهجرة اليهودية وحمايتها بانتظام وفق مخطط مدروس.

٢ ـ دعم الصين دعما غير مشروط وتشجيعها في مجالات التحديث في الانتاج والاستهلاك والخدمات، بحيث تبقى المواجهة بينها وبين السوفيات حتى نهاية القرن، دون الطموح الى تغييرات ايديولوجية جوهرية في نظامها السياسي.

ـ لقد كنت أول رئيس امريكي يطرق الباب الرئيسي في سور الصين العظيم، وقد انفتح الباب في عهد ماو نفسه، ولكننا لم ندخل منه بالقدر الكافي الى الان في عهد أكثر ذهبية من الماضي ـ. و يجب أن نضحك من انفسنا حتى الموت، لاننا تركنا الصين عارية أمام بلد صغير كفيتنام، ولا زلنا بعيدين جدا عن التأثير في لاوس وكمبوديا، لبعدنا الاصلي عن التأثير في الصين رغم معاهدتها مع اليابان ـ.

ثم يقول نيكسون: لا ينبغي أن نتوهم أننا نستطيع الحصول على صين امريكية كما كان الوضع ولا يزال مع الصين الوطنية. كلا. وانما المطلوب اعظم، وهو اقامة حاجز صحي اشتراكي في جنوب شرقي اسيا، يقف اساسا بوجه السوفيات. ويكرر الرئيس الامريكي الاسبق عبارة: المطلوب هو أعظم، باقامة علاقات سرية وعلنية قوية لا بين الصين واليابان فقط، بل الصين والهند. لا زالت الهند قارة مجهولة بالنسبة لنا، ومهارتنا في اللعب داخلها محدودة أبعدت غاندي متهمة واعادتها الى السلطة بطلة.

٣ ـ لا يجب التسليم في اية لحظة بان شرق أوروبا منطقة نفوذ نهائية للسوفيات، فالاختراق الغربي لها ممكن عبر عدة مستويات: نقاباتنا ونقاباتهم، جامعاتنا وجامعاتهم، اتحاداتنا واتحاداتهم، ثم عبر اوروبا الغربية وفق بنود اتفاقية هلسنكي التي يجب استغلالها الى اقصى درجة. مجلس الكنائس العالمي ايضا يستطيع أن يلعب دورا مؤثرا. اليهود كذلك. اسباب الاتصال بين المنشقين في الداخل والخارج. اسباب الاتصال بين المقيمين والمهاجرين الى امريكا كالجالية البولونية.

ان المظلة النووية الامريكية على غرب أوروبا، تبقى عملا دفاعيا ـ يقول نيكسون ـ جنبا الى جنب مع دفاعات حلف الاطلنسي، ما لم يحدث اختراق اقتصادي وثقافي فعال من الغرب في الشرق. واوروبا هنا ـ وبالذات فرنسا والمانيا الاتحادية ـ تستطيع أن تلعب دورا افضل من الامريكيين، ولكن على الولايات المتحدة ان تدفع الفاتورة سلفا ودون استزراع مشاعر المنح والدونية أو العطاء والتعالي. ان اتفاقيات التعاون الاقتصادي ـ شرق اوروبا يحتاج الى الكثير ـ تصلح غطاء ممتازا لاختراق النقابات العمالية. اما التعاون الثقافي فمجاله أو مجالاته أكثر اتساعا وشمولا ونفوذا مما نظن. ان ـ العداء للسوفيات ـ ايديولوجية تجد لها أرضا خصبة في أكثر بلدان اوروبا الشرقية من ارصدة التاريخ الروسي القديم مع الجيران الاقربين، والنزعة القومية يمكن ان تكون محورا مركزيا لابتعاث التاريخ وتحويله الى ـ حاضر ـ. ان ـ النموذج الغربي في الحياة ـ وحده ليس كافيا، ولا بد من استكشاف ركائز غائرة في اللاوعي الجمعي، للاستقلال أو الانسلاخ.

٤ ـ لا أخلاق في السياسة، ومن يشاء وقف الوكالة المركزية ـ المخابرات ـ عن العمل، عليه ان يفتح ديرا وان يقنع الجنرالات بالتخلي عن البروتستانية والدخول في سلك الرهبنة الكاثوليكية.

لذلك أنادي ـ يقول نيكسون ـ بصوت عال، انه لابد من اعادة اعتبار عملية للوكالة المركزية حتى تستطيع القيام بواجبها القومي والانساني دون خوف، ودون حاجة الى اصدار كتب الاعترافات المليئة بالندم، والتي تكشف خططنا أمام العالم.. فالوجه الاخر للاسلحة التقليدية في حروب العالم الثالث، هو الكفاءة العالية لجهاز الامن الخارجي للولايات المتحدة. وهو الجهاز الذي اخفق اخفاقا ذريعا في ايران وافغانستان ولبنان، وحتى في صراع الشرق الاوسط بأكمله. وقد قام الرئيس السادات شخصيا بدور استثنائي في التاريخ المعاصر، اكبر بما لا يقاس من دور الوكالة المركزية

مجتمعة. وهو دور كانت تنقصه بالضرورة مقومات، لا زال بعضها ناقصا الى الان، ولم توفره الوكالة بعد. بل لعلها تفكر في عكسه تماما بعض الاحيان.

ان دعم الرئيس السادات داخليا وعربيا، هو عمل استراتيجي لا ينبغي ان يخضع لاي تأويل أو اجتهاد. وكما كان ناصر أملا للقوى الراديكالية والسوفيات طالما ظل حيا، ويتغير النظام بأكمله فور غيابه، فان السادات يجب ان يبقى أطول فترة من الوقت، لان مجرد تغييره يلقي بالمنطقة كلها لا مصر وحدها في براثن التغيير.

ان هناك كيانات، كاسرائيل، مضمونة الشعب والتكوين السياسي لامد يطول في المستقبل غير المنظور. ولكن الشعب المصري كالشعب الايراني رغم تفاوت الظروف والممكنات واختلاف الظواهر، ليس شعبا مضمونا بأية حال. اننا نخسر ايران بلا مناسبة في ظني ـ يقول نيكسون ـ وقد نخسر مصر وافريقيا وكل الشرق الاوسط اذا مضينا على ذات الدرب من الغرور وعدم الفهم. اننا نتعامل احيانا مع حالات استراتيجية بمنطق تاكتيكي قصير النفس، ونتعامل احيانا مع حالات عابرة بمنطق استراتيجي طويل النفس. والنتيجة هي الفوضى الشاملة التي تنذر بالخطر الاكيد. **والنتيجة ايضا هي اننا في التطبيق نخلط بين استقرار ضروري في الشرق الاوسط مثلا في هذه المرحلة بالذات، واضطراب ضروري في شمال افريقيا. نخلط بين المواقع والمراحل، لاننا نخلط بين الوظائف. للاستقرار هنا وظيفة يؤديها لنا وللاضطراب هناك وظيفة اخرى يؤديها لنا ايضا، ولكننا لا ندري: كيف ومتى واين ومن الى اخر هذه الاسئلة الحيوية.**

لذلك اخفقت سياستنا الخارجية ـ لا زال الكلام لنيكسون ـ اخفاقا مروعا في الحرب اللبنانية وحرب الصحراء المغربية والحرب المصرية الليبية والحرب اليمنية، وأضحت اقوالنا وافعالنا مدعاة للتفكه والتندر وانحدرت الهيبة الامريكية الى الحضيض في بلد كايران.

ان الخسارة في معركة شرف، ولكننا احيانا نخسر بلا شرف. وتلك هي الخطوة الاولى في مسيرة الانحطاط لاحدى الامم.

... ولا ينتهي كلام نيكسون عند هذا الحد. يطول حتى ليشمل ادق التفاصيل وبقية القارات خصوصا افريقيا وامريكا اللاتينية.

وصاحب « الحرب الحقيقية » يعيش الان في ظل بـاللغــة السيـاسيــة التقليدية. ولكن كتابه الصريح يضعه في مركز الضوء بالنسبة لنا نحن العرب.

وفي هذا الضوء نستطيع على الاقل أن نقرأ السطور الامريكية التي يكتبها الشرق الاوسط بألوان دامية أمامنا وحوالينا هذه الايام.

٢ ـ شرايبر: هذا هو التحدي الدولي:

ليس نيكسون ـ الرئيس الامريكي الاسبق ـ وحده، هو الذي يذكرنا بالمفكر الفرنسي المعروف جان جاك سرفان شرايبر صاحب كتاب ـ التحدي الامريكي ـ الذي صدر قبل ثلاثة عشر عاما، فشرايبر يعود ليذكرنا بنفسه منذ اسابيع قليلة بصدور كتابه الجديد ـ التحدي الدولي ـ وهو الكتاب الاكثر بيعا في مكتبات فرنسا والعالم الان اقول فرنسا والعالم، لأن المؤلف كان حريصا ـ وصريحا ؟ـ في ان يسجل على الصفحة الرابعة من كتابه أسماء دور النشر التي تعاقدت مع موكله على ترجمة ـ التحدي الدولي ـ وطبعه في اللغات التالية: الانكليزية ـ الالمانية ـ الاسبانية ـ الايطالية ـ العربية ـ العبرية ـ الفنلندية ـ اليابانية ـ السويدية ـ الهولندية ـ البرتغالية ـ وثلاث لغات هندية.

ان هذاالحرص على تسجيل مدى ذيوع الكتاب في أرجاء المعمورة ليس مصدره الفخر او الغرور أو الاكاديمية، كذلك، فان هذه الصراحة ليس مصدرها الامانة مع مصلحة الضرائب هنا أو هناك. بل هو تنبيه اولي وبصوت عال، ان ـ التحدي الدولي ـ هو كتاب دولي وليس كتابا فرنسيا،

تماما كما كان شأن ـ التحدي الامريكي ـ الذي لم يكن قط كتابا فرنسيا، بل كتابا أوروبيا.

ولعلنا نذكر أن كتاب ـ التحدي الامريكي ـ Le Defi ameŕicain ـ وقد صدر في أواخرعام ١٩٦٧ كان صرخة أوروبية مذعورة من هول التغلغل الامريكي في الحياة الاقتصادية ـ ومن ثم العسكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية ـ لاوربا، وتحذير من أنه لم يبق من الزمن ـ كما يرى شرايبر ـ أكثر من عشرين عاما، اذا أحسنت اوروبا استغلالها قد تستطيع الانفلات من الاسر الامريكي، والا فانها ستحال الى التقاعد الحضاري او بعبارة أخرى ـ للمؤلف ـ ستقدم طلب انتساب الى العالم الثالث وتصبح جزءا من ريف الحضارة.

وقد مضى من العشرين عاما التي حددها المؤلف موعدا اوروبيا مع القدر الامريكي حوالي ثلثيها. وهي فترة حافلة بالمتغيرات التي استدعت من شرايبر ان يطلق نذيره الجديد المختلف نوعا عن تحذيره السابق التحدي الراهن لم يعد أمريكيا فقط، بل تحديا عالميا اتخذ له الكاتب تسمية رمزية هي الطاقة. وبالتالي، فلن ندهش ان التحدي الدولي الذي يقصده هو في حقيقة الامر تحدي ما يسمى بالعالم الثالث، واذا شئنا الدقة الاكاديمية الجيوبوليتيكية، فهو الشرق الاوسط، واذا اوجزنا اكثر قلنا انه العالم العربي كما يحلو للغربيين أن يسموا وطننا.

ويحسن ان نذكر دائما ونحن نقرأ شرايبر أنه الكاتب الفرنسي اليميني المعروف طوال رئاسة تحريره مجلة ـ الاكسبريس ـ وبعد ان استقال للتفرغ للسياسة والتأليف، وان كان لا يزال من الاركان الاقتصادية ـ السياسية للمجلة المذكورة. ولكنه بين كتاب اليمين الفرنسي احد اكبر الاذكياء والمثقفين. يحرص على استقاء المعلومات من مصادرها السرية والعلنية، ويجهد في تقديم ارشيف وثائقي مدعوم بالارقام والاحصائيات والخرائط والخطوط البيانية التي لا يبدو معها مجال لوجهة نظر بل ـ للحقيقة ـ

المجردة كما يوحي لنا بها المؤلف.

وشرايبر ليس كاتبا هاويا وان رغب في الظهور كذلك. وهو ايضا ليس كاتبا محترفا وان بدا لنا نحن كذلك. وانما هو سياسي وسيلته هي الكتابة بين وسائل اخرى. وليس هذا تعريفا به او تقييما، وانما هو تعريف بهدفه من الكتابة، ومن ثم بالاسلوب أو الاساليب التي يتبعها لتحقيق هذا الهدف.

وهو رجل له ميول امريكية قديمة وحاضرة، ولكن وطنه الفرنسي بل الاوروبي هو شغله الشاغل. وليس ذلك ايضا تعريفا به، بل بمنهجه في التفكير.. فهو من حيث المبدأ يرى في الولايات المتحدة حصنا للرأسمالية الغربية التي يدعوها بالعالم الحر. وهو من حيث المبدأ ايضا يرى في أوربا - وفرنسا تحديدا - قاعدة الحضارة الحديثة التي اذا اهتزت، فسوف تهتز الولايات المتحدة ايضا. وهو يكتب بروح رسولية كما لو كان مبعوثا فرنسيا للعناية الالهية بالغرب، لذلك لا تعنيه في الكثير خصوصيات الاوضاع القائمة في المانيا أو بريطانيا أو حتى أمريكا، بقدر ما تعنيه السياسات والممارسات التي تدفع هذه البلدان احيانا الى حافة الهاوية. ولذلك ايضا يرى - عكس الكثيرين - ان زماننا احوج من الازمنة الاخرى الى القيادات التاريخية الملهمة بحس حضاري لا يخيب يشبه النبوءة. ويفسر العديد من الانتكاسات الغربية بهزال القيادات الحالية التي رأت نفسها فجأة كما يحدث في جنات الاطفال، تعبث فوق عروش المجد القديم والحضارات الخالدة. انهم سياح، يقول شرايبر عن كل ساسة العالم الغربي بعد رحيل تشرشل وديغول وكنيدي واديناور.

والرجل التاريخي عند شرايبر ليس كائنا خرافيا، بل هو صاحب العقل الاستراتيجي البعيد النظر. بينما العقل الجماعي أو - مكتب الرئيس - هو الخرافة بعينها، لان القرار التاريخي لا يتخذه سوى فرد. أما القرارات الهزيلة فهي ثمرة نتاج فريق العمل أو - الباشكتبة - من البيروقراطيين

المخضرمين. ويستخدم شرايبر كلمة الباشكاتب بنطقها التركي للتدليل على تفاهة المستشارين المعاصرين للبيت الابيض وقصور الرئاسة الغربية. ولا يجب أن يغيب عن بالنا هنا أن سرفان شرايبر كان أحد المنافسين الاقوياء للرئيس جيسكار ديستان في انتخابات ١٩٧٣ الرئاسية في فرنسا.

فالرجل يكتب اذن كمفكر استراتيجي للمستقبل، وكسياسي عملي في الوقت نفسه.

ونحن لا نستطيع ان نقرأ كتابه الجديد ـ التحدي الدولي ـ الا اذا استعدنا المحاور الرئيسية في كتابه القديم ـ التحدي الامريكي ـ. ويجب أن نستعيد كذلك ان الكتاب صدر عشية الانتفاضات الطلابية الكبرى في فرنسا والعالم، وفي ذروة الحرب الامريكية ضد الشعب الفيتنامي، وغداة الهزيمة العربية عام ١٩٦٧.

وماذا قال جان جاك سرفان شرايبر في ذلك الوقت؟

قرب خاتمة القسم الاول وعنوانه «النزول الى أوروبا» يذكر ان الامريكيين وظفوا أربعة مليارات من الدولارات في الغرب، ولكن المهم هو الجواب على هذا السؤال: كيف تم تمويل هذه التوظيفات؟ ويلخص لنا الجواب هكذا:

ـ قروض حصلوا عليها من السوق الاوروبية لرؤوس الاموال (الاصدارات الاوروبية (Euro - Emisslons)وأرصدة حصلوا عليها مباشرة في البلاد الاوروبية تبلغ حوالي ٥٥ في المائة.

ـ اعانات خاصة بالميزانية من سلطات الدول الاوروبية، وتمويل ذاتي محلي بلغت ٣٥ في المائة.

ـ عمليات النقل الصافية للدولارات مصدرها الولايات المتحدة بلغت حوالي عشرة في المائة.

وعند هذا الحد يعلق شرايبر حرفيا «وهكذا فان التوظيفات الامريكية

في اوروبا ممولة بواسطة موارد اوروبية، بنسبة تسعة اعشار، نحن ندفع لهم، الى حد ما، وهم يشتروننا ».

اذا انتقلنا الى القسم الثالث «أوروبا بلا استراتيجية» نجد المؤلف يستخلص - بألفاظه ومعانيه - الدلالات التالية:

١ - ليس التحدي الامريكي في جوهره صناعيا أو ماليا. بل انه يطرح على بساط البحث، قبل كل شيء خصبنا الفكري، واستعدادنا لتحويل الافكار الى وقائع. ان ما ينوء تحت الضغط الخارجي، ولنعترف بشجاعة، هو بنياتنا السياسية والفكرية .. هو ثقافتنا.

٢ - ان امريكا اليوم ما تزال تشبه أوروبا، مع سبق يصل الى خمسة عشر عاما. انها تنتمي الى النظام نفسه، والمفهوم نفسه للمجتمع الصناعي يضمهما على السواء. وفي عام ١٩٨٠ ستكون الولايات المتحدة في عالم اخر. واذا لم نصل من جهتنا الى هذا العالم، فستحتفظ الولايات المتحدة لنفسها باحتكار التقنية والعلم والقوة العصرية ».

والحل؟ ..

يجيب شرايبر وفي مخيلته أوروبا كلها لا فرنسا وحدها:

أ - بتشكيل وحدات صناعية كبيرة، قادرة، ليس فقط بحجمها بل بتسييرها على التنافس مع الشركات الامريكية العملاقة.

ب - اختيار - العمليات الكبرى للتقنيات الطليعية (الكونكورد مثلا في حالة المشاركة - القوة النووية الفرنسية في حالة الانفراد مثلا أيضا) التي ستحتفظ لاوروبا في الجوهر بمستقبل مستقل.

جـ - حد أدنى من السلطة الفيدرالية، تستطيع ان تكون المحرك والكفيل للمؤسسات المشتركة.

د - تحويل اساليب التنسيق والتقريب، بين الوحدات الصناعية وبين الجامعة والسلطة السياسية.

هـ ـ تربية معمقة ومعممة، لكل الشبان، وتربية متجددة ومستمرة لكل البالغين.

و ـ وأخيرا، ولعله أولا، تحرير الطاقات اسيرة البنيات القديمة، بواسطة ثورة في اساليب التنظيم، وهي ثورة يصنعها بالضرورة تجديد النخبات والعلاقات الاجتماعية».

والطريق الممكن لتحقيق هذه الاهداف لاوروبا هو السلام الذري أو المباراة الصناعية. ويبشر شرايبر العالم في ذلك الوقت «ستغادر الحملة الامريكية أرض الفيتنام، حيث لا تكسب شيئا، وحيث تخسر كل شيء. ولكن الصناعة الامريكية لن تغادر أوروبا حيث لا تكف عن دفع مكتسباتها الى الامام، وزيادة قوتها. لذلك نجد أنفسنا نحن الاوروبين مضطرين لان نبحث في انفسنا عن مكامن القوة اي الخلق، والرغبة في تشكيل مجتمع ـ ما بعد ـ صناعي أكثر ذكاء وسخاء. ان المبارزات التقنية وبراعات التنظيم تلذنا، ولكنها تأسرنا اقل مما يأسرنا التطلع الى حضارة أرفع. وهكذا فليس من شأن التحدي الامريكي الا ان يضيف ضغطا خارجيا الى الحاجة الداخلية».

اخيرا، ما هي اسلحة التحدي الامريكي باختصار؟

يقول سرفان شرايبر «هي الاستخدام والتطوير المنهجي لكل ادوات العقل، ليس في مجال العلم فقط، بل ايضا في مجال التنظيم ومجالس الادارة حيث اعتاد الاوروبيون اللاعقلانية: بالتقديس الاعمى للوصايا الموروثة عن السلف أو اثقال الروتين، والحق الالهي في السلطة، واللجوء الى الانف أكثر من الفكر المنهجي. ان العقل الانساني مرن وخفيف ومتحرك، خارج هذه الاقداس الثقيلة».

وكانت اخر فقرات «التحدي الامريكي»، عن النهضة «التي لا يمكن ان نسمح لانفسنا بعد الان بانتظارها، فهي لن تستجيب للبلاغة الوطنية،

ولا لطنين البوق الذي يعود الى زمن المواجهات الجسمانية الكبرى، انها ستستجيب لدقة التحليل، ولصرامة الفكر، ولوضوح التفكير. انها تستدعي اذن عرقا غزيرا من الزعماء السياسيين ورؤساء المؤسسات والزعماء النقابيين».

وحتى لا ننسى، فقد كان المؤلف يوجه خطابه الى اوروبا. يتهمها - تأملوا باللاعقلانية والبلاغة الانشائية والعلاقات الشخصية في العمل والحق الالهي في السلطة. ترى، لو كان شرايبر عربيا ماذا كان سيقول اذن؟ ولكن هذه قصة أخرى.

فالمهم أن أغلب نبوءات - التحدي الامريكي - قد تحققت وزيادة. خرجت أمريكا من فيتنام. انتفض الطلاب الفرنسيون والكتاب لا زال طازجا في واجهات المكتبات عام ١٩٦٨. لم تخرج الولايات المتحدة من اوروبا. ماتت - روح - الحركة الطلابية بعد سنوات قليلة.

ومع ذلك، بقيت دعوة - التحدي الامريكي - ماثلة في الذهن الغربي، يسمونها أحيانا الثورة المثلثة ثورة الادارة ثورة التكنولوجيا - ثورة الاعلام. ولم يكن الكتاب اكثر من - ورقة عمل - حاول شرايبر ان يتابعها بعدئذ مرتين. الاول في كتابه - البيان الراديكالي - والاخرى في كتابه - السلطة الاقليمية -. ولكن المتغيرات الاوربية كانت تستدعي ماهو اكثر من ورقة عمل.

وقبل أن نقفز الى ما فعله شرايبر، علينا ان نتأمل بعض الملاحظات الاساسية، سواء في طريقة تأليف - التحدي الامريكي - أو في أسلوب المؤلف أو في أهدافه، ولا أقول أفكاره، فلربما يردد غيره الافكار ذاتها، ولكن بطريقة أخرى وأسلوب مختلف ولاهداف مغايرة.

ان أسلوب - ورقة العمل - في التأليف - كما فعل شرايبر - يعني ان الكاتب انتقل من مرحلة البحث العملي الى مرحلة الفكر في السياسة. هو لذلك لا يقدم فرضا نظريا يمتحنه بالسياق التحليلي ثم يركب منه جملة

نتائج. بل هو يعتمد على الحضور الفعلي للارقام والاحصائيات والنسب والخطوط البيانية والمسوح الاجتماعية، ليستكشف افضل الطرق لتنفيذ خطة ما تتطلبها احدى السياسات، سواء كانت لحزب أو لمجموعة شركات أو مجموعة دول... الى اخره. لذلك كان التأليف في مثل هذه الاحوال، هو نوع من التقرير المطول الذي يعتمد أساسا على ـ مكتب المؤلف ـ المكون غالبا من اختصاصيين في الشؤون التي يستعرضها الكتاب ـ التقرير أو ـ ورقة العمل ـ المطلوبة من جهة ما أو عدة جهات. والمؤلف بالتالي ليس اكثر من منسق جيد بين المعلومات والوقائع والاحداث، وموجه جيد للسياق نحو الفعل السياسي المراد تحقيقه.

وشرايبر، كما قلنا، هو مفكر فرنسي مخلص جدا ليمينيته وميوله الامريكية. ولكن كتابه ـ التحدي الامريكي ـ يضيف ان الفكر والميول شيء مسموح به، بشرط الانسجام مع ـ ورقة العمل ـ المطلوب انجازها. وهي ورقة عمل المستقبل الفرنسي في الاعوام الثلاثين التالية لصدور الكتاب. والاتجاه هو ان لا مستقبل لفرنسا فضلا عن المانيا أو بريطانيا أو ايطاليا، بغير الوحدة الاوروبية المستقلة عن المصالح القومية للولايات المتحدة. هذه الوحدة تشارك أمريكا المصلحة العالمية للرأسمالية الغربية، وبالتالي فهي مع السلام الذري أو الحرب الصناعية. ولكن هذه الوحدة تخالف أمريكا في المصلحة القومية حيث التفوق التقني الامريكي برفقة التفوق الاداري التنظيمي والتفوق الاعلامي، يشل حركة اوروبا تماما عن التقدم ويبقيها مجرد هامش ضعيف على الصفحة الأمريكية في كتاب العصر. وهذا ما يرفضه الفرنسي وكل اوروبي، ينشد تطوراً لا انزواء لحضارة بلاده لتفجير طاقاته الخلاقة لا بإخمادها في اسواق المجتمع الاستهلاكي

هذا النوع من التأليف يختلف نوعيا عن أصحاب ـ وجهات نظر ـ لا تختلف كثيرا عن فكر شرايبر، ولكنها لم تنل الخطوة من التحقق كنبؤات

ولا من القارىء نفسه، كما قال شرايبر في كتابه ـ التحدي الامريكي ـ وكما سينال أكثر وأكثر في كتابه الجديد ـ التحدي الدولي ـ .

لنضرب الامثلة، حتى لا نضيع، على الرجال والتيارات التي رافقت ظاهرة سرفان شرايبر، ولم تحقق ما فاز به من نجاح .

كان هناك، مثلا، ولا يزال المفكر اليميني الاشهر في فرنسا ريمون ارون . كانت مهمته ولا تزال هي تحقير الاشتراكية وتلميع الرأسمالية . وهو كاتب لا ينقصه الذكاء واستاذ لا تعوزه أدوات البحث . ولكنه انتهى الى الصراع الانشائي بأن اوروبا مهددة بالموت لاسباب أخلاقية جوهرها الخوف الوهمي من الاتحاد السوفييتي .

كان هناك، مثلا أيضا، ولا يزال روجيه غارودي الذي انتهى في اللحظة التي خرج فيها من الحزب الشيوعي، حيث كان قد بدأ حواره التاريخي مع الكنيسة والاسلام، وحيث أراد دمج الاشتراكية بالدين والشرق بالغرب، وكانت الخاتمة هي الافلاس المروع، فراح يقتحم ميادين السينما وكتابة الروايات الادبية دون حصاد حقيقي .

كان هناك كذلك اتجاه ـ الفلاسفة الجدد ـ الذي نادى أصحابه بالشعار القائل ـ ماركس مات . وقد استمع اليهم البعض في جدية حتى أن الرئيس الفرنسي دعاهم الى حفل خاص بقصر الاليزيه . ولكنهم انتهوا من خلال عام واحد، لانه لم يكن لديهم ـ حياة ـ بديلة لموت الاخرين .

كان هناك اخيرا اتجاه ـ اليمين الجديد ـ الذي جهر أصحابه علنا بأنهم ينشدون تطوير الفكر اليميني، ولكنهم اكتفوا بترديد كل محفوظاتهم من آيات هذا الفكر في الماضي دون أن يضيفوا شيئا جديدا .

هذه الامثلة وغيرها تؤكد لنا في أعمالها طرقا متشابهة في التأليف المنهجي الكلاسيكي: المقدمة والسياق والنتيجة، او المشكلة والمعالجة والحل . وتعتمد كلها على جهد الفرد المفكر وثقافته وموهبته وانتمائه السياسي، دون

أن يكون الكتاب أكثر من عنوان اخر يضاف الى المكتبة .

جان جاك سرفان شرايبر ظاهرة مغايرة كليا ، لانه سياسي أولا ، كان نائبا مرة ، ورشح نفسه لرئاسة الجمهورية مرة ، ويرى نفسه ديغوليا أصيلا في كل المرات .

نبوءاته في ـ التحدي الامريكي ـ لم تكذب تماما ولم تصدق تماما ، ولكنها حرضت على الفعل الاوروبي في جميع الاحيان ، سواء على صعيد السوق الاوروبية المشتركة ، او انجاز البرلمان الأوروبي الموحد ، أو الحوار العربي الاوروبي . الى اخره الى اخره .

الكتاب ، بهذا المعنى يصبح حزبا منظما بأدق الالات الالكترونية والقوى البشرية معا .

والكتاب ، بهذا المعنى أيضا ، لا ينتهي باخر صفحاته ، بل يظل مفتوحا لمتغيرات الزمن .

وبين عامي ٦٨ و ١٩٨٠ وقعت متغيرات عديدة :

● اهمها الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ وما رافقها من حظر للنفط انتهى بالصلح المصري الاسرائيلي والحرب الاهلية اللبنانية .

● واهمها خروج أمريكا من فيتنام ، وتوحد الشمال والجنوب في بلد واحد تمكن في فترة قصيرة من تغيير نظام الحكم في كمبوديا ولاوس ، وتعرض لحرب من الصين انتصر فيها بانسحاب الصينيين .

● واهمها الثورة الايرانية باطاحة الشاه عن السلطة تحت شعارات الاسلام .

● واهمها تعدد اقطاب القوة الدولية المعاصرة وقدوم العرب ـ نفطا وإسلاما ـ كواحد من هذه الاقطاب .

● واهمها اخفاق كل الحوارات بين العالم الثالث والعالم المتطور ،

بتأخر النظام الاقتصادي العالمي الجديد في الظهور .

● وأهمها سطوة الحروب الاقليمية على المناخ الدولي بحيث لم تعد هناك رقعة على سطح الكرة الارضية خالية من العنف المبطن او العنف الواضح كالشمس . لا استثناء لامريكا التي وقعت في قلبها حادثة القتل الجماعية الشهيرة ولا استثناء لاوروبا حيث بدا شبح النازية الجديد يظهر في النهار لا في كوابيس الليل .

ومن ثم ، فالعالم - كما يراه شرايبر - يهرول سريعا نحو الهاوية . لقد تجاوزنا حافتها التي كان يرعبنا بها دالاس أيام الحرب الباردة ، وأرعبنا بها كينيدي أيام كوبا . وتلك هي المفارقة أننا في زمن الانفراج الدولي نرى أنفسنا وقد تخطينا الحافة الحرجة وبدأنا نهوي فعلا .

اذن ؟

واذن ، كان لا بد من صدور كتاب « التحدي الدولي » - Le Defi mondial الذي يتجاوز « التحدي الامريكي » من حيث انه ليس « ورقة عمل » بل هو « المبادرة الاوروبية » لانقاذ العالم . وحتى نوضح هذه العبارة جيدا ، علينا استكمالها بالقول ان التحدي الدولي الذي يقصده المؤلف هو بالدقة التحدي العربي الاسلامي ، هو التحدي النفطي والحضاري - الاستراتيجي . لذلك فهي مبادرة لانقاذ العالم من العرب والمسلمين الذين يملكون الطاقة والاموال وأيضا الحضارة .

ولعلي تعمدت الاشارة مبكرا الى خلاصة الكتاب النهائية قبل عرضه تفصيلا ، لان الحملة الاعلامية العالمية عن الكتاب هي في الحقيقة عمل سياسي اوروبي من الطراز الاول . ولان الكتاب نفسه تجاوز مرحلة ورقة العمل التي تميز بها في الماضي ، فقد تجاوز مؤلفه مرحلة الاعتماد على ادارة مكتبه المكونة من الاختصاصيين . الكتاب الجديد « مبادرة دولية » ومن ثم فتأليفه هو حاصل جمع فريقين أساسيين من فرقاء العمل : « فريق باريس » و « نادي روما » .

وهكذا، بعد أن كان شرايبر ظاهرة جديدة في التأليف السياسي، أصبح مظاهرة دولية تجيء في وقت بالغ التحديد: حرب الخليج. حرب العرب والعرب. حرب المسلمين والمسلمين.

ما هي هذه المبادرة أو المظاهرة التي يسميها شرايبر كتابا يدعوه «التحدي الدولي» فيطبع خلال أسبوع واحد في ست عشرة لغة عالمية، وتظهر اعلاناته الكبيرة في شوارع الغرب. وصحف العالم والاذاعات المرئية والمسموعة، وتعقد حوله الندوات والمؤتمرات التي يؤمها كبار اصحاب الشركات والسياسيين في السلطة والمعارضة.

وقبل ذلك: ما هي حكاية «فريق باريس ونادي روما»؟...

٣ ـ مبادرة لانقاذ الغرب:

لازلنا مع جان جاك سرفان شرايبر، ولم نطل على عكس ما قد يتوهم الكثيرون لان ما يفعله هذا المفكر الفرنسي بكتابه «التحدي الدولي» انما هو بحجم مستقبلنا نحن بالذات، ومصيرنا نحن على وجه التحديد. و «الفعل» الشرايبري ان جاز التعبير، ليس مجرد الضجة الاعلامية العالمية التي يثيرها منذ اسابيع، بل لان ما يفعله قيد التنفيذ في الكواليس الدولية ودهاليزها السرية.

هذه نقطة.

النقطة الثانية، هي ان «التحدي الدولي» ليس مجرد استكمال للكتاب السابق «التحدي الاميركي» لنفس المؤلف، بل هو انتقال نوعي من مرحلة «ورقة العمل» الى مرحلة «المبادرة السياسية». وهو في هذا النطاق ليس بعيدا جدا عن كتاب نيكسون «الحرب الحقيقية». فاذا كانت الحرب العالمية الثالثة دائرة الان، ومنذ عشر سنوات، فان كل الخلاف او الاختلاف بين نيكسون وشرايبر هوان الاول يحدد حصة امريكا من هذه

الحرب، بينما يحدد الثاني حصة اوروبا. كلاهما ينطلقان من ان الغرب «يجب ان ينتصر» ويقدمان وسائل هذا الانتصار.

لذلك، لا ينبغي ان تبهرنا كلمات مثل «النظام الاقتصادي العالمي الجديد» و«العدالة الدولية» ولا التعبيرات القاسية في نقد الغرب، فهي لا تستهدف الاقرار بحق ما يسمى العالم الثالث في التطور الخلاق، بقدر ما تنشد الانفلات من الازمة الضارية والمأزق الخانق، بأقل قدر من الخسائر.... حتى ولو كانت هذه الخسائر بعض فتات المائدة التي يمكن رميها للافواه الجائعة اتقاء لثورة الرغيف المرعبة.

ولكن اخطر ما في كتاب شرايبر هو طريقة تأليفه، كما سبق ان اشرت، ولعل البعض يفاجأون بالتركيز على هذه النقطة، فالاهم لديهم هو المضمون او هو المكتوب. غير ان الحقيقة هي ان طريقة تأليف الكتاب في الحال التي امامنا هي ذاتها المضمون او المكتوب .

كيف؟

قلنا ان «التحدي الدولي» هو حاصل جهد فريقين للعمل. فريق باريس ونادي روما. فما هي حكايتهما؟

كان البروفيسور الاميركي اولمان يقول في كتابه المعروف العالم وسوق النفط ما نصه «هناك فائض نفطي في السوق الدولية، فاذا تمكنت الاقطار المستهلكة للنفط من التنسيق الدقيق في ما بينها، تستطيع ان تقلب مائدة الاوبيك على اصحابها، وتغير الوضع لصالحها» ولكن بعض الخبراء الاكثر تعقلا ادركوا على الفور ان تفاؤلا لا يشوبه الحذر على هذا النحو لا بد وان ينطوي على قدر كبير من المبالغة، لذلك بادروا الى تأسيس نادي روما الذي قرر العكس تماما، وهو ان الفائض المشار اليه يقاس بمعدلات الاستهلاك الجنونية في الغرب. واذا استمر الحال على ذلك المنوال، فالارجح ان آبار النفط في العالم سوف تنضب مع بداية العام الفين، ومن

هنا كان شعار هذا النادي هو «لو لم تكن منظمة الاوبيك قائمة لاوجدناها » لانها صمام الامن النفطي للعالم.

اين الجنون في الاستهلاك الغربي للنفط؟ هيا الى الاحصائيات التي لا تقبل الشك والتأويل: منذ نصف قرن تماما كان العالم يستخرج ٧٥ في المائة من الطاقة التي يستهلكها، من الفحم الحجري، ١٦ في المائة فقط من النفط. أما الان فقد اصبح يستنفذ ٦٦,٥ في المائة من النفط. وكانت الولايات المتحدة تستورد حوالي نصف احتياجاتها النفطية من الخارج مقابل ٤٢ مليار دولار تكاليف هذا الاستيراد، اما الان ومنذ عامين فهي تدفع ٨٠ مليار دولار، ما يساوي نصف موازنتها العسكرية. وبين ١٩٦٠ و١٩٧٧ وصل الجشع النفطي للغرب الى حد زيادة استهلاك الطاقة بمعدل ١٦٠ في المائة. وحتى نهاية الستينات لم تكن اميركا تستورد النفط، اما في العقد السابع من هذا القرن فهي تستورد اكثر من نصف حاجياتها وثلثا هذه الكمية الكبيرة تستوردها من الشرق الاوسط. ولا تستودع في آبارها اكثر من ٢٨ مليار برميل اي ما يوازي تسع سنوات فقط من استهلاكها الراهن.

ويعترف شرايبر ان ما اقدمت عليه الثورة في ليبيا والجزائر والعراق في اواخر الستينات وبداية السبعينات من تغيرات في المعادلة التبادلية بين الانتاج العربي والاستهلاك الغربي كان الدقة الاولى لساعة المأزق (لنلاحظ ان عنوان القسم الاول من الكتاب هو: دقت الساعة). وقد جاءت الدقة الثانية مع الخطر النفطي في حرب ١٩٧٣، فأصبحت هناك نقطة تقاطع بين الدول المحافظة والدول الراديكالية يمكن تسميتها بصراع الشرق الاوسط او القضية الفلسطينية.

وهو هنا يحكي كثيراً من القصص التي يعوزها البرهان، سواء في اتصالاته السعودية او معلوماته الاميركية القائلة مثلا بان الملك فيصل كان يعلم بخطوات السادات، وانه بعث بتحذير مبطن عبر وزيره احمد زكي

الياني الى واشنطن. وكان رأي كسينجر: ليكن. ليكن مرتين. مرة تحل فيها قضية الشرق الاوسط للابد، فلا ينبغي لاسرائيل ان تهزم او تنتصر. ومرة للاعتراف النفطي ـ السياسي للعرب حتى يجلسوا على موائد المفاوضات في المحافل الدولية بكل الثقة والاعتداد بالنفس، دون ان يكون ذلك على حساب الغرب، بل لحسابه.

.. وقصص اخرى كثيرة مؤداها ان اتفاقية سيناء الثانية بين مصر واسرائيل واتفاقية الجزائر بين العراق / وايران والحرب اللبنانية (كلها عام ١٩٧٥) كانت في واقع الامر ـ ودون الدخول في التفاصيل ـ اتفاقيات النفط والممرات الاستراتيجية، بمعنى ضمان عدم تكرار خطر ١٩٧٣ الذي ادى دورا مزدوجا: ايجابيا بالمساهمة في فتح طريق السلام بين مصر واسرائيل، وسلبيا بارتفاع الاسعار. وكان عام ١٩٧٧ وبعده ١٩٧٩ مرحلة «الأمل» الغربي الشامل في تجاوز المأزق للنهاية بزيارة السادات للقدس المحتلة، واتفاقيات كامب دايفيد وتعطيل الوظيفة اللبنانية في الحياة العربية، لمصلحة اسرائيل.

وكانت هناك مفاجآت تسببت فيها القيادات الهزيلة للولايات المتحدة، سواء في البيت الابيض أو وزارة الخارجية، وسواء كان السبب الطموح الشخصي المجنون لهنري كيسنجر أو كان السبب الطموح الانتخابي الصغير للرئيس كارتر.. فالأهم أن دولاً عربية لا يستهان بها رفضت الأنضواء تحت لحاف كامب دايفيد، وأن ثورة أسطورية خلعت ضلعا اساسيا في المعادلة هو شاه ايران. ومن اثيوبيا إلى افغانستان انتصب الشبح السوفياتي يلقي ظلاله على الخليج.

هنا، كان البعض ـ يقول شرايبر ـ يعالج مسائل استراتيجية بمنظار تكتيكي، ويعالج قضايا تكتيكية بمنظور استراتيجي، أي أنهم بالضبط استخدموا الأداة المناسبة في غير مكانها وغير زمانها... فالاستقرار الذي نحتاجه هنا والآن جعلوه اضطرابا، والاضطراب الذي توقعناه في مكان

آخر وزمن مختلف جعلوا منه استقرارا. اختلط كل شيء لدرجة « الفوضى المخيفة » لسبب بسيط، أن البعض - لا يسميه المؤلف ولكنه يقصد اميركا - لا زال يظن أنه اللاعب الوحيد في الحلبة.

لذلك تأسس « فريق باريس » في صيف ١٩٧٩ بمبادرة طموح من شرايبر والوزير الالماني كارل شيلر والمحامي اليهودي الاشهر صموئيل بيزار، وشارك في « الفريق » اعضاء عرب ويابانيون، تحددت توجهاتهم على النحو التالي:

١ - منذ ثلاثين عاماً يسيطر الصراع الخفي حينا والمعلن احيانا بين الشرق والغرب، وقد خابت كل المحاولات التي اتخذت لها عنوان الحوار بين الشمال والجنوب أو بين العرب وأوروبا، لأن نقطتي الانطلاق متباعدتان. الامر الذي حال دون تفجير الطاقات الخلاقة لابتكار وسائل جديدة نحو « نهضة عالمية جديدة ».

٢ - سباق التسلح افقد الفقراء قدرتهم على النمو، وافقد الاغنياء قدرتهم على الرؤية البعيدة، فكان الاستهلاك الوحشي المزدوج للطاقة دون أي غنى حقيقي لأيّ من الطرفين.

٣ - لم ينته « التحدي الامريكي » بعد، ولكن أميركا لم تعد قطبا واحداً أو مشاركا في القوة العالمية الفعلية، فقد تعددت الاقطاب عمليا دون الاعتراف الفعلي بهذا التعدد، مما يجعل الطريق مسدوداً أمام أي حوار خلاق.

٤ - النتيجة الحاسمة لذلك هي الدوران في حلقة مفرغة، أي العجز الكامل أمام المصادفات والمفاجآت، ومن ثم الدمار... فالحقيقة انه ليست هناك مصادفات ولا مفاجآت، بل تراكمات لوقائع فعلية ومعلومات قد تكون بعيدة عن العيون، ولكنها ليست بعيدة عن الفعالية.

هذا هو البيان الأول لفريق باريس، الذي عقد عدة حلقات دراسية في

زيورخ وطوكيو عام ١٩٧٩ وفي نيودلهي والجزائر عام ١٩٨٠. ثم قام اعضاء من الفريق بزيارة الكويت والسعودية لاستكمال الاستطلاع. وفي مارس ـ اذار ١٩٨٠ عقد الفريق اجتماعا موسعا في باريس اتفق فيه على ايجاد «لغة مشتركة» كارضية للتفاهم والعمل والمواجهة. ويأتي كتاب «التحدي الدولي» كمساهمة اولية في هذا السياق، حيث يقول مؤلفه في الخاتمة «يطمح هذا الكتاب لترسيخ عدة حقائق في مخيلة الرأي العام الدولي، حقائق جديدة غيرت الافق ولم تترسخ بعد في العقول. ان تغيير نظرتنا الى العالم، يرتهن به مستقبل هذا العالم، فعصر النمو المتواصل (في الغرب) قد استمر اكثر من ثلاثين عاما بمواكبة استهلاك جنوني لا يصدق، ومن ثم فهو عصر مرشح تماما للانتهاء. ان التلاشي التدريجي لموارد الطبيعة يفرض علينا حتمية تقسيم المهام، فالعالم المتطور اراد ان يحافظ على تفوقه الخاص باستبعاد العالم المتخلف من المعادلة. وقد باءت هذه المعادلة الظالمة حضاريا واخلاقيا بالفشل الذريع اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا (التضخم ـ البطالة ـ الانتحار. .الى اخره). هذا هو تحدي العالم الثالث لنا، وبعبقريته الخاصة اصبح هو نفسه التحدي الدولي المعاصر: ان نكون جميعا او لا نكون. .»

واذا كان التشخيص لدى شرايبر يفوز بالحجم الاكبر من الكتاب، فانه لا يغفل ملامح الطريق لان نكون جميعا عبر وسيلتين اساسيتين:

● الاولى هي، بدلاً من ان يطلب الغرب ذات مساء طلب انتساب للعالم الثالث، يحسن فتح الابواب امام هذا العالم الكفؤ بموارده وطاقاته، للانتساب الى العالم المتطور.

ولا شك انها كلمات ذات بريق يغشي العيون العربية خصوصا عن مضمونها الذي حدده شرايبر بوضوح تام:

أ ـ ان ادخال العرب والعالم الثالث عموما ـ النادي الغربي للتقدم، يضمن التزامهم بشروط عضوية هذا النادي وانضباط المنتمين اليه.

ومعنى هذا الكلام الجميل هو ادخال العرب ضمن الاستراتيجية الغربية، دون ان يكون لهم الحق في وقف التطور الحاصل فعلا في بلد ما كفرنسا او المانيا، بل عليهم محاولة تطوير انفسهم بالقدر الذي تسمح لهم به ظروفهم في الحاضر والمستقبل، كما هو الموقف الاوروبي من تركيا واليونان واسبانيا والبرتغال

في المقابل، على العرب، ان يلتزموا سلفا بالسياسة الدفاعية والصناعية للغرب. وهو الالتزام الذي يلغي حكما الصراع العربي الاسرائيلي، بابعاد الشبح السوفياتي عن المنطقة نهائيا.. فلا مانع حينئذ من منح الفلسطينيين حكما ذاتيا حقيقيا لا يختلف عن حق تقرير المصير.

ب ـ وشرايبر بذلك، يخدعنا مرتين: الاولى، لانه يعرف سلفا ان التاريخ لا يعود الى الوراء، وبالتالي ففدية التقدم التي يفترضها ويبني معادلته على اساسها، هي فدية وهمية.. فالمستوى الاقتصادي والصناعي للبلدان الحديثة النمو لا يتكافأ كما ونوعا مع المستوى الغربي بحيث يمكن ان يقال ان دخولها النادي الغربي يرادف معنى لحاقها بركب التقدم. وانما يصبح هذا الارتباط المزعوم اغراء معنويا يقصد به الارتباط الآخر الاكثر اهمية، وهو الارتباط الاستراتيجي بالغرب. وهنا يؤكد شرايبر على فكرة الانضباط بمعنى ان بطاقة العضوية الوهمية في النادي الغربي ـ كشأن تركيا التي ذكرها بالاسم ـ تستلزم تنفيذا (وهو لا يستخدم طبعا كلمة الخضوع او التبعية) لكافة الخطط التي تراها الاستراتيجية الغربية. وبالمناسبة، فهو لا يسميها هكذا، بل يدعوها أحيانا، بالاستراتيجية الدولية واحيانا الاستراتيجية الحضارية الجديدة.

جـ ـ وشرايبر الحريص على لغة الارقام لا يشير ولو من بعيد عن وضع الموارد العربية الخام والودائع المصرفية في هذه الحال، وهل سيكون هناك تقسيم جديد للثروة ـ العالمية بنظره ـ على مجموع الاقطار المشاركة في سوق أوروبية جديدة لا يسميها؟ وبدلاً من ذلك، فهو يلجأ الى اللغة

السياسية، فيربط بين هذا التجمع (الانساني) الجديد ـ حيث لا يعود ثمة فرق بين العرب واسرائيل ـ والحل العادل للمشكلة الفلسطينية، وكانه يرمي لنا بعظمة حتى نلهث وراء « مبادرته » غير الشخصية اطلاقا.

● الوسيلة الثانية، هي نقل التكنولوجيا الثقيلة الى العالم الثالث، والعرب في مقدمته، حتى لا يقال ان العرب يحتكر اسرارها ويصدّر مصنوعاتها، بشرط ان تكون الخبرة الغربية الموافقة لعملية التصنيع، وكذلك المصرف الغربي، هما عماد « عملية النقل التكنولوجي »... وكأنه خرج من الباب ليدخل من النافذة بل النوافذ، فالخبراء المدنيون هم بديل جيش الاحتلال، وخطة التنمية ترتبط سلفا بالحركة المصرفية الغربية. وكأنه بدلاً من نقل القطن المصري او الهندي القديم الى مصانع لانكشير، فاننا نحن الاوروبيين من عشاق العالم الثالث وسواد عيونه، سوف ننقل هذه المصانع نفسها الى الاراضي العربية وغيرها، بحيث يعود فائض القيمة الى مصارفنا وتطورنا بطريقة ناعمة، نستحق عليها الشكر ولا نوصف بالاستعمار.

وطبعا، لا يحدد شرايبر وسيلتيه المذكورتين، إلاّ وهو يضع في اعتباره مسلمات جاهزة قابلة في ظنه للبقاء الابدي، كالوجود الاسرائيلي والتجزئة العربية وهي اعتبارات صحيحة لانقاذ الغرب، لا بخلاص العرب.

فالمؤلف لا يتجاهل ان الخريطة العربية ممزقة الاوصال الفكرية والمصالح، ولكنه يستثمر ذلك ـ بما فيها حرب لبنان ـ لانقاذ الغرب.

ولكنه يتجاهل بكل تأكيد، ان المفاجآت التي سبق ان ادان خيره (اميركا) بعدم التحسب لها، قادرة على الظهور دائما (كالثورة الايرانية وكالوحدة السورية الليبية وكالمعاهدة السورية السوفياتية وكالمعارضة المصرية المتناوبة.. الى اخره). كما انه تجاهل بكل تأكيد أن الدول المستقلة حديثاً لا تملك، حتى وان اراد حكامها ذلك، ان تنهج سبل التطور الرأسمالي التقليدي، فلم يعد امامها ـ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى الآن

ـ سوى ان تسلك أحد طريقين لا ثالث لهما: إما التبعية لرأس المال الاحتكاري العالمي، واما الاشتراكية. وفي حالنا نحن العرب بالتحديد نضيف: الوحدة القومية وتحرير فلسطين. لا خلاص لنا بغير ذلك من دون ايديولوجيات أو شعارات، بل لكي نبقى على قيد الوجود الحضاري في العالم.

ولكن شرايبر في الحقيقة لا يقدم أوراق اعتماده لوجودنا الحضاري، بل لبعض الحكام العرب الذين يدركون اكثر من غيرهم ابعاد مبادرته، وقد شاركوه في صياغتها، لانقاذ الغرب لا لانقاذ العرب.

ولا شك أن الغرب في أزمة تاريخية بكل ما يعنيه التعبير من خلال لمعاني. من أقصى الشمال الأمريكي الى الجنوب الغربي للقارة الاوروبية، ومن شرق المتوسط الى غرب البلطيق، يتردى الغرب في مآزق مسدودة لم يعرفها من قبل.

والحقيقة أن كتاب شرايبر يأتي في هذا السياق متجاوزاً الرد الأميركي على تحدي العالم الثالث بمخططات كسينجر وتوهمات نيكسون فيستدعي العبيد للجلوس الى مائدة السادة الذين سيتكلمون منذ الآن اللغة العربية ويعلنون كنابليون وهتلر أنهم من حماة السلام.

بين «جنون» الفيلسوف الماركسي الفرنسي التوسير وخنقه لزوجه رفيقة العمر هيلانة، و«انتحار» الروائي الفرنسي المعروف رومان جاري، عشرة أيام لا ينبغي النظر اليها كما لو كانت اياما فرنسية فقط.

وصحيح، أننا نتذكر خلال عام واحد، انتحار وزير العمل الفرنسي، وانتحار اكثر من مفكر وفنانة من المع نجوم فرنسا. غير ان «جريمة» التوسير و«جنونه» من ناحية، وانتحار جاري من ناحية اخرى، هما الميزان الحساس لهذه الفترة من «أيام الغرب» كما احب ان ادعوها.. لا أياما فرنسية كما دعاها الاخرون.

ذلك أن الوضع الفرنسي الاقل تأزما بكثير من الوضع الامريكي أو البريطاني، هو الاكثر صراخا بالمأساة، لان الطبيعة الحضارية الفرنسية ذاتها اكثر حساسية وعاطفية وشجاعة.

والرمز في جنون التوسير وانتحار جاري هذا الاسبوع لا يحتاج الى ايضاح.. فالعقل الماركسي الاكبر في فرنسا والغرب باكمله، لم يعد قادرا على اقامة توازن داخلي بين ما يراه وما يشعر به. ومعنى ذلك ببساطة ان ما يجري خارج هذا العقل يفوق القدرة على التصور والاحتمال معا.

كذلك فإن انتحار الروائي المتوسط (يشبه في ادبنا العربي محمد عبد الحليم عبد الله) وقد بلغ من العمر ستا وستين سنة، يعني في الصميم ان العقلانية المبسطة الاقرب الى السذاجة، مسوغة الواقع الخارجي البراغماتية «النفعية» دائما، لم تعد بدورها قادرة على التكيف مع هذا الواقع لدرجة تفضيل العدم.

التوسير هو العقل الغربي في ابهى ذراه، وجاري هو القلب الرومانسي في اوج العاطفة، كلاهما يغادر «العالم الغربي» دون اسف.

لذلك حين يلجأ السياسي ريتشارد نيكسون في امريكا، أو شرايبر في فرنسا الى التنظير للطريق المسدود امام الغرب، والتفكير في سبل فتحه، علينا نحن العرب ان نستمع جيدا الى «اصوات المأساة الغربية» المعاصرة.. لا من قبيل التعزية الشعبية القائلة بأن من عرف بلاء الاخرين هان عليه بلاؤه، بل لان مآسي الغرب في ظل نظامه الاقتصادي الراهن، كانت وستظل مرشحة للتصدير الينا بصورة او بأخرى. ولان الصورة المزدهرة للمأساة في الاعلام الغربي عكسية تماما، فالشائع هو ان الابتزاز النفطي من جانب العرب هو السبب الرئيسي والحاسم في ارتفاع الاسعار والتضخم والبطالة وبقية الأمراض الغربية المزمنة.

لذلك كانت قراءة الواقع الغربي تهمنا مرتين: الاولى، لمعرفة «البضائع»

التي يقومون وسيقومون بتصديرها الينا، اقصد بضائعهم المأساوية. وهي بالقطع ليست الانتحار ولا الجنون فهذه السلع متوفرة لدينا لاسباب مختلفة، هم انفسهم احد هذه الاسباب وانما اقصد التضخم والبطالة والعجز في ميزان المدفوعات، بالاضافة الى الحروب والتخلف وهجرة الادمغة وغير ذلك.

والسبب الثاني هو ان نتأكد من ان نفط بعض دولنا الغنية وأموالها وما تسميه هذه الدول بالمساهمة في استقرار الاقتصاد العالمي، ليس معترفا به على الاطلاق، بل الشائع هو العكس. ولذلك لا ينبغي ان تنتظر وتتوهم وتدعونا للانتظار والتوهم بان هذه المساهمة من شأنها ان تعود الينا بمردود سياسي في صراع الشرق الاوسط.

★★★

ما هي حقيقة الوضع في الغرب اذن؟ وهل لنا ان نختار «اعظم» دول الغرب قاطبة ـ وهي الولايات المتحدة الامريكية ـ كأنموذج، طالما نرى في جنون «التوسير» وانتحار «جاري» مجرد «دقة ناقوس فرنسي» يحذر لا فرنسا وحدها، بل الغرب كله؟

وهل لنا ان نعتمد من الحقائق والوقائع والمعلومات، ما يفيض بها الاعلام الغربي نفسه، وفي مقدمته الاعلام الامريكي؟

● لنبدأ اذن بأبسط الاحوال الاجتماعية في امريكا، وهي العلاقة الزوجية، فعالم الاجتماع الامريكي برنارد فريدين لاحظ ان الاميركيين لا يميلون الى الزواج في السنوات الاخيرة. وفي دراسة استغرق اعدادها حوالي ستة اشهر يفسر ذلك بقوله: كان الرجل الامريكي في السابق يرغب في الزواج من امرأة لها دخل شهري محدود فيستطيع شراء منزل متوسط يضمه مع عائلته الجديدة «لكن مع غلاء المعيشة يحتاج الى ثلاث نساء مرة واحدة حتى يحقق هذا الهدف». وينتهي فريدين من ذلك الى تبرير ازدياد

حالات الطلاق في المقابل، حيث يؤدي الشجار اليومي حول الاقساط الشهرية الى الانفصال. اما الغضب الشخصي والخيانة الزوجية «فهي حالات مقبولة عند الرجل الامريكي اذا كان مرتاح البال من ناحية المنزل والدفعات المتراكمة عليه».

وكانت دراسة اخرى نشرت في نيويورك قد ذكرت ان نسبة ارتفاع حالات الطلاق قد زادت بمعدل ٣٠ في المائة عنها في السابق، وان نصف الذين يتخذون هذا القرار هم الذين مضى على زواجهم اكثر من خمس سنوات، وان هناك ٢ في المائة من الذين يتزوجون وينجبون ويطلقون في العام نفسه.

● لنتوسع قليلا في الظواهر الاكثر تركيباً وأنموذجية، فالحلقة الدراسية التي عقدتها جامعة تكساس العام الماضي عن «الجنوب الامريكي» تذكر حرفيا الحقائق التالية:

١ ـ ان هناك ولايات كاملة لا يعرف ابناؤها وبناتها (حتى ١٨ سنة) اي شيء عن تاريخ امريكا الشمالية وجغرافيتها، وان ٨٥ في المائة من الاطفال لا يدخلون المدارس اصلا، وان مستوى المعيشة للاسرة الواحدة لا يزيد عن ستين دولارا في العام.

٢ ـ ان خمسة وعشرين مليونا من مواطني هذه الولايات يعيشون الى اليوم في حالة بدائية كأسوأ مجتمعات افريقيا السوداء، فالدولة غائبة تماماً، وبالتالي الخدمات الصحية والثقافية، وكأنهم في جزر مهجورة منقطعة الصلة بالعالم.

٣ ـ إن جرائم العدوان العنصري من البيض ضد الملونين تقيد ضد مجهول او لا تقيد على الاطلاق في اغلب الاحوال، وهما في تزايد مستمر لا يسمح حتى بالتجاور في الاسواق فضلا عن الكنائس.

اذا تجاوزنا «الأنموذج الجنوبي» البالغ الانحطاط والتخلف، نلحظ في

تقرير « ندوة هارفارد » المعقودة عام ١٩٧٨ أن المدن الامريكية الرئيسية - وفي مقدمتها نيويورك لا شيكاغو - قد تحولت الى غابات حقيقية، بحيث لم يعد ممكنا التجول الحر للمواطنين او الاجانب بعد الثامنة مساء. وان عصابات « المافيا » بلغت من دقة التنظيم والتسليح ما لا يقل عن دقة اجهزة الامن الرسمية واحيانا تفوقها. وان الجرائم غير المعلنة تصل نسبتها الى ٧٠ في المائة، تحاط بالكتمان الشديد حتى لا ينتشر الذعر بين المواطنين. وليس القتل من اجل المال وحده، بل ان مجموعات نازية تباشر العمل السياسي العلني. واضحى كل احتكار صناعي او مالي له قواته الامنية الخاصة التي لا تثق في امن الدولة. إن المال والجنس والدين والسياسة والعنصرية هي المحاور الخمسة للاغتيال الفردي والقتل الجماعي والانتحار والجنون في امريكا.

● بدأت الكتابات الاقتصادية تغزو اسواق النشر الامريكية اكثر من اي وقت مضى، ويستهلها المؤلفون بذكرى ٢٤ اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٢٩ وكان يوم الخميس الذي انهارت فيه بورصة نيويورك، وخسرت الاسهم ملايين الدولارات من قيمتها الورقية في ايام قليلة، فأفلس الالوف وانتحر المئات وتعطل الملايين. وبقيت الازمة التاريخية للرأسمالية الاميركية حتى عام ١٩٣٣ حين بلغ عدد العاطلين عن العمل ١٣ مليونا اي بنسبة ٢٠ في المائة ذلك الوقت وحتى عام ١٩٤٠ لم يهبط عدد العاطلين دون الثمانية ملايين.

بهذه المعلومات تستعيد الذاكرة الاميركية كارثة الكوارث التي وقعت منذ نصف قرن، ولكنها الان تطل برأسها من جديد على نحو اكثر بشاعة، فافلاس الشركات الكبرى والتضخم والبطالة من « الظواهر الحادة » في الاقتصاد الامريكي خلال السنوات الخمسة عشرة الاخيرة. هنا يجب ان نذكر عن تقرير الامم المتحدة للتجارة والتنمية (١٩٨٠) حول مساعدات الدول المصدرة للبترول ان حساب الفائض النقدي لهذه الدول قد وصل الى

اربعين مليار من الدولارات معظمها اسهم وسندات في المصارف الغربية و « الصناديق » الدولية. ومعنى ذلك ان اية هزات عنيفة لبورصة نيويورك لن تدفع المساهمين الغربيين وحدهم الى الانتحار. فضلا عن ان هذه الاموال السائلة لا تصب في خزائن « تنمية العالم الثالث » بل التطور الصناعي الغربي، الذي يقوم بتصدير الغلاء والتضخم والبطالة والعجز في ميزان المدفوعات الى « العالم الثالث » ليقوم بتسديد الفاتورة.

● في هذ السياق ياتي كتاب « المرض الامريكي » Le Mal Americain لمؤلفه الفرنسي ميشيل كروزييه (وقد صدر مؤخرا في باريس عن الناشر فايار). ومن المفيد القول بأن هذا الكاتب ليس خصما على اي نحو لامريكا، بل هو يسجل « اسفه الشديد » على ما آلت اليه الامور « هناك ». لقد امضى خمسة عشر شهرا بين عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ طالبا في الولايات المتحدة غداة الحرب الثانية. ثم قام بزيارتها عدة مرات في الخمسينات والستينات وكانت اخر زياراته لاميركا ربيع ١٩٧٩ حيث عاد ليتساءل « ماذا جرى؟ كيف وقع هذا التغيير المفاجيء؟ كيف يغرق بلد بلغ الثراء المادي والفكري والاخلاقي في حمأة هذه الفوضى المروعة؟ وفي كتابه المثير يحاول الجواب على النحو التالي:

١ ـ « أمريكا الستينات بلغت من الغرور حداً تصورت معه انها ملكت مفتاح الحقيقة المطلقة، فلم تعد بحاجة الى الجديد او التجديد. نسيت تماماً ونهائياً ان ما تملكه ليس اكثر من احدى جزئيات الحقيقة؛ وان الحقيقة الكلية والمطلقة ليست بمتناول احد او بلد او حقبة من التاريخ. ولكنها قدست الحقيقة الجزئية النسبية وحولتها الى فكرة جنونية ».

٢ ـ « كانت امريكا في بداية الستينات اقوى دولة في العالم وفي التاريخ، رمزا ديناميكيا للحرية والديمقراطية وبعد اقل من عشرين عاماً ـ اي في العام ١٩٨٠ راحت هيبتها تتلقى الصفعات من كل جانب واضحت رمزا للامبريالية والاستعمار الجديد، وتخلفت عسكريا عن الاتحاد

السوفييتي واقتصادياً عن اليابان.. ان الموازنة العسكرية قد حطمت التوازن النقدي الدولي، وخلخلت ركائز الاقتصاد الاميركي التي كانت ثابتة، واضافت ازمة اخلاقية عميقة داخل الضمير الاميركي العام».

٣ - «كان جونسون مصابا بجنون العظمة، واقتنع بانه اقوى رجل في العالم، وانه يستطيع شراء فيتنام كما اشترى مساعديه في واشنطن، باعتبار الدولار سيد الاحكام هناك.. لا في كل مكان» و «كان نيكسون اكبر مدلس في تاريخ الرئاسة الاميركية وكانت ووترغيت عنواناً كبيراً للانحطاط».

٤ - «قد تنسى امريكا فيتنام يوماً، ولكنها لن تعود كما كانت ابدا.. امست رازحة تحت عبء الحلم الاستعماري الذي تحاول فرضه على الاخرين لم تصح بعد على ان العالم يتغير، حتى ولو لم تتغير هي وان موجة تحقيق الذات في العالم النامي لن تتوقف عند الحد... الامريكي».

هذا كلام مؤلف فرنسي صديق للولايات المتحدة. وهو ليس كلاماً معلقا برقاب الرؤساء الاميركيين وحدهم، بل بالهوية الاجتماعية للشعب الاميركي نفسه. وهو ما تؤكده مؤسسة «لويس هاريس» الاميركية في احدث استطلاع قامت به في صفوف ١٥٠٦ مواطنين اميركيين بالغين، واستطلاع اخر اشترك فيه ١٠٣٠ يهودي امريكي بلغ في كافة ارجاء الولايات المتحدة.

والاستطلاعان كلاهما حول «موقف امريكا من اسرائيل وازمة الشرق الاوسط». واهمية النتائج تنبع في رأيي من عاملين: الاول، انه ينسف بضراوة حجة العرب القائلين بان «المساهمات المالية» في الاقتصاد الدولي (اي الغربي) من شأنها ان تكسب مردودا سياسيا لحساب القضية الفلسطينية.

والعامل الثاني هو مبالغة بعضنا في تقييم وتقويم ما يسمى بالرأي العام العالمي .

وقد جرى الاستطلاع بناء على طلب شخصي من ادجار برونغمان مدير شركة سيغرام الذي يشغل ايضا منصب « مدير بالوكالـة للكـــونغـــرس اليهودي العالمي » . وهذه هي النتائج :

١ ـ في عام ١٩٧٦ كان ٢ في المائة يرون في مصر حليفا و ٣٣ في المائة يرونها دولة صديقة و ٦ في المائة عدوة . اما الان فان ١٥ في المائة يرونها حليفا و ٥٨ في المائة صديقة و ١٥ في المائة لا يرونها كذلك و ٢ في المائة عدوة . (هنا يجب ان نفهم ان المقصود بمصر هو النظام المصري ، وان سبب التحول هو اقتراب هذا النظام من الكيان الصهيوني) .

٢ ـ في العام ١٩٧٦ كانت نسبة المؤيدين لاسرائيل هي ٧٤ في المائة وقد اصبحت الان ٨١ في المائة .

٣ ـ في المقابل هناك ٤١ في المائة لا يرون في سورية دولة صديقة ، و ٤٠ في المائة لا يعرفون شيئا عنها ، و ٤٠ في المائة يرون في ليبيا دولة غير صديقة .

٤ ـ هناك ايضا ٦٧ في المائة يرفضون القول بان اسرائيل تستطيع السيطرة على الكونغرس الامريكي ، و ٥٥ في المائة ترفض ان تتنازل اسرائيل عن المناطق المحتلة في حرب ١٩٦٧ .

٥ ـ هناك ٨٦ في المائة يعرفون السادات بارتفاع قدره ٥٥ في المائة عن العام ١٩٧٥ وهو معروف لدى ٩٧ في المائة من الجالية اليهودية ، ويثق فيه ٥٤ في المائة من الامريكيين ومن اليهود الامريكيين على السواء ، وذلك بارتفاع قدره ٦٣ في المائة عن العام ١٩٧٥ . كذلك الامر بالنسبة لمناحيم بيغن ، فهناك ٦٩ في المائة يؤيدونه من الامريكيين و ٨٣ في المائة من اليهود الامريكيين .

٦ ـ هناك ٨٥ في المائة من الامريكيين يعرفون ياسر عرفات، و ٩٣ في المائة من اليهود الامريكيين يعرفونه ايضا، ولكنه يتمتع بثقة ٩ في المائة فقط من الامريكيين ولا يحوز على ثقة ٦٤ في المائة. واستطرادا فان ٦٥ في المائة يقفون الى جانب اسرائيل بزيادة قدرها عشرة في المائة عن العام الماضي.

٧ ـ بالنسبة للمبادرة الاوروبية هناك ١٣ في المائة يؤيدونها، و ٥٦ في المائة يتبنون وجهة النظر الامريكية.

وهكذا، وأيا كانت التحفظات على مؤسسات الرأي في امريكا بل اياً كانت التحفظات على مدى التطابق بين هذه الاستطلاعات والواقع، فانها في خاتمة المطاف مؤشر هام يقول بأفصح بيان: إن العرب بأموالهم ونفطهم لم يربحوا الرأي العام الاميركي، وان السادات بخضوعه واستسلامه اضاف الى الرصيد الاسرائيلي ولم ينقص منه.

★★★

والخلاصة؟.

هي ان الغرب يعاني أزمة حضارية شاملة، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وهو يرد الجميل العربي بالانحياز السياسي والعسكري أكثر فأكثر الى جانب أعداء العرب، لانه ببساطة ينحاز لنفسه ومستقبله. وهو يرد الجميل ايضا باتهام العرب انفسهم انهم السبب في «مأساة الغرب» ذرا للرماد في العيون العربية حتى لا ترى الخطر قادما اليها وبالتحديد من اي الجهات.

وحين ننظر حولنا ونجد النيران تحاصرنا من كل جانب، يجب ان نتذكر مصدر الخطر. وهو الرياح الغربية القادمة أصلا من امريكا... حتى ولو أحرقت في طريقها عقلا فرنسيا عظيما لالتوسير أو قلبا فرنسيا حاراً لرومان جاري.

٤ ـ حرب أم سلام . . والليل ينادي الشروق

من مظاهر التخلف العربي المرير هذه الفوضى المخيفة في اسواق النشر الثقافي . واذكر انني على مدى السنوات الثلاث الماضية قرأت ثلاث ترجمات لكتاب واحد هو « الاسلام في عظمته الاولى » للمفكر الفرنسي موريس لومبار . كما اذكر انني قرأت كتاباً واحداً لمؤلف واحد بعنوانين على الغلاف مختلفين اشد الاختلاف .

وربما تسجل هذه الوقائع في باب الفضائح التي لا يقرها احد . ولكن ما القول في ان تخطيطا قومياً شاملا على مستوى التربية والتعليم والثقافة لم يظهر بعد حتى كحكم او كمحاولة ؟ ليس ذلك فضيحة ، بل هو فعل ثقافي ـ اجتماعي ـ سياسي ، من شأنه : تكريس التجزئة القطرية الى ثقافات عربية من ناحية ، وانعدام التكوين العقلي المنظم من ناحية اخرى .

اقول ذلك ، لاني اتحسر على حالنا ، حين ارى الغرب ـ من وجهة نظر براجماتيه تماماً ـ ينسق الادوار الثقافية ، السياسية بين اقطاره ومؤسساته تنسيقاً مذهلا في الدقة والفعالية ، مما لا يفيد التكوين العقلي لابنائه فقط ، بل ويحقق الاهداف السياسية لاستراتيجيته ايضاً .

ان الجامعات هناك تحدد سلفاً باسلوب لا يشعر به الطالب مطلقاً ، ماذا تريد منه ، بل تحدد اي طلاب تريد في اطار الخطة العامة للدولة وفي اطار الخطة الاشمل للسوق الاوروبية المشتركة . انها تستحدث من القرارات والاجراءات « القانونية » ما يدفع بها « لتعليم » طلاب بعينهم دون آخرين لن يشعروا بالاضطهاد بل هم « غير مقبولين قانونياً » .

كما انها تستحدث من البرامج والمناهج واساليب التربية ما يدفع المقبولين الى النجاح او الفشل في تحقيق ما يتصورونه ببراءة طموحاتهم الشخصية ، وهي ليست اكثر من خطط التنمية في هذه الدولة او تلك او القارة باكملها واحيانا العالم الخارجي .

هكذا يأتي مثلاً التضييق على الطلاب الاجانب جنباً الى جنب مع التضييق على العلوم الانسانية ذاتها في جامعات الغرب. وما أيسر استصدار القوانين التي تبرر ذلك وتنسق بينه في نطاق التطور الصناعي والازمة الاقتصادية.

مراكز الابحاث العلمية كالجامعات، فهي تختار من تريد وتملي عليه ما تريد دون ان يخالجه الشعور لحظة واحدة بالاضطرار، بل هو يشعر دائماً بالاختيار الحر الطليق من كل قيد. ولكنها قيود لا ترى. فمراكز الابحاث تمولها الشركات الكبرى والاحتكارات المتعددة الجنسية، واحياناً (ام غالباً؟) اجهزة الامن العالمية. ولكن الباحث لا يرى سوى البحث، ولا علاقة له كما يظن بالمكان الذي ستصب فيه المعلومات او الوثائق او التحليل او النتائج المعملية اذا كان باحثاً في العلوم الطبيعية.

هكذا تأتي خطة تهجير الادمغة من العالم المتخلف حيث يجد (العالم الوطني) حين يعود الى وطنه من هول الحنين ان لامكان له فيغلق حقائبه من جديد عائداً الى الغرب ليصبح (ترساً) في الالة المجهزة بكل ما يريده بدءا من ادوات المختبر وانتهاء بالمرتب والتقدير المعنوي.

وهكذا ايضاً يتم اختيار «الباحثين» في العلوم السياسية الذين يمكن الاعتماد عليهم في المستقبل حين يعودون «نجوماً على قمم السلطة».

اما خارج نطاق هذه الخطة او تلك فلا مجال لطالب او باحث وطني يبذل الجهد لكي يكون المردود الاقتصادي او العلمي او الثقافي لبلاده .... لا للغرب.

ودور النشر هي الاخرى مهما بدت قطاعاً خاصاً كاجهزة الاذاعة المرئية والمسموعة، فانها في خاتمة المطاف جزء لا ينفصل عن الجسد الثقافي الغربي العام: لكل منها دوره المحدد، حتى عندما تنشر كتباً ثورية او تترجم للاجانب مثلنا، وهو دور لا يجوز فيه التكرار بل التنسيق لدرجة

ان الكتاب الانجليزي يطبع في وقت واحد مع الترجمة الفرنسية. ولكن الترجمة لا تتكرر في البلد الواحد، بل طبعاتها هي التي تتكرر في اللغة الواحدة كلما نفذت الطبعة.

وليس هذا هو المهم، فالاهم هو التنسيق في معالجة القضايا المختلفة واشكال هذه المعالجة، فربما تلجأ جامعة لندن الى صيغة المؤتمر بينما يلجأ المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي الى صيغة الكتاب، ونتصور جميعاً انها « جهود ديموقراطية مستقلة عن بعضها البعض » والامر ليس كذلك على الاطلاق.

اقول ذلك كله لأوكد على جملة حقائق تعرفنا الى بعضها في كتاب نيكسون « الحرب الحقيقية » ثم كتاب شرايبر « التحدي الدولي » ثم كتاب « المرض الاميركي »: وهي ان الكتاب الغربي لم يعد ابداعا فردياً خالصاً لا من زاوية التأليف ولا من زاوية التسويق بل اصبح « عملية سياسية كاملة » توجهها مؤسسات دولية كبرى لتحقق هدفاً مباشراً او خطوة استراتيجية.

وفي هذا السياق، كنت قد عزمت ان اخصص هذ الاسبوع لاستكمال الرؤيا بكتاب فرنسي صدر منذ شهر. ولكنني ما أن قرأته حتى تذكرت كتابا آخر بالانجليزية صدر منذ عامين.

على صعيد الشكل يختلف الكتابان اختلافاً كلياً.... فكتاب « حرب ام سلام في الشرق الاوسط » War or peace in the Middle East? صدر عام ١٩٧٨ عن الناشر سبوكسمان Spokes Man التابع لمؤسسة برتراند راسل في لندن ويتكون من سبعة فصول جمعها بيجي داف لستة مفكرين وسياسيين غيره (١٩٧ صفحة).

اما الكتاب الثاني « الليل ينادي الشروق - حوار شرقي غربي حول الازمـــــة المعـــــاصرة » la nuit appelle l'aurore - dialogue orient - occident sur la crise contemporaine.

فقد صدر في الأول من اوكتوبر (تشرين الأول) ١٩٨٠ عن دار

فلاماريو flammarion في باريس، وهو عبارة عن حوار طويل جداً (٣٤٩ صفحة من القطع الكبير) بين استاذ فرنسي من الاكاديمية الفرنسية، وآخر ياباني رئيس اكبر مؤسسات التعليم والنشر في اليابان.

هما اذن كتابان يختلفان شكلاً منذ البدء. وهما ايضاً يختلفان في الموضوع، فقضية الكتاب الانكليزي واضحة ومحددة وحاسمة هي صراع الشرق الاوسط من وجهات نظر سبع اذا اخذنا بعدد الكتاب. اما الكتاب الفرنسي، فهو يتناول عشرات القضايا الفكرية والاقتصادية والحضارية التي تخص الشرق والغرب والشمال والجنوب.

فأية علاقة يمكن ان تقوم بين كتابين مختلفين شكلاً وموضوعاً؟

لنتصفح اذن الكتاب الاول.

يجب الاشارة اولاً الى ان مؤسسة برتراند راسل التي صدر عنها تسمى « الاتحاد الدولي لنزع السلاح والسلام ».

والناشر يقول على ظهر الغلاف ان الكتاب تحليل لطبيعة «الممر الخطر في الشرق الاوسط، والذي لا يمكن عبوره ب « سلام » دون الاعتراف بحق تقرير المصير للفلسطنيين ومن ثم انشاء الدولة الفلسطينية. بغير ذلك « تكون الحرب الدموية الجديدة ممكنة ».

المقال الاول في الكتاب للبروفيسور ن. تشومسكي noam chomsky استاذ اللغويات والناقد الامريكي المعروف بمؤلفاته العديدة عن الحرب. له كتاب بعنوان « السلام في الشرق الاوسط؟ » صدر عام ١٩٦٩ والجزء الاول من مقاله الحالي سبق نشره في مجلة « سياسات جديدة » New Politics (المجلد ١١ رقم ٣ شتاء ١٩٧٦). ومعنى ذلك ان هذا الجزء يسبق زيارة الرئيس المصري الى القدس المحتلة بحوالي عام، وان الجزء الجديد يسبق ايضاً التوقيع المصري المنفرد على معاهدة الصلح مع اسرائيل. اشير بذلك الى انه لم تكن قد توافرت للكاتب في الحالين ابعاد المتغيرات السياسية الطارئة على صراع الشرق الاوسط.

والمقال بعد ذلك، متابعة ذكية ودقيقة لما دار ويدور في الشرق الأوسط منذ حرب تشرين الاول ١٩٧٣ . ثم يستخلص الكاتب عدة مقولات يمكن ايجازها على النحو التالي :

● الطاقة التي تهم غرب اوروبا واليابان في المقام الاول، والولايات المتحدة في المقام الثاني. والطريقة المثلى في التفكير الاميركي لتأمين نفط الحلفاء الغربيين هي «اشاعة الاستقرار في المنطقة» اي السلام. ولكنه السلام الذي ينطلق من الاعتراف العربي الشامل بحق اسرائيل في الوجود الامني والطبيعي. اي الذي لا يعتمد على مراوغات البنود القانونية في اتفاقيات للصلح مع الحكومات، بل على تفاعلات واقعية على الصعيد الشعبي بين العرب واليهود، ان الحروب مهما خسرها العرب، لم تؤد بالقطع الى تأمين النفط، بل زادت في اسعاره ودفعت بالتضخم والبطالة والعجز في ميزان المدفوعات الغربي الى ارقام خيالية.

● الامن الاستراتيجي للولايات المتحدة الذي يعنيها في المقام الاول ويهم الغرب عامة في المقام الثاني، لا كممرات ملاحية دولية فقط بل كمواقع عسكرية ايضاً تحول دون الهيمنة السوفيتية او في الاقل تعرقل اية احلام استراتيجية للسوفييتية ومن ناحية اخرى تزيد الحصار حول الامن السوفييتي، وتفكك مفاصل النقاط الاستراتيجية التي احرزها في افريقيا والقرن الافريقي.

● ان حماية المشروع الصهيوني في اقامة دولة يهودية وضمان بقائها امر لا يهم غرب اوروبا والولايات المتحدة وحدهما، بل هو شأن دولي يرى من وجهات نظر مختلفة -عن حق او عن غير حق - ان هناك قومية يهودية تهددت بالدمار الشامل اكثر من مرة اقربها الحرب العالمية الثانية،وان الدولة العبرية وحدها هي الضمان الممكن للشعب اليهودي ضدالانقراض.

ويرى تشومسكي في هذه المقولات الثلاث اسساً ثابتة في التفكير الغربي، والاميركي بوجه خاص لا سبيل لتجاهلها او تجاوزها في طريق

البحث عن حل والحل عنده هو اقامة الدولة الفلسطينية في ظل سلام شامل ودائم في المنطقة كلها، والآ فالحرب الجديدة قادمة لا ريب، بل ان الحروب قادمة لا ريب، فحين لا يكون هناك سلام حقيقي لا يعود لحالة اللاسلم واللاحرب الا هامش ضيق سرعان ما يتفجر في ميدان القتال اللانهائي.

والمقال الثاني كتبه اللورد كارادون الدبلوماسي البريطاني الشهير بصياغته لقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ عام ١٩٦٧ غداة الحرب. ولكن القليلين هم الذين يعرفون ان اللورد كارادون قد عمل فور انتهائه من الدراسة بجامعة كامبردج عام ١٩٢٩ ضابطا اداريا ملحقاً بحكومة فلسطين بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٧. ومنذ ١٩٣٩ الى ١٩٤٢ كان عضوا في البعثة العسكرية بالاردن. وبين عامي ١٩٤٣ و١٩٦٠ شغل عدة مناصب في قبرص وجامايكا ونيجيريا. وبين ١٩٦٠ و١٩٦١ كان سفيرا ومستشاراً للبعثة البريطانية في الامم المتحدة. ثم كان وزيراً للدولة للشؤون الخارجية والكومونولث، فممثلا لبريطانيا في الامم المتحدة من ١٩٦٣ الى ١٩٧٠ حين تفرغ للكتابة عن مشاكل الشرق الاوسط الذي قام بزيارة دوله اكثر من مرة.

وهو يبدأ مقاله، كما لو كان استطراداً لمقال تشومسكي فيقول: «تحتاج اسرائيل الى الامن. هذا صحيح وطبيعي. وايا كانت تحفظات الفلسطينيين التاريخية وعدالة منطقهم وفيه الكثير من العدل، فان حلا عادلا لا يمكن ان يقوم اذا هاجم الفلسطينيون اسرائيل ان هذا الهجوم من شأنه ان يحطم كل الامال في سلام المنطقة، وسلامة الفلسطينيين انفسهم. والحقيقة التي يجب ان يعيها الجميع انه لا الشرق ولا الغرب يستطيع الموافقة على تدمير اسرائيل. ولن يكون امراً قابلاً للغفران ان ندع الفلسطينيين يصدقون انه بامكانهم تدمير اسرائيل بالقوة العربية وحدها. مع ذلك فهناك امكانية واقعية لتدمير اسرائيل، ان تقوم هي بتدمير

نفسها، اذا استمرت سياستها التوسعية في احتلال الاراضي العربية. ليس هناك بلد، ولا حتى الولايات المتحدة، بامكانه ان يدعم مثل هذه السياسة للابد. والدول العربية الان قوية بالمال والطاقة، وقد تخسر عدة معارك، ولكنها لن تخسر الحرب».

تبدو هذه الفقرات كما لو انها تحتوي تناقضاً بين استحالة القوة العربية القادرة على تدمير اسرائيل واستحالة خسران هذه القوة للحرب. لذلك علينا ان نذكر عنوان مقالة كارادون «بوابة السلام: دولة فلسطينية». لا تتناقض مطلقا بين القول بأن القوة العربية «لن تدمر اسرائيل» والقول بأن هذه القوة «لن تخسر الحرب» فالمسافة بين «عدم الدمار الاسرائيلي» و «عدم الخسارة العربية» هي الفراغ الممكن ملؤه بين استحالتين، بالدولة الفلسطينية، اي بالسلام...

وبدلاً من أن تصبح القدس مركزاً للمشكلة برمتها، يقول كارادون انه يمكن لهذه المدينة التاريخية ان تصبح بوابة السلام، بالعودة الى جوهر قرار التقسيم عام ١٩٤٨ لا بالعودة الى قرار ٢٤٢ الذي صاغته ظروف الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ اكثر مما صاغته المقومات الاكثر عمقا وامنا.

وكانت هذه هي المرة الاولى لصائغ القرار ٢٤٢ التي يتراجع فيها عن القرار (وهو يسبق بذلك قمة عمان الاخيرة بثلاث سنوات). وهو حين يقول بجوهر قرار التقسيم لا يعني الجلاء الاسرائيلي عن مساحات شاسعة استولت عليها اسرائيل بعد عام ١٩٤٨، بل هو يتمسك بكلمة «الجوهر» لنفهم ان الاقتراح المعدل هو قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة مع قيام علاقات طبيعية بين الدولتين اليهودية والعربية. ويختتم قائلاً «إنني واثق من ان هذه الخطوط العريضة ممكنة التنفيذ، وسوف تلقى دعما عمليا، اذا تخلت اسرائيل عن سياستها التوسعية، واذا تخلى العرب والفلسطينيون اساساً عن الوهم باحتمال او امكان تدميرها».

والمقال الثالث لكلود بورديه Claude Bourdet احد قادة المقاومة الفرنسية ضد النازي، ثم اصبح مديراً للاذاعة الفرنسية وهو الان محرر الشؤون الخارجية لمجلة « الشهادة المسيحية » Temoignage chretien ومهتم بشؤون الشرق الاوسط منذ حوالي ثلاثة عشر عاماً. مقاله بعنوان « التفكير حول جدليات السلام » ينطلق فيه من « بديهية » بالنسبة له تقول ان صراع الشرق الاوسط هو اول وربما اخر صراع في التاريخ الانساني « بين حقين » لا بين الحق والباطل. ثم يقول ان الحرب هي حوار المتطرفين هنا وهناك وانه لا حل بغير ان يتعلم الاسرائيليون والفلسطينيون كيف يعيشون معاً. وبالطبع لن يكون الامر زواجاً بين عاشقين، لأن رواسب التاريخ ثقيلة الوطأة. ولكن الامر ببساطة هو ان هناك « قدراً لأمتين ان ينتميا لوطن واحد، لا ان تقوم احداهما بالمفاضلة » اي ليس مطروحاً على احدى القوميتين ان تختار بين هذا الوطن وغيره. وربما كانت العبارة بالانجليزية اكثر دقة:

it is the destiny of two nations who belong to one country and not what either of them would prefer (p. 94)

ثم يقول بورديه ان اي عقل اسرائيلي متفتح لا يقول بأن حقه في الوجود « اكبر » من حق الفلسطيني، كذلك الفلسطيني الواقعي لن ينكر على الاسرائيلي حقه في العيش على الارض ذاتها.

والكاتب الفرنسي يوجز « الخطوات العملية » لتحقيق هذه الفكرة هكذا:

● تفاعل القوى التقدمية الفلسطينية مع اليسار الاسرائيلي لأن بينهما عناصر فكرية مشتركة، وذلك بعد قيام دولة فلسطينية تستوعب « العائدين » من المطرودين عام ١٩٤٨.

● في المرحلة الاولى، وقد تبقى زمناً طويلاً، لن يكون بالامكان قيام اتحاد فيدرالي بين الدولتين، ولكن بالتدريج على اسرائيل ان تتخلص من

« الطبيعة الدينية للدولة » بحيث يمكن بذلك ايجاد المدخل لتوحيد تدريجي بين الشعبين فالدولتين .

● « اعتقد مخلصاً ان الفلسطينيين خطوا خطوات فكرية عديدة خلال السنوات العشر الاخير لاقامة السلام الدائم ، ولست اعتقد ان بامكانهم ان يقدموا المزيد » اي انه يتعين على الطرف الاخر ان يقدم ما لديه « من جديد » .

تدلنا المقالات الثلاثة الأولى في كتاب « حرب أم سلام في الشرق الأوسط » على أن فكرة الدولة الفلسطينية هي محور المصلحة الأوروبية الغربية المباشرة في ايجاد صيغة « الاستقرار » المنشود لهذه المنطقة الملتهبة بين مناطق العالم الاستراتيجية . ولكن هذه الدولة ترتبط لدى أصحاب المقالات الثلاثة ، بقبول عربي واسع للدولة اليهودية فكرة وكيانا ، وكذلك بتعديلات جغرافية هنا وهناك لمشروع التقسيم القديم .

والمقال الرابع للفلسطيني الراحل سعيد حمامي مدير مكتب منظمة التحرير السابق في لندن ، لا يخرج جوهريا عن مضامين المقالات الثلاثة . وقبل الاستطراد في عرض بقية الكتاب ، يجب ألاّ ننسى أنه صدر عام ١٩٧٨ أي قبل ابرام معاهدة واشنطن للصلح المنفرد بين مصر و« اسرائيل » ، واغلب المقالات كتب قبل زيارة السادات للقدس المحتلة في نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٧٧ . ومعنى ذلك أن الفكر المطروح في الكتاب ، لم يتسن له استيعاب المتغيرات خلال السنوات الثلاث الاخيرة .

وهو أمر له اهمية في قياس التذبذب الفكري الغربي حين تفرض بعض المتغيرات نفسها ، وكأنها « الامر الواقع » الذي يستحيل تجاوزه ، بل يستدعي « تفكيراً جديداً » يبدأ غالبا من نقطة الصفر . والمغزى الكامن هنا هو أنه من حقنا الحذر دائماً في قراءة العقل الغربي خاصة في ما يعنينا ، لأنه في الاغلب لا يكون تفكيرا استراتيجيا ثابتا أصيلاً يمكن الرجوع إليه

أو الاطمئنان له كفكر نهائي في الموضوع .

على أية حال، فالمقال الخامس في « حرب ام سلام » كتبه دانييل اميت Daniel Amit تحت عنوان « السياسة الاسرائيلية، والسلام في الشرق الأوسط » . وكاتبه هو استاذ الطبيعيات في الجامعة العبرية بالقدس المحتلة . وهو عضو لجنة السلام العادل، وقد كان مرشحا لعضوية الكنيست في انتخابات مايو - ايار ١٩٧٧ ضمن قائمة الجبهة الديموقراطية من اجل السلام والمساواة. وهو عضو هيئة تحرير Isralift news service وقد كتب عدة مقالات عن الشرق الأوسط لمجلة Le monde diplomatique الفرنسية المتخصصة والمجلة The New York Review of Books الاميركية وكذلك الصحافة الاسرائيلية .

اذن، فنحن أمام « صوت اسرائيلي » افتتح مقاله في أغسطس - اب ١٩٧٧ بهذه الكلمات « إن نتائج الانتخابات البرلمانية الراهنة في اسرائيل أعطت انطباعاً بتغير دراماتيكي . وقد جاء الانفعال اليائس لدى الحركة العمالية واليسار الصهيوني برهانا على أن رجعة سياسية مقترنه بجيل قديم توشك على أن تتخذ لنفسها مكانا قياديا » . وقد اتضح ذلك جليا - يقول الكاتب - من اللاءات الثلاث الفورية التي اطلقها مناحم بيغن بصدد أزمة الشرق الأوسط: لا للعودة الى حدود ما قبل ١٩٦٧ ، لا لدولة فلسطينية مستقلة، لا للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية . . وكان هذا الموقف يعني بوضوح تجميد الأزمة لحين انضاج حرب جديدة مع العرب .

ثم يشرح المؤلف تفصيلا مواقف الاحزاب الاسرائيلية المختلفة من الانتخابات المذكورة وقضية الشرق الأوسط . وينتهي الى أنه من العسير الربط دائماً بين ايديولوجيات هذه الاحزاب وبرامجها الانتخابية من ناحية، ومجمل الاسرائيليين من ناحية اخرى، بحيث يصعب التطابق بين الناخب الاسرائيلي وما يمثله نائبه داخل البرلمان عمليا . وقضية الشرق الأوسط من القياسية في هذه النقطة، فقد ينجح ليكود بزعامة بيغن لاسباب اقتصادية

اخفق فيها حزب العمل. وربما يعود بعد حين .يقصر أو يطول حزب العمل الى السلطة، لأن حكومة بيغن لم تنجح هي الاخرى في معالجة المشكلة الاقتصادية. وهكذا، فالجميع يفكـرون في «الأمـر الجوهـري» تفكيرا ضيقا محصوراً بأزمات عابرة او غائرة، ولكنهم يلقون بالعتب كله على ازمة الشرق الأوسط، دون التفكير بحل تاريخي شامل لا يخضع للمزايدات او المناقصات الانتخابية، ولا بالعلة والمعلول الاقتصادي. ورغم الارتباط العميق بالغرب فلا أحد من زعماء السياسة الاسرائيلية يفكر بطريقة نيكسون مثلا في رحيل أميركا عن فيتنام وانفتاحها على الصين، أو التفكير بطريقة ديغول في رحيل فرنسا عن الجزائر.

وطبعا، لا يطالب الكاتب برحيل الصهاينة عن فلسطين، بل هو يقصد تحديد نتائج حرب ١٩٦٧ اي ان المبادرة التاريخية التي يطالب بها هي الجلاء الاسرائيلي عن الاراضي المحتلة في هذه الحرب. ويؤكد انه من الزاوية الاقتصادية البحتة يمكن لاسرائيل أن تنتعش بهذا الجلاء، وأنها من الزاوية السياسية سوف تكسب ثقة العرب والعالم، دون أي انتقاص محتمل من سيادتها أو عدوان متخيل على أمنها. ولكن «اسرائيل» هذه التي يفكر فيها الكاتب لا وجود لها في العقلية الحزبية الاسرائيلية، حيث تصبح صهيون هي الحزب وحده ويصبح الشعب هو عدد الناخبين وحدهم. وهي «مأساة سياسية من الدرجة الاولى» ـ يقول دانييل أميت ـ لأن حصيلة الفكر الحزبي الاسرائيلي، هي المزيد من الازمات العابرة أو الغائرة (في الاقتصاد مثلاً) وبقاء الأزمة الجوهرية (الكيان والوجود) بلا حل حقيقي، مما يهدد باستمرار الحروب «وكأننا دولة لا عمل لها في غير ميدان القتال» على حساب الجماهير الجائعة إلى السلام. لأنه يعني لها ببساطة الأمن والرخاء.

إن الكاتب بهذه الكلمات لا يتجاوز حدود «التضوير السياسي» إلى حدود تقديم البدائل، فهو يكتفي بتجسيم «الحائط الصهيوني المسدود»

والذي يحتاج الى مبادرة في حجم الخروج الاميركي من فيتنام والاقبال الاميركي على الصين، أو في حجم الخروج الفرنسي من الجزائر.

ونستشف من المقال أنه يربط هذه المبادرة بزعامة جديدة في حجم نيكسون (!!!) أو ديغول، ويعلن يأسه من الزعامات الراهنة واحزابها وسياساتها. ولكنه لا يشير بحرف الى اللاءات الثلاث التي قال عنها أنها تؤدي الى التجميد فالانفجار. ولا يشير بحرف الى المقومات الواقعية لايجاد الزعامة الجديدة بحثا عن المبادرة التاريخية التي يبتغيها.

على أن الاهم هو أن هذا الصوت الاسرائيلي، هو الاقرب الى الصوت الاوروبي الغربي. والاكثر أهمية أن المبادرة التي انتظرها من الداخل (في اغسطس - اب ١٩٧٧) جاءته من الخارج بعد أقل من ثلاثة شهور، بزيارة السادات للقدس المحتلة. وبعد ثلاث سنوات من هذه الزيارة: ترى ماذا يستطيع الكاتب الاسرائيلي أن يضيف؟

على أية حال، فالمقال السادس في كتاب «حرب أم سلام» كتبه وليم بلاكمور William Blackmore الذي عمل استاذا بالجامعة الاميركية في بيروت بين عامي ١٩٦٦ و ١٩٧٠ حين ذهب ليعمل مذيعاً ومعلقا سياسياً باحدى محطات الاذاعة الاميركية. ومن أهم أعماله أنه غطى العدوان الاسرائيلي على جنوب لبنان، ومذبحة أيلول الاسود في عمان، وجنازة عبد الناصر في القاهرة. عام ١٩٧١ وغطى من الهند حرب باكستان وانفصال بنغلاديش. ثم عاد الى الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٧٢، واتيحت له فرصة تغطية حرب تشرين الاول ١٩٧٣، وحرب ١٩٧٤ في قبرص، فالحرب اللبنانية ابتداء من ١٩٧٥ سواء لاذاعة A.B.C أو لمجلة كريستيان ساينس مونيتور. وقد نال جائزة نادي الصحافة ما وراء البحار على تغطية الحرب القبرصية، ونالها مرة اخرى على تغطية معركة تل الزعتر في لبنان.

لذلك كان من الطبيعي ان يكون مقاله في كتاب «حرب أم سلام» في الشرق الأوسط» حول «لبنان في الحروب الشرقية» وقد استخدم كلـمة

Levantفي وصف الحروب قاصدا بها الاراضي الواقعة في النهاية الشرقية للمتوسط. وهي كلمة مأخوذة أصلا عن الفرنسية Lever بمعنى «يشرق» وهكذا فهو يبدأ مقاله بالتأكيد على «ان الحرب اللبنانية منحت اسرائيل الفرصة الاولى للتمدد العسكري المفتوح في العالم العربي، الامر الذي يعتبر أخطر التطورات في الصراع العربي الاسرائيلي، لأن الحقيقة هي أن اسرائيل وجدت منفذا اغراؤه لايقاوم، لغرس عدم الاستقرار. والهاء العرب والمكاسب الاقليمية، كل ذلك دفعة واحدة.

والانفصال الشبكي وحده - يقول بلاكمور - بين عين المؤرخ وعين الباحث الاجتماعي، هي التي اوقعت كلا الفريقين في تحليلات قاصرة وعاجزة عن الفهم للمأساة اللبنانية.. فعالم الاجتماع الذي راح يرصد التناقضات الطبقية في المجتمع اللبناني وفسر الحرب باحتدام الصراع الاجتماعي بين الفقراء والاغنياء، لم يعرف الحقيقة والمؤرخ الذي يصطاد من التاريخ شواهده على عمق الهوة بين المسيحيين والمسلمين، لم يقع في شباكه سوى السراب. لاشك ان الوضع الاجتماعي مهم وكذلك التاريخ. ولكن الصراع العربي الاسرائيلي هو الاكثر أهمية وهو العامل الحاسم. ذلك أن ربط لبنان بأزمة الشرق الاوسط، ولتواجد الفلسطينين - دون حل - على أرضه، هو نجاح اسرائيلي لا شك فيه وهو المدخل الوحيد الصحيح لتفسير الحرب اللبنانية منذ عام ١٩٧٥، مهما كانت نتائج هذا التفسير متشائمة من حل سريع أو قريب.

ولكنها الحقيقة - يقول الكاتب - إن اسرائيل ومصر كليهما واجهت مأزقا بالغ الخطورة أثناء الاعداد لاتفاقية سيناء الثانية في مارس - اذار ١٩٧٥ أو ما أسمي بمحادثات اسوان بين السادات وكيسنجر. وكان المأزق هو مناورة المصريين بأن تكون الاتفاقية لمجرد فض الاشتباك العسكري بالانسحاب الاسرائيلي التدريجي من سيناء. وتعود الاوضاع بعدها الى سابق عهدها. لا علاقات ولا صلح نهائي. وكان كيسنجر مع

الاسرائيليين يفهم جيدا حقيقة المناورة المصرية، لذلك كان الاصرار على أن تكون الاتفاقية مجرد مقدمة لصلح منفرد يشرع الطرفان في الاعداد له.

وكانت الحرب اللبنانية خير اعداد، لا لمجرد التغطية على اجتماع فورد ـ السادات في سالزبورغ (تموز ١٩٧٥) وتوقيع الاتفاقية بالمفهوم الاسرائيلي في الاول من ايلول ١٩٧٥، بل أصلاً وأولاً وجوهراً، لاخراج الفلسطينيين منذ البداية من أية معادلة لتسوية نهائية في الشرق الأوسط. وكان هذا «الاخراج» هو توريطهم في حرب لا معقولة، مناخها الاجتماعي والتاريخي ممهد دائماً، ولكن اشعالها في هذا الوقت تحديدا (١٩٧٥) واستمرارها لا علاقة له بالمجتمع ولا بالتاريخ. بل له كل العلاقة بالاستراتيجية الاسرائيلية في صراع الشرق الاوسط: اغراق منظمة التحرير في حرب ليست حربها، تمزيق العرب داخل هذه الحرب وخارجها بحيث لا يعود هناك «مبرر» للبحث في قضية «فلسطين».

والمكاسب الثانوية ليست قليلة: تحطيم المثال العربي المجاور، لاسرائيل على امكانية التعايش بين الاديان والمذاهب المختلفة. وهو المثال الذي تغنى به الفلسطينيون طويلا. تحطيم الازدهار اللبناني. الظهور امام العالم كما لو ان اسرائيل هي حامية المسيحيين في الشرق. اقتطاع بعض الاراضي والمياه اللبنانية ان امكن تكريس الانقسام الطائفي وتصديره الى بقية العرب ان امكن. وهكذا... وهكذا...

لذلك لا نهاية في الافق للمأساة اللبنانية، لانها اصبحت الشكل الجديد الاكثر تعقيداً للصراع العربي الاسرائيلي، فطالما بقي هذا الصراع بقيت المأساة. وهي في الجوهر ليست مأساة لبنانية فقط، بل هي مأساة شعوب المنطقة كلها.

ربما كان هذا التحليل لبلاكمور هو اجرأ التحليلات الغربية لحرب لبنان، لانها توحي من قريب لا من بعيد، بكثير جداً من الشكوك: حول

دور النظام المصري في اشعال الحرب، حول دور اميركا في الاذن بها، حول الدور الاسرائيلي في ترتيبها .

وتبقى الحرب في النهاية « مصيدة » لردود الفعل المحلية والعربية والدولية ازاء الصراع في الشرق الاوسط، اكثر منها حربا أهلية أو طائفية .

اما المقال الثالث والاخير من كتاب « حرب ام سلام » فهو لمحررته وجامعة مواده بيجي داف Peggy Duff الامين العام لهيئة نزع السلاح النووي بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦٧ ثم اصبحت الامين العام للاتحاد الدولي لنزع السلاح والسلام المعروف اختصاراً I C D P وهو اطار تحالف بعض الحركات الاوروبية والاميركية والآسيوية والاسترالية المستقلة: محررة لصحيفتين تابعتين للاتحاد .

ومنذ عام ١٩٧٣ نشطت في جمع الوثائق حول الشرق الاوسط، والكتابة حوله في الصحف البريطانية وغيرها .

والمقال بعنوان « قاعدة للرأي العام الدولي » تقرر في مقدمته ان ما يسمى الرأي العام العالمي قد وقف منذ عام ١٩٤٨ الى جانب اقامة دولة يهودية في فلسطين، ثم ترجم تأييده الحار لهذه الدولة بالدعم المادي والمعنوي المتصل لحمايتها وجوداً وكياناً، وبالطبع كان هذا الموقف المستمر يعادي ضمنياً الطموحات العربية لاسترداد فلسطين أو قبول التقسيم او اقامة دولة فلسطينية في القطاع (غزة) و (الضفة الغربية من نهر الاردن) حسب تسلسل التنازلات العربية، وقد لعبت الاشتراكية الدولية على يمينها الليبراليون وعلى يسارها الراديكاليون دوراً مؤثراً في استمرار هذا الدعم لاسرائيل .

ومهما قيل - على حد تعبير الكاتبة - عن المشروع الصهيوني ووعد بلفور والانتداب البريطاني في فلسطين، فان الحرب العالمية الثانية وما رافقها من مجازر نازية لليهود في الغرب، هي الاطار الحقيقي والثابت

لدعم «الرأي العام العالمي» المتواصل لاسرائيل... فالوطن القومي ضمانة مؤكدة، وحماية هذا الوطن واجب حتمي.

طبعا لاننسى - تقول بيجي داف - التداخل والتشابك المعقد بين الاسرائيليين من ناحية، والرأي العام الدولي من ناحية اخرى. فالرأسماليون اليهود يلعبون دوراً مؤثراً في الاعلام والاقتصاد الغربيين، واحيانا في الانتخابات السياسية كذلك فان الاشتراكيين اليهود لعبوا أغلب الوقت دوراً مؤثراً في الاعلام والاحزاب اليسارية المضادة للنازية بطبيعتها، سواء داخل المعسكر الاشتراكي أو خارجه.

اي يمكن القول - مازال الكلام للكاتبة - ان انتشار اليهود في العالم قبل اقامة دولتهم، يساعدهم الى الآن عبر العلاقات المستمرة عائلياً او اقتصادياً او سياسيا بين مواطني الدولة اليهودية وبقية اليهود المقيمين في الشرق والغرب.

تتناقض الوسائل احياناً ولكن النتيجة واحدة، هي بقاء الجسور القوية مع الرأي العام الدولي، اياً كانت هويته الايديولوجية.

وهناك عامل آخر، هو الديناميكية الاسرائيلية في اقامة العلاقات مع بقية بلدان العالم، بما فيها الاقطار المغايرة لها دينيا او سياسيا.

فاسرائيل ذات الاقتصاد المفتعل الذي يعتمد اساساً على المساعدات الاجنبية، تقيم اوثق العلاقات الاقتصادية مع دول افريقية عديدة. بل هي تقيم اوثق العلاقات مع دول اسلامية كتركيا وايران (المقال مكتوب في تموز ١٩٧٧ اي قبل اسقاط الشاه). واسرائيل التي يعتمد تسليحها على الولايات المتحدة لدرجة ان الجسر الجوي عام ١٩٧٣ هو الذي انقذها من الهزيمة الكاملة، هي نفسها التي تنتج الطائرات الحربية ويقال القنبلة الذرية، وتتاجر في السلاح، وتبعث بخبرائها العسكريين لتدريب الافارقة.

هذه العلاقات الوطيدة من شأنها تطويع الرأي العام لدولي للقبول

باسرائيل، لا لوجود فقط، بل كاستمرار توسعي ايضاً. وهنا الخطورة.

تقول الكاتبة ان الرأي العام في الغرب، وحتى في العالم الثالث، لا ينتبه الى حقوق تاريخية. وحين تقع حرب مع العرب، فهو لا ينتبه الى اصل المشكلة بل الى انعكاساتها على مصالحه الاقتصادية والأمنية.

لذلك لا يدرك الرأي العام في العالم معنى احتجاب النفط عام ١٩٧٣ الا باعتباره «عدوان التخلف العربي على التقدم الحضاري للانسانية».

ولا يفهم مشكلة الفلسطينيين الاّ على اساس كونها مسألة انسانية لبضعة الاف من اللاجئين. وهكذا. انه لا يصدق الاّ إعلامه وسياسييه، وقلما تتوفر له قناعات خاصة مستقلة... في غياب التأثير العربي، بل في حضور النزاعات العربية المستمرة، التي يعي منها ان لا رأيا عربياً موحداً يناصره، وفي حضور التنازعات العربية المستمرة، التي يعي منها ان العرب سيوافقون اسرائيل في النهاية، وبالتالي لماذا نزايد عليهم وهم أصحاب المشكلة ان لم يكونوا سببها.

بهذا المقال الجريء يختم كتاب «حرب ام سلام في الشرق الأوسط» صفحاته، ويثير لدينا عدة ملاحظات:

● انه اصلاً كتاب موجه للغرب، يصوغ الحد الادنى من مطالب «المعتدلين العرب»، جمع بين دفتيه الاستاذ الاسرائيلي وممثل منظمة التحرير الفلسطينية، كما جمع الصحفي او المذيع والدبلوماسي العتيق صائغ قرار ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ في مجلس الامن الدولي.

● انه اذن «طاولة مستديرة» لا تبادل فيها للاراء ـ بالمناقشة ـ ولكنها تبادل للنتائج الجزئية في صيغة موحدة شاملة تنادي بالدولة الفلسطينية والاعتراف العربي باسرائيل.

● إن الكتاب صدر عن مؤسسة تتعاطف مع العرب، وكأنها تقول هذا هو الحد الاقصى الذي نستطيعه.

فما علاقة ذلك كله ـ وقد كتب قبل ثلاثة اعوام ـ بالكتاب الفرنسي، الياباني الطازج الصادر قبل ثلاثة اشهر: الليل ينادي الشروق، حوار شرقي غربي حول الأزمة المعاصرة؟

★★★

ليل من، واي شروق، هذا الذي يتصدر غلاف «الليل ينادي الشروق ـ حوار شرقي غربي حول الازمة المعاصرة» لمؤلفيه: الفرنسي رينيه هيغيه والياباني دايساكي اكيدا؟

تجيب المقدمة حرفيا «يزيد وعي الغرب يوميا بالازمة التي ارتبط بها فاصبحت قدره الخاص. أزمة اقتصادية حقا، ولكنها ازمة نفسية واخلاقية وروحية ايضا. المثل العليا ماتت، هكذا قالوا لنا، ولكن الانسان ايضا يموت وهذا ما لا يقوله احد، رغم اننا نلمسه ونراه ونتنفسه ونسمعه، ندركه بكل الحواس. ويتطلب الامر مبادرة انسانية عالمية شاملة، لكي نحدد مصادره ومدى اتساعه والعقاقير القادرة على مطاردته. هكذا ولدت فكرة الحوار الشرقي الغربي المفتوح بين مفكرين احدهما فرنسي من الغرب والاخر ياباني من الشرق.

اما الياباني فهو يمثل ثلاثة عشر مليونا من البوذيين، فهو رئيس منظمة سوكا SOKA العالمية التي تضم مليونا يقتنون الغرب. واكيدا IKEDA هو مؤسس جامعة يابانية واكثر من مدرسة عالية ومتحف فيجي FUJI للفن، وقد نشر العديد من المؤلفات. وقد منحته لقاءاته مع الشخصيات العالمية من ارفع المستويات نفوذا استثنائيا.

اما المفكر الفرنسي René Hughe فهو عضو بالاكاديمية الفرنسية واستاذا باعرق معهد علمي في فرنسا كوليدج دي فرانس. وكذلك هو رئيس مجلس الفنون للمتاحف الوطنية. وقد ادار العديد من الحوارات وتكلم في كثير من اللقاءات في اوروبا والامريكيتين واليابان. هو ايضا

كاتب ترجمت اعماله الى ١٢ لغة. وفي عام ١٩٦٦ تسلم في لاهاي جائزة ارازم Erasme لانه خدم الثقافة الاوروبية بطريقة استثنائية.

وبواسطة المقابلات المتتالية في فرنسا واليابان، وكذلك المراسلات الطويلة اختبر الكاتبان على الطبيعة الاسباب العميقة للازمة. رغم ذلك فهو حوار قصير « باتساقه وترتيبه يقود الجميع الى استكماله في الحياة اذا ارادت الحضارة ان تبقى عالمية، فهذا الحوار وحده يقودنا الى المستقبل ». تعمدت ان انقل النص الحرفي لهذا التعريف المطول بالكتاب، حتى نضع ايدينا على جملة « حقائق » قبل ان نشرع في تحليل مضمونها من واقع فصول الكتاب.

- فالليل الذي ينادي، هو الليل الغربي (ازمات اقتصادية ونفسية)
- والشروق المنادي هو اليابان.
- والكتاب ليس تأليفا تقليديا، كأن يكتب الفرنسي بعض فصوله، ويكتب الياباني بعضها الاخر، بل هو حوار حقيقي امتد مئات الساعات سواء بالطائرة فالجلوس حول مائدة مستديرة هنا في باريس او هناك في طوكيو، او بالرسائل.

واعتقد ان كتابا يكلف تاليفه هذه النفقات الباهظة قبل الطبع، لا يمكن ان يكون كتابا عاديا، بل هو احدى المبادرات او احد اوجه المبادرة الاوروبية، وقد اتسع نطاقها ليشمل الشرق الاقصى.. انه الاستكمال الطبيعي لكتاب نيكسون وكتاب شرايبر، ولكن ما علاقته بكتاب « السبعة »: حرب ام سلام في الشرق الاوسط؟

العلاقة هي ان الاصوات السبعة كانت في الحقيقة صوتا واحدا له اصداء متعددة بما فيها الصوت او الصدى العربي. كذلك كتاب « الليل ينادي الشروق » فهو ليس اكثر من مونولوج داخلي وليس حواراً بين طرفين متباينين على الاطلاق. هذا هو وجه التشابه، اما وجه الاختلاف، فان الحوار الغربي الشرقي حول الازمة المعاصرة لم يجد خيرا ولو ضئيلا

لازمة الشرق الاوسط، بينما خصص الكتاب الاول الحيز كله لهذه الازمة.

طبعا، من الممكن ان يقال ان كتاب «الليل» تخصص في قضايا الفكر وحدها، اذ ناقش «الازمة» في انعكاساتها الروحية كما تبدت في الفن والدين والفلسفة والسياسة والحب والامراض. وقد ورد ذكر ما يسمى «العالم الثالث» مرورا عابرا (ص ٨٢).

ولكن المفكر المعاصر في اي مكان من العالم لا بد انه سأل نفسه ذات مرة: ما هذا الذي جرى طيلة ثلاثين عاما في الشرق الاوسط بين العرب والاسرائيليين؟ ما هذا الذي يجري منذ خمس سنوات في لبنان؟ بل لا اعتقد ان هناك صحفيا من الدرجة الثالثة في اي مكان في الدنيا، الا وسأل نفسه: ما هي حكاية النفط والعرب والمسلمين، خاصة بعد الثورة الايرانية؟

لا أثر لمثل هذه الاسئلة في كتاب «الليل ينادي الشروق» فكادت «الازمة المعاصرة» ان تكون هي ازمة الانسان الغربي. ونكتشف بعد قليل ازمة الانسان في اليابان هي جزء لا يتجزأ من هذه الازمة. وبالتالي فليس هناك حوار بين الشرق والغرب، بل بين الغرب في اليابان والغرب في الغرب.

كيف ذلك؟

يجيب المفكر الياباني ان الازمة الروحية في بلاده هي ازمة المجتمع الاستهلاكي وان الدين وحده هو القادر على انقاذ اليابانيين من الازمة. ولا خلاف بين الكاتبين في هذه النقطة سوى ان الياباني يدعو مواطنيه الى التنزه في رياض البوذية وان الفرنسي يدعو بلاده للعودة عن العلمنة الى الكاثوليكية. ولان المفكرين راقيان، فهما يدعوان الى الدين بواسطة الاداب والفنون لا عبر الطقوس والعبادات. ولكن النتيجة في جميع الاحوال واحدة، وهي استحضار القوى الروحية لحل المشكلات المادية، وعندما يرد ذكر «العالم الثالث» عرضا، فلتمجيده لان اهله يحرصون على

القيم والعادات والتقاليد، كذلك لم تقتحمهم الهزات العصبية او الامراض العقلية فهم بمأمن عن «شرور العالم الحديث شرور الصناعة المتطورة والمجتمع المتقدم».

اننا نكتشف، احيانا دون قصد من مؤلفي الكتاب، ان انماط الانتاج في غرب اوروبا واليابان، توحد بينهما في ما يمكن تسميته بالحياة الامريكية دون امريكا. اي دون القرار الوطني او القاري المستقل.

لذلك يبدو احيانا اخرى ان «الكلام عن الحضارة» من قبيل الاستهلاك المحلي، فلا شك ان لفرنسا حضارتها الخاصة، وكذلك اليابان. تنتمي فرنسا حضاريا الى عالم النهضة الاوروبية فهي من مؤسسيه الاوائل. وتنتمي اليابان الى حضارة الشرق الاقصى، بكل ما اعطته البوذية والكونفوشيوسية من ملامح خاصة للهند والصين وبورما واليابان.

ولكن هذا الانتماء التاريخي شيء، وفاعلية الحضارة «الحديثة» شيء اخر. والعلاقة التي تربط بين كل من اليابان وفرنسا بهذه «الحداثة» هي التي توضح معالم الازمة ومساراتها. اليابان مثلا، دولة مهزومة في الحرب العالمية الثانية، وهي تدفع الضريبة السياسية لهذه الهزيمة الى اليوم. وقد كانت القنبلة الذرية الاولى في التاريخ، فوق اليابان، علامة فارقة بين عصرين: اليابان الامبراطورية المستقلة، واليابان العملاقة الاقتصادية والصناعية التابعة لصاحب القنبلة التاريخية: امريكا. وهي في ذلك تشبه المانيا الغربية في الكثير.

اما فرنسا، فهي الامبراطورية الغاربة كبريطانيا، شارك في انقاذها الافلاس مشروع مارشال الامريكي. ولكنها استطاعت ان تسدد هذا الدين تقدما اقتصاديا وسياسيا ايضا على عكس الوضع في اليابان. فقد كانت الديغولية كذلك علامة فارقة بين عصرين، منها انطلق التيار الاستقلالي المتميز لفرنسا. رغم ذلك، فالشركات المتعددة الجنسية تغزو انتاجها على

النحو الذي بينه شرايبر. ورغم ذلك، فالمجتمع الاستهلاكي كان الاب الشرعي لانتفاضة الطلاب في الستينات. وهي نفسها الانتفاضات التي شهدتها جامعات طوكيو.

.. اننا اذن امام عدوان حضاري امريكي على كل من الشرق واوروبا، يحاول اجتثاث جذور الحضارة الخاصة لكل من اليابان وفرنسا، بهيمنة « الانموذج الامريكي » على الحياة، ابتداء من الفن المعماري بناطحات السحاب مرورا بثورة المواصلات الاعلامية، وليس انتهاء بساندوتش « ماكدونالد » هذا النمط الاستهلاكي الذي يحدد فيه الاعلان المكثف المغري مواصفات السلعة، وليست حاجة الانسان الطبيعية، لا يعود سر اسراره الى الطفرة التكنولوجية، بل الى الشركات المتعددة الجنسية، اي ان السبب اقتصادي وليس علميا، كما يذهب مؤلفا « الليل ينادي الشروق ». ومعنى ذلك هو انه ان كان الغرب يقوم بتصدير اخطاره الينا، فان المصدر الرئيسي للخطر الى العالم كله بما فيه الغرب، هو الولايات المتحدة الامريكية، بصفتها العمود الفقري للشركات المتعددة الجنسية.

ان السوق الاوروبية المشتركة واليابان يتصوران انهما اصحاب اسهم وسندات في الشركات المتعددة الجنسية. وهو تصور صحيح، ولكنه قاصر، لان اللعبة الاقتصادية والسياسية تقتضي وجود شركاء تضبط حركتهم قواعد اللعبة، وفي مقدمة هذه القواعد:

● راس المال الامريكي هو صاحب الحصة السياسية الاكبر في سلطة القرار.

● الحيلولة دون غزو سلعي ياباني لاسواق الولايات المتحدة من شانه ان يؤثر كليا على انتاجها الاستهلاكي.

● الربط المحكم بين الدولار ومراكز النقد الاجنبي الاخرى بحيث يبقى هو السيد مهما يتدهور، بصفته صاحب القرار السياسي في ميزان القوى الدولي.

لذلك سيتحاشى المؤلفان الياباني والفرنسي كلاهما التوسع في حديث الاقتصاد، وكانهما يتلافيان المقدمة الوحيدة الصحيحة الى النتائج الصحيحية ايضا. انهما يتجاهلان منذ البداية جيوش العاطلين عن العمل في اوروبا، ومعدلات التضخم المتصاعدة كالورم السرطاني، والعجز المطرد في ميزان المدفوعات. ويعالجان القضايا «الفكرية» كانها كارثة قدرية كالاحداث الطبيعية الخارقة من زلازل وبراكين.

لانهما في الاصل لم يتحاورا، بل تناجيا في ظلام الليل، وبالتالي فهو ظلام بلا شروق. تناسيا انه داخل اليابان شرق وغرب، وانه داخل فرنسا غرب فرنسي وغرب امريكي، وان الموقع الجغرافي وحده لايصنع الشرق الحضاري ولا الغرب الحضاري. ولكن اميركا في اقصى الشمال لها شرقها ولها غربها. اما شرق «اسيا» او غرب «اوروبا»، فان حوارا جديا بينهما لم يحدث، طالما يأتمران بالصوت القادم من اميركا.

ومعنى ذلك، اننا يجب ان نحذر بوضوح من التقسيمات «الحضارية» الملفقة، والقائلة على سبيل المثال، بان هناك حضارة «شرقية» تمتد ما بين طنجة في المغرب الى اخر جزيرة يابانية. ليس هذا صحيحا بأية حال. وليس صحيحا بالمقدار نفسه القول بأيديولوجية الحضارة اي انه - على سبيل المثال - هناك حضارة اشتراكية واحدة تربط بين المواطن الفيتنامي والمواطن الكوبي. كلا القولين ليس صحيحا. فما ابعد المفهوم الاسلامي للحضارة عن المفهوم البوذي او الكونفشيوسي وكلها مفاهيم شرعية.

ذلك ان التراث النوعي الخاص لكل امة هو الذي يمنح انتماءها الحضاري هذا البعد دون ذاك. وهو الانتماء الذي تحدده البيئة والتاريخ والتطور. من هنا لا يجوز تقسيم العالم تقسيما جغرافيا ستاتيكيا الى شرق وغرب، ولا يجوز في الوقت نفسه توحيد العالم توحيدا سياسيا واقتصاديا يقول بانتساب دولة «بنين» «افريقيا» الى الحضارة الاشتراكية التي تضم بولاندا والمانيا وتشيكوسلوفاكيا مثلا.

اقول ذلك، لان بعضهم يزخرف دور اليابان « الشرقية » زخرفة ميتافيزقية فتبدو شيئا مغايرا لاوروبا « الغربية » وتحت ظلال هذا الوهم الزخرفي تدخل اليابان الى بلادنا كدولة تتمتع بالرعاية والافضلية. بينما هي في الحقيقة لا تتميز عن دولة كفرنسا في كونها احدى الالات الصناعية والاقتصادية الكبرى في الدولاب الرأسمالي العالمي الضخم.

وكتاب « الليل ينادي الشروق » اكبر برهان على ذلك فهو ليس حواراً شرقيا غربيا بل هو حصار غربي - غربي يقول بافصح عبارة ان الشروق قادم من الغرب على حساب « العالم الثالث » وليله الابدي بلا فجر.

فهذه هي القضية كما يطرحها الكتاب على نحو معكوس: ان نادي الاغنياء يضيء لياليه بزيت الفقراء، فان انطفأ احد المصابيح كانت الطاقة العظمى. ونادي الفقراء مظلم لأنه يكتفي بفتات الموائد الغنية مقابل زيته. وكأن المعادلة « القدرية » هي هكذا، فالشروق الغربي يعتمد على بقاء الليل العربي وغير العربي.

والتقرير الصادر مؤخرا بمناسبة نهاية عام ١٩٨٠ عن « منظمة الانماء والتعاون الاقتصادي » يشير بابلغ بيان اي لغة الارقام، الى ان اليابان، تواصل احتلال مركز الطليعة في المجال الاقتصادي، وذلك بمعدل للنمو يصل الى ٣,٧٥ في المائة تليها كندا فرنسا والولايات المتحدة والمانيا الغربية.

هذا لا يعني بالطبع انه ليس هناك ليل غربي، فالبطالة تزداد والتضخم والعجز في ميزان المدفوعات، ولكن جنون الاستهلاك هو السبب، والحيلولة دون قيام نظام اقتصادي عالمي جديد يحقق التوازن بين المتقدمين والمتخلفين هو سبب الاسباب.

وتبقى الحروب الصغيرة والكثيرة على ارض العالم الثالث هي الحل الامثل لمعادلة الليل والشروق عند الغرب... وليس « السلام » على الاطلاق.

القسم الثاني

ولا بديل لمصر

ماذا يبقى من تموز ٥٢ بعد أيّار ٧١ ؟

في الحادي عشر من حزيران- يوليو ١٩٦٧ قام الرئيس عبد الناصر عند الفجر والمسدس - فوق الكومِيدينو - الى جانبه كانت هي المرة الاولى منذ قيام الثورة في ٢٣ تموز يوليو ١٩٥٢ التي يحرص فيها الرئيس على وجود المسدس بالقرب منه، حتى وهو يأوي الى الفراش .

والمثير أن أحدا ممن لازموا جمال عبد الناصر طيلة حياته، لم يؤرخ لهذه الواقعة البالغة الاهمية، رغم بساطتها .. فلقد كان المعنى الوحيد لحرص الرئيس على المسدس في غرفة النوم، أنه أصبح وحيدا . كانت معه الدنيا كلها الشعب العربي كله، ولم يكن معه واحد فقط ممن عاشوا حياتهم و حياة غيرهم في حماه، ولولاه لما تذكرهم احد .

أصر الرئيس على ان يكون المسدس بجانبه طول الليل لانه لم يعد يثق في اقرب المقربين الذي راح يعد العدة للانقلاب... فكم بالاحرى غيره من الذين لاتربطه بهم غير الولاء للوظيفة في نظام مهزوم منذ ساعات ؟

كان الزلزال الشعبي المباغت بين يومي ٩ و ١٠ حزيران يونيو ١٩٦٧ صدمة كهربية مذهلة قلبت موائد اللعب كلها رأسا على عقب كان الشارع الشعبي في لحظة استثنائية من التاريخ قد اتخذ قراراً مغايرا لحسابات واشنطن وتل ابيب وعواصم الرجعية العربية وأوكار الثورة المضادة في مصر . وكان القرار، بفطرة سياسية لا مثيل لها، هي رفض الهزيمة . وكان العقل الجمعي للشعب يرى في عبد الناصر وحده رمزا نضاليا لهذا الرفض .

كان هذا العقل يعرف من احداث السويس عام ١٩٥٦ ان بعض قادة الثورة جاءوا الى رئيسهم في ذروة العدوان يناشدونه الاستسلام، وأن بعض الباشوات أبدوا - تطوعهم - لاستسلام السلطة، والتفاهم مع الانكليز والفرنسيين والاسرائيليين.

يومها، قال جمال عبد الناصر: لا، سنقاوم ولن نستسلم.

كان هذا العقل الجمعي للشعب يعرف من احداث الانفصال بين مصر وسورية عام ١٩٦١ أن المطلوب هو اسقاط القاهرة ولا يشير مؤرخوه المقربون مطلقا الى واقعة الانقلاب الاولى التي كادت تتم في ذلك الوقت بيدي ساعده الايمن.

يومها قال جمال عبد الناصر:

دقت ساعة العمل الثوري، وراح يخوض حربه العادلة من أجل العمال والفلاحين والجنود وكافة صفوف الكادحين ولم يترك - الانفصال - رغم مرارته التاريخية جراحا في العمق القومي لشخصية القائد التاريخي لذلك، ما أن قامت ثورة اليمن، ورغم الاهوال والمخاطر كان القرار: نعم للثورة العربية في كل مكان.

وكان هذا العقل يدرك صيحات الرئيس بين عامي ١٩٦٥ و١٩٦٧: الطبقة الجديدة تنمو، فاحذروا. الرجعية لها حزبها المنظم القوي، والتقدميون بلا حزب، فاحذروا. امريكا هي العدو، فاحذروا وفي اليوم الثالث من حزيران، يونيو ١٩٦٧ كان يصرخ عبر مختلف أجهزة الاعلام: اسرائيل على الابواب، وستضرب خلال ثمان واربعين ساعة، فاحذروا لم يكن نبيا. كان مناضلا يتمتع بحساسية التاريخ.

لذلك كله رأى فيه العقل الجمعي للشعب رمزا وحيدا لرفض الهزيمة فقرر ان يتحرك في مفاجأة استثنائية بين مفاجآت التاريخ لينقذ هذا الرمز.. لا لينقذ النظام. ولان عبد الناصر كان قائدا استثنائيا يتمتع

بحساسية الرادار فان الغرور لم يتسرب اليه وهو يستمع الى هدير الشارع الشعبي الممتد من المحيط الى الخليج، بل أمسك بالمسدس لمواجهة ـ النظام ـ الذي رفضه الشارع وهو النظام الذي انتحر ألمع رموزه العسكرية ودخلت السجون بقية رموزه السياسية.

ولكن الصراع بعد تلك الليلة في الحادي عشر من حزيران ـ يونيو ١٩٦٧ لم يكن صراعا بين الرموز: رمز المقاومة ورموز النظام بل كان صراعا بين النقيضين الحاسمين: بين الثورة المضادة الشاملة، والثورة الثقافية الشاملة. فالنظام الوسطي كان قد مات بالضربة القاضية في الخامس من حزيران، واضحت الساحة مهيأة لاحد احتمالين جذريين لا ثالث لهما، اما استكمال الهزيمة الى اقصى غاياتها، واما دحرها من اعمق اساساتها واغورها في باطن الارض.

وكانت علاقات القوى كلها، محليا وعربيا ودوليا لمصلحة استكمال الهزيمة الى أقصى غاياتها ومضت السنوات الثلاث بين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٠ وكأنها تبحث عن حل لمشكلة ذلك الرمز الاستثنائي: جمال عبد الناصر.

واقبل اختفاؤه المريب مرادفا للقول بأن الاستثناء يؤكد القاعدة ولا يلغيها. كانوا أخيرا قد نجحوا في سحب المسدس من جانبه وهو نائم. كانوا قد نجحوا في اذاعة ـ البلاغ رقم واحد ـ على هيئة نعي جمال عبد الناصر الى الامة العربية والعالم.. بصوت أنور السادات.

كان غيابه هو الانقلاب ولم تكن أحداث ١٥ أيار، مايو ١٩٧١ الا تكريسا دستوريا لنظام الثورة المضادة، الوريث الاكثر تعبيرا عن مسيرة انحدار.. نظام الثورة.

كان جمال عبد الناصر، هو الثورة. بهذا المعنى فهو لم يمت أما ـ نظام ـ الثورة ـ او دولتها ـ فقد مات. بهذا المعنى ايضا لم يكن عبد الناصر

حاكما أو رئيس دولة، بل كان اغلب الوقت زعيم المعارضة ولولا الشخصية التاريخية لقيادة جمال عبد الناصر، لما وقعت هذه المفارقة وهي - حضور - زعيم المعارضة طول الوقت في قمة السلطة وهي المفارقة التي جعلت انور السادات دون غيره، هو الذي يذيع بصوته البيان الاول لثورة تموز ١٩٥٢، وهو بنفسه الذي يذيع بصوته النعي الدستوري لغياب جمال عبد الناصر مساء ٢٨ أيلول ١٩٧٠، ثم هو نفسه الذي يذيع أول بيانات الثورة المضادة في الخامس عشر من ايار ١٩٧١.

ان اختيار الثورة المضادة لشخص انور السادات لقيادة مسيرتها طيلة السنوات العشر الماضية لم يكن اختيارا عشوائيا فالتاريخ الاجتماعي للسلطة والشعب لا يعرف التنكيت بل كان ذلك الاختيار رمزا عميقا لحضور الثورة المضادة الى جانب الثورة منذ البداية التي سبقت فجر ٢٣ تموز ١٩٥٢ حتى غياب جمال عبد الناصر.

لقد اصدر معظم المشاركين في ثورة تموز مذكراتهم وهم جميعا - باستثناء المناضل خالد محي الدين - يؤكدون في اعترافات علنية مكتوبة في زمن غابت عنه القامة المهيبة والقبضة المسيطرة مايلي:

● ان غالبيتهم كانت مع النظام الدكتاتوري في اسلوب الحكم، وان عبد الناصر برفقة خالد محي الدين ويوسف صديق كانوا ثلاثتهم مع الحكم الديمقراطي ٥٢ - ١٩٥٤.

● ان غالبيتهم فوجئت بتأميم قناة السويس، والبعض عارض التأميم بعد أن وقع، وارتعدت فرائصه أمام العدوان الثلاثي أثناء وقوعه لدرجة دعوة القائد للاستسلام ١٩٥٦.

● ان غالبيتهم كانت ضد الوحدة مع سورية ١٩٥٨.

● ان غالبيتهم كانت ضد تأميم الشركات الكبرى والتوسع في الاصلاح الزراعي ١٩٦١ - ١٩٦٢

● ان غالبيتهم كانت ضد التصنيع الثقيل، ومع الرفاهية الاستهلاكية وضد خطة التنمية الاقتصادية الاولى ١٩٦٥

● ان غالبيتهم استقالت أو اقيلت، لان جمال عبد الناصر لم يحترم ـ الاغلبية ـ وفرض القوانين والتشريعات والاجراءات المضادة للاجنبي والاقطاعي والرأسمالي الكبير.

ولا معنى لهذه الاعترافات كلها، الا أن جمال عبد الناصر، في قمة السلطة، لم يكن يمثل ـ الاغلبية ـ الحاكمة بل كان يمثل الاغلبية المحكومة.

والذين شاهدوه عام ١٩٦٢ وهو يناقش مواد الميثاق الوطني يدركون بغير شك ان الرجل كان زعيما للمعارضة.. اذ كان وحده في جانب، ولجنة المائة التي تحفظت على الميثاق في تقريرها الشهير في الجانب الاخر غير ان الشخصية التاريخية وحدها هي التي حفظت لجمال عبد الناصر مقعده في قمة السلطة الى ان مات.. بالرغم من أنه لم يكن صاحب ـ الاغلبية ـ في الحكم واجهزة الدولة ولكنه في الشارع كان يملك الاغلبية المطلقة.

غير ان هذا الشارع في غياب الديمقراطية التي اهدرتها اجهزة الدولة المضادة للثورة ـ لم يكن ليستطيع بعد أن غاب الزعيم ان يصل بالمعارضة الى السلطة. وبالعكس كان ممكنا لاقصى الحدود لقوى الثورة المضادة الكامنة أن تنقض دستوريا للامساك بمقاليد السلطة وتغيير هويتها.

على اننا لا ينبغي أن نقارن بين ما جرى لجمال عبد الناصر بعد غيابه من جانب أبواق الثورة المضادة وما جرى لستالين أو ماوتسي تونغ في الشرق، وما جرى لسالزار أو فرانكو في الغرب.

ذلك ان خلفاء ستالين الذين أمسكوا بمقاليد السلطة في الاتحاد السوفييتي لم يقلبوا ـ النظام ـ رأسا على عقب بل عدلوا في اسلوب الحكم لذلك بقيت ـ الدولة الاشتراكية ـ وتقدمت خطوات على طريق الديمقراطية.

كذلك، فان خلفاء سالزار في سلطة الحكم البرتغالي، لم يغيروا بنية الدولة من الرأسمالية الى الاشتراكية، بل غيروا في أسلوب الحكم وتقدموا خطوات على طريق الديمقراطية.

أما في مصر، فالامر مختلف تماما. كان - النظام - قد سقط قبل رحيل زعيم المعارضة الممسك بزمام السلطة.. كانت - الدولة الورقية - كما سماها عبد الناصر قد سقطت في هزيمة ١٩٦٧ وبغياب الرمز الوحيد لرفض الهزيمة، وجد الشارع نفسه مجردا من السلاح.. ذلك ان قوى الثورة المضادة الكامنة في أجهزة الدولة والاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي، قد حالت دائما بين عبد الناصر وبناء الحزب الثوري للجماهير غير المنظمة.

لذلك حين غادرتنا الشخصية التاريخية بحجمها الاستثنائي، كان الامر يسيرا على قوى الثورة المضادة المنظمة جيدا - كما أكدعبد الناصر مراراً - أن تنتظر على الرموز الورقية للنظام السابق ستة أشهر فقط تكتسب فيها الشرعية. بعدها تنفض الاوراق المهزومة بهزة كتف فتتساقط دون ان يرف للشارع جفن وبعدها تشرع في بناء دولتها خطوة خطوة ابتداء من طرد الخبراء السوفييت الى طرد الرايات العربية الى رفع العلم الاسرائيلي، الى تحليق الطائرات الامريكية في سماء مصر.. كانها أجواء فلوريدا وهو الامر الذي تم بسرعة مذهلة ويسر لا مثيل له في التاريخ تاريخ مصر أو تاريخ العرب لماذا ؟

لان الثورة المضادة في مصر ليست ثورة مصرية مضادة لعبد الناصر، بل هي الثورة العالمية المضادة للعرب، وقد اتخذت من مصر مركزا استراتيجيا. انها في تعبير مختلف، هي احدث الحروب الصليبية في عصر مغاير كليا للعصور الوسطى. فالمشروع الغربي للاستيلاء على الوطن العربي لم يتغير قط منذ الحملة الصليبية الاولى ولا تغيرت اهدافه ولا تغيرت خريطته التي تتخذ دائما من مصر موقعا استراتيجيا بعزلها أولا عن العرب ثم استفراد بقية العرب. كل ما تغير هو الوسائل لا الغايات. تغيرت وسائل

الحرب الصليبية الجديدة لتناسب العشرين سنة الباقية من القرن العشرين .

ان الثورة المضادة في مصر، ليست انقلاب الاقطاعيين والرأسماليين على الدولة الناصرية وانما هي احتلال الامبريالية الامريكية والصهيونية العالمية لمصر، احتلالا شاملا دون اراقة قطرة دم واحدة .

ان هذا الاحتلال المرئي بالعين المجردة في الاقتصاد والمجتمع والسياسة، غير المسلح بالجيوش التقليدية يجعل من مصر بلدا مغزوا بكل معاني وظلال كلمة الغزو .

واذا كان الانكليز منذ مائة عام قد احتاجوا الى المدافع والاساطيل لاخماد ثورة احمد عرابي، فان الامريكيين والاسرائيليين لم يحتاجوا لاخماد ثورة عبد الناصر لاكثر من . . أنور السادات، ليس السادات رئيس الجمهورية وحده، بل سادات الاستيراد والتصدير والنهب والسوق السوداء والاختلاس والفتنة الطائفية أما السادات رئيس الجمهورية فقد عينوه مندوبا ساميا عن قوى الاحتلال والغزو .

لذلك فاننا حين نتساءل اليوم بعد مرور ٢٨ عاما على ثورة يوليو، ماذا يبقى منها بعد ان اصبحت مصر تحت الانتداب وتحت الاحتلال، يجب أن نستعيد في ذاكرتنا ان الثورة المضادة في مصر هي الثورة المضادة للعرب . وأنه اذا كان النظام الناصري قد سقط، واذا كان زعيم المعارضة قد غاب فإن ـ معارضته ـ أي قاعدته الشعبية بطول الشارع المصري وعرضه ـ لم تسقط بعد ولم تغب . غاية ما هنالك يتوجب على كل عربي أن ينظر الى حال شعب مصر العربي نظرته الى اي شعب مقهور بالغزو المسلح بكافة أنواع الاسلحة الحديثة والمتطورة بدءا من الاعلام المنفرد، مرورا بقوات الامن المركزي الاسرائيلية والامريكية والمصرية وانتهاء بأجهزة الانذار المبكر .

ولان القاعدة الشعبية لرمز المقاومة ـ جمال عبد الناصر ـ لم تسقط ولم

تغب فان المفارقة الصارخة البادية على سطح مصر تقول لكل ذي عينين: من أقصى اليمين الى أقصى اليسار يعارضون امريكا واسرائيل والسادات من فؤاد سراج الدين الى خالد محي الدين مرورا بالائتلاف الوطني العريض الذي يضم بعضا من ألمع وجوه ثورة يوليو وبعضا من ألمع وجوه معارضيها. من أين اذن يأتي الرقم ٩٩,٩٩٩ الذي تفوز به كل استفتاءات السادات للرأي العام؟

سؤال لن يجيب عليه سوى السيد نبوي اسماعيل وزير الداخلية الذي حصل على مائة في المائة من اصوات الناخبين الامر الذي لم يفز به ديغول او تشرشل او ايزنهاور من قادة الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الثانية.

رغم ذلك، فان المعارضة العريضة لنظام الثورة المضادة في مصر، لا تجذب انتباه بعض العرب الذين يتوهمون ويوهمون الاخرين بأن مصر قد انتهت، وان عبد الناصر قد أصبح ذكرى وينسون بسرعة يحسدون عليها أن ٤٨ ساعة في حياة مصر هزت العالم في ١٨ و ١٩ كانون الثاني عام ١٩٧٧وان هذه الانتفاضة التاريخية لشعب مصر العربي قابلة دائما للتكرار باشكال جديدة لا تخطر على بال أحد.

ولكنهم ينسون أكثر ما هو أخطر: ان ما جرى ويجري في مصر ليس بعيدا عنهم، وانهم الهدف لكل ما يجري ويجري. ينسون ايضا ان شعبا تحت الاحتلال، كالشعب المصري أو الفلسطيني تختلف وسائل واساليب نضاله عن الشعوب شبه المستقلة.

ينسون أخيرا أن عبد الناصر كزعيم للمعارضة قد مات.. ليعود بعد وقت يقصر أو يطول زعيما للاغلبية.

انني أراه

هناك في احدى القرى أو الكفور او النجوع في أعالي الدلتا واعماق الصعيد.

انني اراه

في احد احياء القاهرة المعزية في السيدة زينب أو آلسيدة نفيسة او الحسين او الامام الشافعي .

أراه . .

وقد أمسك في احدى راحتيه براية الحزب الثوري وفي الراحة الاخرى راية الديمقراطية، وقد انطلقت من القلب رصاصة تصرخ: فلسطين، فلسطين، فلسطين .

انه صوت الرجل الذي ولدت ـ ثورته ـ وهو محاصر في الفالوجا، ولفظ أنفاسه الاخيرة بعد مؤتمر يوقف النزف الفلسطيني في عمان . صوت جمال عبد الناصر .

٨٠/٧/٢١

« مصر » هنا . .
وهناك

حتى لا تفسر الكلمات التالية خطأ او عن سوء فهم، احب ان اقول في البداية ان زميلنا علي عقله عرسان امين اتحاد الكتاب في دمشق، كان حريصا كل الحرص ـ حين التقيته في طرابلس ـ ان يبلغني ضرورة حضور وفد ادبي مصري يمثل الكتاب المصريين في مؤتمر الكتاب العرب الثاني عشر في دمشق.

ولأن اتحاد الكتاب المصريين الرسمي في القاهرة مقاطع عربيا، فقد صيغ اقتراح تشكيل الوفد المصري الى المؤتمر بحيث يضم محمود امين العالم رئيسا وكل من احمد عبد المعطي حجازي ورجاء النقاش ومحمد عفيفي مطر وكاتب هذه السطور اعضاء.

ولأسباب مختلفة تغيب محمود العالم ورجاء النقاش وعفيفي مطر وانا . . . بحيث لم يحضر عمليا في ضوء الاقتراح القديم سوى الشاعر حجازي. ولكن الدعوات الشخصية استطاعت ان تعوض النقص. فحضر الشاعران عبد الرحمن الخميسي وحسن فتح الباب والكاتب احمد عباس صالح.

وليس هذا هو المهم، فالأهم اننا فوجئنا ببيان من « كتاب مصر الاحرار » يوزع على الكتاب العرب في مؤتمرهم بدمشق، يحمل توقيعات الخميسي وفتح الباب وسيد خميس وحجازي . . . الذي يؤكد البعض انه لم يوافق قط على التوقيع. وقام البيان بتصنيف غامض لمن اسماهم بالساقطين

ومن دعاهم بالصامدين من المثقفين المصريين. ومن ناحية اخرى ناشد البيان تخصيص يوم في العام لدعم صمود الصامدين.

ولا شك انني ومن تغيب عن تلبية الدعوة لحضور المؤتمر نتحمل جانبا من المسؤولية في هذه الفوضى، لأن بيانا كهذا من الصعب صدوره عن رأي جماعي اكثر شمولا وموضوعية. ولا شك ايضا اننا نحترم اصحاب التوقيعات على نواياهم الطيبة. ولكن تمثيل «كتاب مصر الاحرار» يحتاج الى ما هو اكثر من النوايا الطيبة... فالغالبية العظمى من كتاب مصر الاحرار، يقيمون داخل مصر اولا. وربما كانوا يقاطعون الاتحاد الرسمي للأدباء في القاهرة، ولكنهم منظمون في احزاب وهيئات وتنظيمات ونوادٍ وجمعيات، هي وحدها التي تملك حق اصدار مثل هذه البيانات خصوصا اذا تضمنت «تقييما» بالسقوط او الصمود لهذا الفريق او ذاك من كتاب مصر، فالبيان الذي يقيّم الآخرين ليس مقالا لفرد، بل هو - كما ينبغي ان يكون - تجسيد «للرأي العام» الثقافي المصري. ولا اعتقد ان اصحاب التوقيعات المذكورة، مع احترامي الكامل لهم، يزعمون انهم يملكون حق تمثيل هذا الرأي العام.

كذلك الدعوة الى تخصيص «يوم» لدعم صمود الكتّاب المعارضين... ففي حدود معرفتي لا يتضمن برنامج اي حزب او تنظيم سياسي او ثقافي معارض للنظام الراهن، مثل هذه «النقطة» من قريب او بعيد، لأن الدعوة السياسية الادق هي تخصيص يوم للتضامن العالمي مع الشعب العربي في مصر. ليس المثقفون فئة متميزة او مختارة، بل هم مجرد جزء يسير من بحر هذا الشعب. غير ان الذي يملك حق الدعوة الى هذا «اليوم» أيضا في بيان ما، هو المعارضة الوطنية المصرية ذاتها بألسنتها الرسمية... وليس اي «فرد» او «افراد» مهما احترمنا مواهبهم او تاريخهم او حسن نواياهم.

وطبعا، تطرح هذه «الفوضى» على الساحة الخارجية للمثقفين المصريين قضية خطيرة، واعني بها قضية الحد الادنى من التنسيق في ما بينهم

خصوصا ان « فوضانا » ان جاز التعبير تنتقل بالعدوى الى الاطراف الاخرى التي تدعونا او تحرص علينا، تهمها مشاركتنا ويزعجها غيابنا . . . من منطلق ان عروبة الكتاب المصريين في الخارج اطار يحتم التفاعل معهم من جانب كافة الاشكال العزبية للفكر والثقافة .

ان مركز الدراسات للوحدة العربية في بيروت، عقد حلقة دراسية في بيروت حول القومية العربية في الفكر والممارسة . وكانت المفاجأة التي علقت عليها الصحافة اللبنانية بكثير من الدهشة . ان المركز المذكور قد دعا « مركز الاهرام للدراسات الاستراتيجية » الذي اخرج من صفوفه كل باحث مصري عربي الهوية، والذي « بادر » الى تطبيع العلاقات المصرية الاسرائيلية بدعوة الجامعات العبرية اساتذة وباحثين الى موائد مستديرة للحوار حول اللقاء الحضاري بين مصر و « اسرائيل » .

اولا : كانت دعوة هذا المركز للمشاركة في اعمال الندوة خروجا فاضحا على المقاطعة العربية لمؤسسات القاهرة الرسمية .

ثانيا: كانت مشاركة اعضاء هذا المركز خروجا فاضحا على موضوع الندوة، فالذين يصطلحون ثقافيا مع العدو الصهيوني من المستحيل عليهم ان يكونوا « باحثين عربا في الوحدة العربية » وقد كان حضور مفكر قومي معروف كالدكتور يحي الجمل وباحث سوسيولوجي قدير كالدكتور سعد الدين ابراهيم من قبيل ذر الرماد في العيون . اما المفكرون المصريون الكبار، كانور عبذ الملك وعبد العظيم انيس ومحمود العالم وابراهيم سعد الدين، فقد غابوا تماما عن ذاكرة «مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت .

والحل ؟

هو وقف فوضانا نحن الكتاب المصريين في الخارج، بصياغة الحد الادنى من التنسيق الذي يفرض نفسه فرضا على قرارات واختيارات ودعوات الآخرين . . .

ولعلي اسمح لنفسي هنا بالقول ان هناك ثلاثة معايير اساسية، لاقامة هذا الحد الادنى من التنسيق.

● اننا في الخارج، مجرد امتداد متواضع للأصل، وهو المثقفون المصريون داخل مصر ذاتها، واصل الاصل وهو المعارضة الوطنية المصرية المنظمة والتي تشكل نواة الجبهة الوطنية. اننا نأتمر بتوجيهات الشعب العربي في مصر، ولا نشكل «شعبا آخر» في الخارج.

● خصوصية هجرتنا الاضطرارية تفرض علينا الاستقلال الكامل والمطلق والتام عن اية ضغوط او مؤثرات او انظمة او منظمات عربية

● لا «فيتو» على احد، والجميع امام الديمقراطية سواء.

١٩٧٩/١٢/٢١

اضراب
عن القراءة

(١)

كانت بين العشرة الأوائل في الثانوية العامة منذ ثماني سنوات. وكان الطلاب في ذلك الوقت يثيرون المشاكل امام الحاكم اكثر مما يهدئون الأعصاب. ورأت السيدة الأولى انها فرصة العمر لتضرب المثل بهذه الطالبة « المجتهدة » التي كرّست حياتها للعلم لا للسياسة، فأعطتها الهدايا وساعدتها على مواصلة تعليمها الجامعي ووضعتها تحت رعايتها الشخصية طوال سنوات الليسانس والماجستير والدكتوراه.

منذ شهر كانت السيدة الاولى تقرأ اطروحة فوزية عن « الأرض والفلاح في مصر ٧٠ - ١٩٧٩ » قبل المناقشة الجامعية باسبوع.

وقرأت جيهان السادات ان نسبة الأمية زادت في الريف المصري خلال هذه الفترة سبعة في المائة، وأن عدد المستشفيات والعيادات الطبية ينقص عن معدل زيادة عدد السكان بمقدار ثلاثين في المائة، وان المدارس الجديدة تستوعب من التلاميذ الجدد خمسين في المائة والباقين تصلهم خطابات اعتذار عن القبول.

قالت الدراسة ايضاً انه اذا كان اربعة اطفال يولدون في كل دقيقة بمصر كلها. فان ثلاثة منهم يولدون في الريف، وان جرائم العرض والثأر قد انتهت تقريباً لتحل مكانها نسبة عالية من جرائم السرقة والنهب والقتل تضع مصر في مقدمة « أقطار الجريمة » في العالم.

وانتهت الاطروحة الى القول ان العلاقات الاقطاعية القديمة ايام الملك والباشوات، عادت للظهور، ولكن بشراسة اكبر وحماية اقل للفلاحين . . . وانه بات من المشاهد العادية ان يعمل الفلاح وزوجته واولاده في قصر المالك، مقابل الطعام والكساء . ولم يعد الفلاح الصغير حريصاً على ملكية الأرض، بل هو يبيعها لأول مشتر من الملاك القادرين .

ومن النتائج العاجلة لهذا الوضع ان هبطت انتاجية الأرض، وانتشرت امراض المحاصيل، وارتفعت اسعار السلع الرئيسية .

ولم تستطع سيدة مصر الأولى ان تكمل . لم تصدق عينها أول الأمر، لا لهول « المعلومات » الواردة في الاطروحة والمؤيدة بمختلف الوثائق الرسمية، بل لأن « ابنتها » خانت الوفاء والأمل .

ولم تسكت زوجة الحاكم، فقبل يوم المناقشة المحدد بثمان واربعين ساعة وصلت فوزية من رئيس الجامعة وعميد الكلية ورئيس القسم رسالة بتأجيل المناقشة الى أجل غير مسمى .

ولم تفهم الفتاة، فاتصلت بسيدة مصر الأولى لتتدخل كشأنها دائماً طيلة ثماني سنوات .

وللمرة الاولى لم تسمع جواباً، لم يرد عليها أحد .

وسجلت الجامعة المصرية اول « بصمة عار » في تاريخها العلمي العريق .

(٢)

. .ولكن جريدة « الاهرام » سجلت يوم ١٨ الجاري شيئاً آخر، اذ نشرت مقالاً للسيدة الاولى في صفحتها الثقافية بعنوان « الثقافة الجادة . . والكتاب » قالت فيه انها زارت بلاد العالم وايقنت ان « الكتاب » وحده هو القيمة الحضارية الباقية في تاريخ الأوطان . واكتشفت « الكاتبة » ان الصين تضم اكبر عدد من القراء في العالم، وان الاتحاد السوفياتي يقدم الكتاب للمواطن كرغيف الخبز بأرخص الأسعار، وان الولايات المتحدة كانت

ترسل الكتب مع الذخيرة الى جنودها في ميادين القتال، وان الفرنسيين يقرأون في المترو .

وتذهب سيدة مصر الاولى في اكتشافاتها الى حد القول بأن المصريين ايضاً في الماضي ـ نعم في الماضي ـ كانوا يقطعون المسافات الطويلة قراءة في الكتب .

والطريف ان مقال جيهان السادات الحماسي عن « الثقافة الجادة » و « الكتاب » قد نشر تحت عنوان أشمل هو « هل الكتاب المصري في أزمة ؟ » . ويوحي مقال السيدة الاولى بأن غياب عادة القراءة من الطفولة هو السبب في هذه الأزمة . . . أي ان هناك كتباً وليس من يقرأها .

وأجدني ، انصافاً ، اهنىء السيدة الاولى على هذا المقال الجيد سواء كانت هي كاتبته او ان غيرها ، وهو الأرجح ، تطوّع بكتابته . . . فقد اعترفت بأن « بلاد العالم » تحتفل بالكتاب احتفالها بالحياة ، من اقصى الشرق الى اقصى الغرب . وأعترفت بأن المصريين في الماضي كانوا يقرأون .

ولكني اعتذر من « الكاتبة » ـ بعد التهنئة ـ اذا سمحت لي بالسؤال عن الاسباب التي لا تجعل مصر كبقية بلاد العالم . بل لا تجعلها كما كانت في الماضي بلدا قارئاً ؟ فطالما ان العنوان الشامل هو « هل الكتاب المصري في أزمة ؟ » كان عليها ان تفسر هذه الازمة في ضوء المقارنة التي تبرعت بعقدها بين الآخرين وبيننا من ناحية ، وبين ماضينا وحاضرنا من ناحية اخرى .

وليس الجواب ، بالقطع ، هو ان هناك كتباً وليس هناك قراء ، على الرغم من ان هذا صحيح ايضاً ، ولكن لماذا ؟

ان المصريين لم يتغيروا ، حتى تتغير عاداتهم في القراءة وغيرها ، هكذا بسرعة . لكن المصريين وغيرهم اذا قدمت لهم اطباق من السموم ليختاروا

من بينها ، فهم يفضلون الموت جوعاً على الانتحار .

لذلك فالاضراب المصري الشامل عن القراءة هو اضراب عن الموت بالسم الذي تقدمه دور النشر الحكومية الرسمية وغير الرسمية . انه الرفض القاطع لفكر النظام وثقافته .

وقد كان جديراً بالسيدة الاولى ـ ككاتبة ـ أن تسأل ادارة الرقابة بمصلحة الاستعلامات عن عدد الكتب المصادرة لكتّاب مصريين في الداخل والخارج . كما كان الاجدر بها ان تسأل المباحث العامة ومحكمة أمن الدولة عن عدد ونوع الكتب المصادرة عند متهمين بالقراءة . . ثم . . .

الم تمنعي ياسيدتي كتاباً من ان يرى النور، هو اطروحة « الفلاح والارض في مصر ـ السادات » لمجرد انه قال الحقيقة لاغير ؟

٧٩/١٢/٢٨

وثائق عن الحريّة في مصر

بعد غيبة أسبوعين عن الكتابة، أتيح لي فيهما أن ازور دمشق وطرابلس خلال الاعلان الوحدوي وبعده، وان اجمع من الانطباعات ما يستحق التسجيل... كذلك أتيح للاحداث في الشرق الاوسط أن تتخذ لنفسها مجرى عنيفا بين العراق وايران مما يستحق التفكير بصوت عال.

... الا انني استأذن في عرض ملف عاجل وصلني من القاهرة يضم عدة وثائق تشير بحسم الى مأساة الحرية في ظل النظام المصري الراهن، كنوع من الرد الفوري على تقرير لجنة العفو الدولية الذي صدر هذا الاسبوع، ويستثني مصر من بين الدول المهدورة الحرية.

كذلك، فان هذا الملف الوثائقي هو جزء من الرد الواجب على بعض الاشقاء العرب الذين يتوهمون ان الحرية ترفرف بجناحيها الاخضرين على وادي النيل قياسا الى الاوضاع في بقية الاقطار العربية.

وأحب في هذه المقدمة أن أعرض أوراق الملف على الوجه التالي:

أ ـ الوثيقة الاولى هي في الحقيقة ثلاث اوراق: نص الخطاب الذي بعث به خالد محي الدين عضو مجلس قيادة ثورة يوليو والامين العام لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي الى السيد ابراهيم نافع رئيس تحرير جريدة الاهرام القاهرية يطلب اليه نشر الرد المرفق على مقال نشره السيد نافع بالصحيفة المذكورة وغمز فيه من قناة الحزب الذي يرأسه خالد محي الدين.

وبالرغم من الحق القانوني الصريح لصاحب الرد في أن يتاح له نشر رده في المكان والحجم نفسه، اللذين اباحهما رئيس التحرير لنفسه، فقد رفضت الاهرام نشر الرد الذي ننشر هنا نصه الكامل . ـ الوثيقة الاولى ـ ؟

ب ـ الوثيقة الثانية، هي مسودة الحكم الصادر عن القضاء المصري لمصلحة المناضل خالد محي الدين ضد رئيس الوزراء ووزير الداخلية ومدير أمن القاهرة ومأمور قسم حلوان لمنعهم مهرجانا دعا اليه فرع حزب التجمع في حلوان احتفالا بالذكرى العاشرة لرحيل الزعيم جمال عبد الناصر .

ج ـ الوثيقة الثالثة هي نتائج القانون الذي أصدره مجلس الشعب في يوليو ـ تموز الماضي وصدق عليه رئيس الجمهورية باحالة الصحفيين الذين بلغوا الستين من العمر الى التقاعد . وهو القانون الاول من نوعه في تاريخ الصحافة المصرية، وربما تاريخ الصحافة في العالم، حيث يعامل الصحفي كما لوكان موظفا في الحكومة . ومن الطريف أن القانون يشمل أسماء الشيوخ الذين تعاون معظمهم مع الحكم الراهن .

د ـ الوثيقة الرابعة حول مصادرة كتاب « مصر الى أين؟ » لمحمد عبد السلام الزيات نائب رئس الوزراء في انقلاب ١٤ مايو ـ ايار ١٩٧١ فقد كان أحد الوجوه التقدمية التي تمكن السادات من احتوائها في أوائل عهده بتأكيده المستمر على انه يسير في طريق عبد الناصر . .

. . . ولكني أؤجل التعليق على الوثائق فلندعها أولا تتكلم .

الوثيقة الاولى:

السيد الاستاذ ابراهيم نافع

رئيس تحرير الاهرام

تحية طيبة وبعد:

نرفق طيه ردا على مقالكم المنشور بجريدة الاهرام يوم الجمعة ١٩ سبتمبر ١٩٨٠ على الصفحتين الاولى والثالثة تحت عنوان ـ الشعب يريد ان يبني والنشاط المشبوه يريد الهدم ـ والذي تناولت فيه بالاتهام والهجوم مواقف حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي وامينه العام:

رجاء التفضل بنشره في نفس المكان وبنفس الحجم خلال ثلاثة أيام تنفيذا لنص المادة ٢٤ من قانون المطبوعات المعمول به حاليا علما بأن الحزب على استعداد لدفع القيمة الاعلانية المطلوبة في حالة اذا ما كان الرد يتجاوز ضعف مقالكم موضوع الرد وذلك اعمالا لنفس المادة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

خالد محي الدين

الامين العام للحزب

القاهرة في ٢٣ ـ ٩ ـ ١٩٨٠

القاهرة في ٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٨٠

السيد الاستاذ خالد محي الدين الامين العام لحزب التجمع التقدمي الوطني الوحدوي

تحية طيبة وبعد:

بالاشارة الى كتابكم المؤرخ ٢٣ - ٩ - ١٩٨٠ بشأن مقال رئيس تحرير الاهرام المنشور بعدد الاهرام الصادر في ١٩ - ٩ - ١٩٨٠ تحت عنوان: - الشعب يريد ان يبني والنشاط المشبوه يريد الهدم -، وطلبكم نشر الرد المرفق به، تنفيذا لنص المادة ٢٤ من قانون المطبوعات.

نرجو التفضل بالاحاطة، وقبل ان نبدي ملاحظاتنا على الرد المرفق، ان نشير الى ان المقال المنشور بعدد الاهرام الصادر في ١٩ - ٩ - ١٩٨٠ - موضوع الرد - انما تضمن تحليلا لموقف مصر الاقتصادي وبيانا لما يبذل من جهد في كل مجالات التنمية.

وباستقراء ما جاء بردكم تبين انه بني على اراء شخصية لكم مما نأى بالتصحيح ان يكون له علاقة بالمقال الاصلي، بل انكم تهدفون ان يقوم الاهرام بنشر بعض المواد التي سبق نشرها في نشرتكم الداخلية - التقدم -، والتي استندتم الى ما سبق نشره بها، كما ذكرتم في الرد.

وليس ثمة الزام قانوني على الاهرام الذي يوزع على اوسع نطاق ان ينشر ما تكتبونه في نشرتكم الداخلية - التقدم - خاصة وانه لا يتعلق بما تم نشرة بالمقال.

ومما يقطع بخروج الرد عن الشروط القانونية المقررة للالزام بنشره، تعرضكم لذكر أحداث ١٨ و ١٩يناير ١٩٧٧ على سبيل المثال، ونعتقد انه لا توجد ثمة علاقة بين تلك الاحداث وما ورد بالمقال موضوع الرد.

لما كان ذلك، وكان ردكم يفتقر الى الشروط التي يطلب القانون توافرها حتى يكون هناك الزام قانوني بنشر الرد، فاننا نعتذر عن نشر ردكم المطول، مستندين في ذلك الى صحيح حكم القانون.

وتفضلوا بقبول صادق التحية.

رئيس التحرير

رد على رئيس تحرير الاهرام

كتب السيد ابراهيم نافع رئيس تحرير الاهرام مقالا بعنوان ـ الشعب يريد ان يبني والنشاط المشبوه يريد الهدم ـ في عدد الاهرام الصادر يوم الجمعة الماضي ١٩ سبتمبر وتعرض في هذا المقال لموقف المعارضة وبصفة خاصة حزبنا ـ التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ـ من سياسة الحكومة الاقتصادية وقضية التنمية والرخاء وكعادة الصحف ـ القومية ـ وكتابها من المؤيدين للحكومة، عندما يتعرضون لموقف المعارضة ولحزبنا خاصة، اتهم السيد ابراهيم نافع المعارضة بانها ـ تأبى الموضوعية وتصر على رفع الشعارات الجوفاء وعلى المزايدات السياسية بل وعلى استمرار الاساءة الى مصر وشعبها، من خلال خلق مناخ خارجي وداخلي كاذب عما يجري داخلها ـ واتهمها ايضا بالعمالة وتنفيذ التعليمات التي تأتي من دولة خارجية واستغلال متاعب ومشاكل الجماهير . . الى اخر القائمة المعروفة .

وكان ظهور هذا المقال بمناسبة موضوع نشر في صحيفة ـ الجارديان ـ البريطانية وورد فيه بعض فقرات حول رأي حزبنا في الاوضاع الاقتصادية السيئة التي تمر بها مصر .

وليسمح لي السيد رئيس تحرير الاهرام ببعض ملاحظات ـ هادئة ـ حول بعض، وليس كل، ما جاء في هذا المقال المنشور في صحيفة المفروض انها قومية، والمفروض انها مفتوحة لكل الاراء وليس حكرا عل حزب او حكومة او فرد .

● وبداية فمما يثير الدهشة والعجب، ذلك الحماس الغريب للرد والتعليق على تصريح ورد في صحيفة الجارديان البريطانية. بينما تسكت الصحافة المصرية ويسكت السيد رئيس تحرير الاهرام عن كل ما نقوله وننشره من نقد واراء وبدائل للسياسات الحكومية و تنقله عنا الصحف العربية والدولية. فكما يعلم السيد رئيس تحرير الاهرام فحزبنا ينشر في نشرته الداخلية - التقدم - كثيرا من الحقائق - التي لا تجد طريقها الى الشعب المصري عبر اجهزة الصحافة والاعلام المحتكرة للحزب الوطني - حول تردي اوضاعنا الاقتصادية - وسوئها في ظل السياسات الحالية، والاخطار الاقتصادية الناجمة عن اتفاقية الصلح بين الحكومة المصرية واسرائيل وما يسمى بسياسة - التطبيع - كذلك فقد طبع حزبنا ردودا موضوعية مدعمة بالارقام والبيانات المستمدة من البيانات الحكومية - بصرف النظر عن مدى دقة البيانات الحكومية - وبيانات البنك الدولي المنظمة الدولية المعتمدة والموثوق بها جدا من طرف حكومتنا، حول برامج الحكومات المتتالية وسياساتها الاقتصادية، في يناير ١٩٧٧، وفي ١٩٧٨، ١٩٧٩، وفي يناير ١٩٨٠ ومايو ١٩٨٠. وبالاضافة الى برنامج الحزب. وكلها تحت نظركم. ومستعدون لنشرها ومناقشتها اذا كان ثمة رغبة في مناقشة موضوعية.

والغريب واللافت للنظر ان الاهرام والصحافة المصرية لم تحاول - ولو مرة واحدة - مناقشة اي من هذه الردود او التعليق عليها بالاتفاق او الاختلاف، رغم ما فيها من نقد حقيقي وقاسٍ لكل أسس السياسات الحكومية وممارساتها الخاطئة، وتنبىء هذه الدراسات العلمية بكل الازمات الطاحنة التي عاشتها وتعيشها مصر هذه الأيام كنتيجة للسياسات الاقتصادية المتبعة منذ منتصف السبعينات وتقديمها للبديل العلمي المدروس لحل كل مشاكل المجتمع المصري.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، ذكرت هذه الدراسات مجموعة من الحقائق حول اوضاعنا الاقتصادية المتدهورة سأكتفي منها بأربع حقائق لا اعتقد

انها تغيب عن علم السيد رئيس تحرير الاهرام . .

١ - الحجم الرهيب والمفزع الذي بلغته مديونية مصر للعالم الخارجي، لقد ارتفعت المديونية من ٢,١ الف مليون دولار عام ١٩٧٣ الى أكثر من ١٤,٥ الف مليون دولار في نهاية عام ٧٩ منها ما يزيد عن ١١ الف مليون دولار تم سحبه واستخدامه بالفعل. أي ان كل مصري من اصغر طفل ولد بالامس الى اكبر مسن، مدين حاليا بمبلغ ٣٧٢,٥ دولار، وهو ما يتجاوز المتوسط السنوي لدخل الفرد والذي يقدره البنك الدولي بـ ٣٤٠ دولار وترتب هذه الديون عبئا سنويا لدول الغرب الرأسمالي وحدها - وهي الدائن الرئيسي - يقدر ب - ١٤٠٠ - مليون دولار، اي ما يساوي ٢٥٪ من حصيلة صادرات مصر .

ويصاحب هذه المديونية المخيفة ارتفاع عجز الميزان التجاري من ٦٦١,١ مليون دولار عام ٧٣ الى ٣٥٧٠ مليون دولار عام ١٩٧٩ .

٢ - لم تؤد سياسة الانفتاح الى تدفق رؤوس الاموال الاجنبية التي ستحمل معها التكنولوجيا الحديثة كما كانت - وما تزال - تزعم حكومتنا وصحافتنا فطبقا لارقام البنك الدولي فان الاستثمارات الاجنبية القادمة لمصر في ظل سياسة الانفتاح تراوحت ما بين ٧٠ مليون دولار عام ١٩٧٤ و ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٩ ، وبلغ اجمالي ما وفد لمصر من استثمارات خلال هذه الفترة أي في ٦ سنوات ١٨٨٤ مليون دولار، وهو رقم متواضع لا يزيد عن ١٢,٦ ٪ من حجم المديونية الخارجية لمصر وطبقا لبيانات الحكومة فان المصريين العاملين في الخارج - واغلبهم في البلاد العربية التي تعاديها حكوماتنا اليوم - اسهموا ب ٥٨ ٪ من هذه الاستثمارات واسهم العرب ب ٢٤ ٪ ولم يزد نصيب الدول الغربية في هذه الاستثمارات عن ١٨ ٪ فقط - ٣٣٩,١ مليون دولار .

واتجه رأس المال الغربي في المقام الاول الى البنوك - ١٧فرعا، ١٩ بنكا مشتركا، رأسمالها ١٣١,٤ مليون جنيه - ثم استولت بعض شركاته

على بعض شركات القطاع العام بحجة تطويرها بصفة عامة وكما قالت الاهرام في ١٦ مايو ٧٩، اتجهت الاستثمارات الانفتاحية الى قطاع التجارة والمال والاسكان الفاخر والسياحة . اما المشروعات الصناعية فاهمها كما قال وزير الدولة للتعاون الاقتصادي في ذلك الوقت، المياه الغازية والمعكرونة والثلج واللبن الزبادي والزبد والملابس الجاهزة والتريكو والمشاركة في مشروعات المساكن الجاهزة والطوب والاسمنت .!!!

٣ ـ ادت هذه السياسة الخاطئة الى ارتفاع هائل في الاسعار ومعادلات عالية من التضخم وسوء بالغ في توزيع الدخل .

لقد ارتفع معدل التضخم من ٢٥ ٪ عام ٧٥ الى ٣٠ ٪ عام ٧٧ الى ٣٥ ٪ عام ٧٨ الى ٤٠ ٪ عام ٧٩ واكثر من ذلك عام ٨٠ ، اذا اخذنا بأقل الارقام تواضعا .

وكما هو معروف فان التضخم المستمر يؤدي الى انخفاض الدخول الحقيقية للمواطنين، والى اعادة توزيع الدخل القومي لغير صالح اصحاب الدخول الثابتة وهم القاعدة العريضة من المواطنين، ولصالح الفئة القليلة من المضاربين والطفيليين والرأسمالية الكبيرة .

ولادراك الحكومة لهذه الحقيقة ترفض اجراء اي دراسة على نمط الدخل القومي في البلاد وتعتبر مجرد الاشارة الى هذا الموضوع امرا خبيثا يهدد السلام الاجتماعي . مع ان هذه الدراسات تجري بانتظام في كل الدول الرأسمالية لتهتدي بها الحكومات في سياساتها الاجتماعية وكان لا بد للمصريين ان ينتظروا حتى يجري البنك الدولي تقديرا لتوزيع الدخول في مصر حتى يعرفوا بالارقام ما يدركونه من واقع حياتهم اليومية من تناقض بين تدهور مستوى معيشة اوسع الجماهير في حين يضرب الانفاق البذخي لاصحاب الملايين الجدد امثالا خيالية . يقول البنك الدولي انه في عام ٧٧ كان ٥ ٪ من سكان مصر يحصلون على ٢٢ ٪ من الدخل القومي اي ما بين خمس وربع هذا الدخل، بينما خمس سكان مصر ـ ٢٠ ٪ ـ لا

يحصلون على أكثر من ٥,١ ٪ فقط من الدخل الذي اسهموا بعرقهم في توليده واذا كان هذا هو الوضع عام ٧٧ فما هو حالنا الان بعد - ٣ - سنوات من الانفتاح .

ولقد اقلق هذا الوضع الدائنين الغربيين واثارته المجموعة الاستشارية في اجتماعها الاخير بباريس موصية الحكومة المصرية بالاهتمام باعادة توزيع الدخل القومي على نحو اكثر عدالة .

٤ - تفاقم العجز في ميزانية الدولة وهو امر لا يعود كما تدعي الحكومة للدعم الذي انخفض نصيب الفرد الحقيقي منه في عام ١٩٨٠ عن عام ١٩٧٠ بمقدار ٩,٢ جنيه نتيجة لارتفاع الاسعار والتضخم وزيادة - السكان . . وانما يعود اساسا الى الانفاق المتزايد على القوات المسلحة - في عصر السلام - والانفاق الباهظ على قوى الامن الداخلي وفي مقدمتها جهاز الامن الداخلي المركزي . فقد ارتفعت استثمارات الدفاع والامن والعدالة من ٢٢,٠٩ مليون جنيه عام ٧٩ الى ٧٨,١ مليون جنيه عام ١٩٨٠ . كما يعود ايضا الى الاعفاءات السخية التي تمنح لكل نشاط انفتاحي . وهو ما استوقف البنك الدولي فقال: ان تشجيع المشروعات المشتركة ضروري شريطة ان تظل تلك المشروعات ادوات لنقل التكنولوجيا وادوات التصنيع . أما منح كل هذه الاعفاءات لاي شيء يقام باسم الانفتاح فهو حرمان الدولة من حصيلة الضرائب فضلا عن الاضرار بالتنمية .

● الملاحظة الثانية تتعلق بالارقام الجديدة التي - فاجأنا بها السيد رئيس تحرير الاهرام . ان كل ما ورد في دراساتنا وردودنا على الحكومة من بيانات مستندة الى ارقام من مصادر حكومية او دولية ولا نعرف المصدر الرسمي الذي استقى منه رئيس تحرير الاهرام ما قاله عن وجود رصيد هائل من مئات الملايين لدى مصر . واذا صح الخبر فأنه يسعدنا جميعا سعادة بالغة . ولكن الارقام التي كانت متاحة امامنا عند اعدادنا لردنا على بيان الحكومة ١٤ مايو ١٩٨٠ وهي ارقام البنك المركزي المصري والبنك

الدولي تخالف ما ذكره السيد رئيس تحرير الاهرام. ومن حقنا ان نتساءل ماذا حدث من يونيه الى سبتمبر ١٩٨٠ يتضح فجأة ان هناك رصيدا هائلا من مئات الملايين من الدولارات؟

ومع ذلك، فلو صح ان هناك مثل هذا الرصيد الضخم من الاموال الاجنبية في البنوك، فان مسؤولية الحكومة عن استمرار الازمة الاقتصادية، خاصة ازمة المواد الغذائية وازمات المرافق والخدمات من اسكان ومواصلات وتعليم تصبح مسؤولية مضاعفة.

ومشكلة الغذاء في مصر مشكلة خطيرة. فنسبة العائلات ـ الاسر ـ التي تحصل على دخل اقل من ٢٥٠ جنيه سنويا تمثل ٤٥ ٪ من جملة الاسر في مصر، وحوالي ٣٠ ٪ من جملة الاسر الحضرية، في حين انها تمثل ٥٨ ٪ من الاسر في صعيد مصر. وطبقا لدراسة لمنظمة العمل الدولية عن الفقر في مصر تعاني هذه الاسر من سوء التغذية. وتشير هذه الدراسة الى ان هذه الاسر تعاني من ٢٥ ٪ نقص في السعرات الحرارية المطلوبة يوميا للفرد، كذلك فان نسبة البروتين الحيواني الى جملة السعرات الحرارية لا تزيد عن ٦٫٣ ٪ من جملة السعرات الحرارية المتولدة ويشير بحث آخر لهيئة المعونة الاميركية ان ٢٠ ٪ من الاطفال في مصر يعانون من سوء في التغذية، و ٢٥ ٪ من اطفال العمال الزراعيين الاجراء يعانون من نقص واضح في التغذية.

ومع ذلك فان مصر تعتمد على الخارج في غذائها. لقد ارتفعت نسبة القمح المستورد من الخارج من ٣٠ ٪ ١٩٧٣ الى ٧٥ ٪ عام ١٩٧٩ أي ان ثلاثة ارغفة من كل اربعة يعتمد على الخارج. وقد نبهت المجموعة الاستشارية في ديسمبر ١٩٧٩ الى خطورة ظاهرة العجز الغذائي في مصر، بعد ان اصبحنا نستورد ٤٠ ٪ من مجموع غذائنا من الخارج.

ومن حقنا ان نتسائل بصرف النظر عن الارقام الجديدة التي بشرنا بها

رئيس تحرير الاهرام - اين تذهب كل الاموال التي تدخل الى مصر من الخارج . فنتيجة لتحويلات المصريين العاملين في الخارج وصادرات البترول وعائدات قناة السويس والقروض الاجنبية، ارتفع متوسط تدفق الاموال من الخارج من ٦٠٠ مليون دولار سنويا في الفترة ٦٧ الى ١٩٧٣ ليصل ٣٥٠٠ مليون دولار سنويا في السنوات الخمس الاخيرة ورغم هذا الارتفاع في تدفق الاموال خلال السنوات الخمس الاخيرة فالصورة عكسية، لقد شهدت الفترة السابقة من ٦٨ الى ١٩٧٢ استكمال بناء السد العالي والمرحلة الاولى من مجمع الحديد والصلب وبناء الجيش الجديد الذي خاض حرب اكتوبر وكانت معاناة الجماهير اقل مما تعانيه الان .

ومن حقنا ايضا ان نقول للحكومة ان الامن الغذائي ليس هو استخدام حصيلة ايرادات البترول وفائض هيئات اقتصادية مثل قناة السويس في استيراد استهلاكي حال لا يضيف الى القدرة الانتاجية للاقتصاد القومي .

● الملاحظة الثالثة والاخيرة حول ما ذكره السيد رئيس التحرير من ان - اعمال وتصريحات رئيس هذا الحزب وجماعته، هي استمرار لتنفيذ سياسة واضحة المعالم تركز دائما على رفض ما توافق عليه الاغلبية المصرية او استغلال متاعب ومشاكل الجماهير لخلق مناخ يحلمون به للسيطرة على الحكم او تنفيذ تعليمات تأتي من دولة خارجية لها كل الاطماع في بلدنا وفي المنطقة التي نعيش فيها .

ان بعض هذه الاسطر تدخل في مجال القذف والسب ويعاقب عليها القانون وهو امر لم يعد ممكنا السكوت عليه، وللقانون وسائله المعروفة لوضع الحق في نصابه ومع ذلك فليسمح لي رئيس تحرير الاهرام بكلمة هادئة جدا .

ان الاتهام بتنفيذ تعليمات تأتي من دولة خارجية اي بالعمالة، اتهام

رخيص ومرفوض. فحزبنا لم يفرط في حبة رمل من ارض الوطن، أو في قطرة ماء من نيلها، ولم يقبل بوجود قوات او قواعد اجنبية فوق ارض الوطن، أو بأي تفريط في السيادة الوطنية، او في ضرورات الدفاع الوطني. ورغم تكرار الحملات من الحكومة وصحفها ضد حزبنا وقادته واستخدام كلمات الخيانة والعمالة فإن حزبنا لم يلجأ الى وصف كثير من الممارسات الحكومية المرفوضة من جانبنا بانها خدمة لمصالح دولة أجنبية وعمالة لها، كما تتهمها بذلك قوى اخرى مصرية وعربية والغريب ان الحكومة وصحفها تلجأ في مواجهة أي نقاش جاد او نقد لسياساتها الى مثل هذه الاتهامات، بدلا من مقارعة الحجة بالحجة والرأي بالرأي.

لقد تعرض حزبنا عقب مظاهرات ١٨، ١٩ يناير الى حملة شرسة شارك فيها قادة الحكومة جميعا وصحفها وصحفيوها، اتهمنا خلالها بالمسؤولية عن عمليات التخريب وبالعمالة لدولة اجنبية وبالخيانة ونشرت الصحف طوال عامين اخبار وتعليقات تناولت الحزب وقادته بافظع التهم. وعندما قال القضاء كلمته في هذه الاحداث وبرأ كل المتهمين ومنهم بعض اعضاء حزبنا، وصمت المسؤولون وصمتت الصحف. لقد قال القضاء في ١٩ ابريل ١٩٨٠ كلمته. وجاء فيها بالنص:

ومن حيث ان المحكمة قبل مناقشتها لادلة الثبوت في الدعوى لا بد لها ان تعرض بالبحث والدراسة لاحداث ١٨، ١٩ من يناير ١٩٧٧ تلك الاحداث التي اورد قرار الاتهام ان المتهمين قد حرضوا عليها وشاركوا فيها، سواء بالتجمهر او قيادة المظاهرات، وما صاحب ذلك من حرق وتخريب واتلاف وجرائم اخرى عديدة.. ولكن المحكمة وهي تتصدى لتلك الاحداث بالبحث والاستقصاء لعلها ان تكتشف عللها واسبابها وحقيقة امرها لا بد أن تذكر ابتداء ان هناك معاناة اقتصادية كانت تاخذ بخناق الامة المصرية في ذلك الحين، وكانت هذه المعاناة تمتد لتشمل بجمل نواحي الحياة والضرورات الأساسية للانسان المصري. فقد كان المصريون

يلاقون العنت وهم يحاولون الحصول على طعامهم وشرابهم، ويجابهون الصعاب وهم يواجهون صعودا مستمرا في الاسعار مع ثبات مقدار الدخول، ثم ان المعاناة كانت تختلط بحياتهم اليومية وتمتزج بها امتزاجا. فهم مرهقون مكدودون في تنقلهم من مكان الى اخر بسبب ازمة وسائط النقل. وهم يقاسون كل يوم وكل ساعة وكل لحظة من نقص في الخدمات وتعثر فيها. وفوق ذلك كان ان استحكمت أزمة الاسكان وتطرق اليأس الى قلوب الناس، والشباب منهم خاصة من الحصول على مسكن، وهو مطلب اساسي تقوم عليه حياتهم وتنعقد امالهم في بناء أسرة ومستقبل ووسط هذه المعاناة والصعاب كان يطرق اسماع المصريين اقوال المسؤولين والسياسيين من رجال الحكومة في ذلك الوقت تبشرهم باقبال الرخاء وتعرض عليهم الحلول الجذرية التي سوف تنهي ازماتهم وتزين لهم الحياة الرغدة الميسرة المقبلة عليهم. وبينما افراد هذا الشعب غارقون في بحار الامال التي تبثها اجهزة الاعلام صباح مساء، - اذ بهم وعلى حين غرة يفاجؤون بقرارات تصدرها الحكومة ترفع بها اسعار عديد من السلع الاساسية، التي تمس حياتهم واقواتهم اليومية، هكذا دون اعداد او تمهيد. فأي انفعال زلزل قلوب هؤلاء الناس واي تناقض رهيب بين الامال وقد بثت في قلوبهم تلك القرارات، وبين الاحباط اصابهم به صدورها ومن اين لجل هذا الشعب ومعظمهم محدود الدخل، ان يوائمون بين دخول ثابتة وبين اسعار اصيبت بالجنون. واذ بفجوة هائلة تمزق قلوب المصريين ونفوسهم، بين الامال المنارة والواقع المرير. وكان لهذا الانفعال وذلك التمزق ان يجدا لهما متنفسا. واذا بالاعداد الهائلة من هذا الشعب تخرج مندفعة الى الطرقات والميادين وكان هذا الخروج توافقيا وتلقائيا محضا. واذا بهذه الجموع تتلاحم هادرة - زاحفة معلنة سخطها وغضبها على تلك القرارات التي وأدت الرجاء وحطمت الامال. وحاولت جهات الامن ان تكبح الجماع وتسيطر على النظام، ولكن انى لها هذا، والغضب متاجج والآلام مهتاجة. ووسط هذا البحر الهادر وجد المنحرفون والمخربون والصبية سبيلا الى

ارضاء شهواتهم الشريرة فاذا بهم ينطلقون محرقين ومخربين ومتلفين وناهبين للاموال، وهم في مأمن ومنجاة. وقد التهبت انفعالات هذه الجموع وتأجج حماسهم عندما تعرض لهم رجال الامن المركزي بعصيهم ودروعهم وقنابلهم المسيلة للدموع. فكان أن اشتعلت الاحداث وسادت الفوضى. ولم يكن من سبيل لكبح الجماح واعادة الامن والنظام الا فرض حظر التجول ونزول رجال القوات المسلحة الى الميدان. وامكن حينئذ وبعد جهد خارق استعادة الامن والنظام.

والذي لا شك فيه وتؤمن به هذه المحكمة ويطمئن اليه ضميرها ووجدانها، ان تلك الاحداث الجسام التي وقعت يومي ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧، انما كان سببها المباشر الوحيد هو اصدار القرارات الاقتصادية برفع الاسعار، فهي متصلة بتلك القرارات اتصال المعلول بالعلة والنتيجة بالاسباب. ولا يمكن في مجال العقل والمنطق ان ترد تلك الاحداث الى سبب اخر غير تلك القرارات. فلقد اصدرت على حين غرة وعلى غير توقع من احد وفوجىء بها الناس جميعاً بما فيهم رجال الامن، فكيف يمكن في حكم العقل ان يستطيع احد ان يتنبأ بها. ثم يضع خطة لاستغلالها، ثم ينزل الى الشارع للناس محرضا ومهيجا. ان هذا الفرض غير معقول ولا معقول، ذلك انه لم يقع اي فاصل زمني ما بين اعلان القرارات وخروج الناس فما كادوا يقرأون ويسمعون حتى خرجوا مندفعين من تلقاء انفسهم لم يحرضهم احد ولم يدفعهم فرد او تنظيم ليعلنوا سخطهم وغضبهم.

الاتهام الثاني الذي ورد في كلام السيد رئيس تحرير الاهرام، هو استغلال متاعب الجماهير للسيطرة على الحكم. وبداية، نعم نحن نسعى للوصول الى الحكم، وهذا حقنا وواجبنا نحو شعبنا. نحن نسعى للوصول للحكم من اجل تنفيذ برنامجا اقره المؤتمر العام الاول للحزب في ابريل الماضي والذي نؤمن انه البرنامج الصحيح لانقاذ البلاد مما تعانيه من مشاكل وازمات ولا أظن ان السعي للوصول للحكم او الاحتفاظ به ـ سبة او تهمة

ـ فأي قوة سياسية منظمة في اي مكان من العالم لا تستحق الوجود ان لم تكن تسعى لتنفيذ ما تنادي به عن طريق الوصول للحكم. اللهم الا اذا كنتم تعتبرون ان الحكم امر يخص الحزب الوطني وحده وليس لحزب آخر ان يسعى اليه. الفارق الوحيد بيننا وبينكم اننا نسعى للحكم عن طريق اقناع الجماهير المصرية ووضع الحقائق امامها وشرح برنامجنا ونقد برامج الاحزاب الاخرى وممارساتها. اي اننا نسعى للحكم عن طريق الديمقراطية وهو امر طبيعي فاليسار المصري هو القوة المصرية التي ضحت وما تزال تضحي دفاعا عن الديمقراطية الصحيحة. والسجون والمعتقلات طوال تاريخ مصر الحديثة شاهد حي على ذلك.. بينما الحزب الوطني الديمقراطي يسعى للاحتفاظ بالحكم بوسائل واساليب غير ديمقراطية باحتكار التعبير عن الرأي وتجريم آراء القوى الاخرى ومن القوانين والشريعات المقيدة للحريات بدءا من القرار بقانون رقم ٢ لسنة ٧٧ الى قانون العيب ومحاكم امن الدولة، والاعتماد على اجهزة الامن وفي مقدمتها مباحث امن الدولة لارهاب القوى السياسية الديمقراطية ومنع الاجتماعات الحزبية الجماهيرية واخرها منع احتفال بشهر رمضان في الوايلي واحتفال الحزب بعيد الفلاح في سنورس، واغلاق صحيفة الحزب ـ الاهالي ـ والقبض على اعضاء الحزب وهم يوزعون بياناته الى حد القبض على ٤٠ عضوا في يوم واحد لتوزيعهم بيان يدعو لعدم التعامل مع الاسرائيليين واقتحام مقر الحزب ونهبه ٤ مرات متتالية ـ الى غير ذلك من الاساليب.

اما الحديث عن استغلال متاعب الجماهير وخلق المناخ فالسؤال هنا هل لو صمت حزب التجمع عن كشف الحقائق، هل سيجد الناس المسكن والمأكل والملبس دون متاعب او معاناة وهل سيختفي مناخ الازمة وتحل مشاكل الجماهير.

لسنا يا سيدي نحن الذين خلقنا الازمة او المتاعب. وانما الحكومة هي

المسؤولة عن ذلك ومسؤوليتنا أن نقول للناس الحقيقة ونضعهم على الطريق الصحيح .

والقول باننا نركز على رفض ما توافق عليه الاغلبية المصرية . قول مردود . فقبل التحدث عن اغلبية واقلية لا بد اولا من ان يعرف الشعب الحقائق كاملة والاراء كلها دون وصاية من احد .

فلنجرب مرة واحدة الاحتكام الديمقراطي للشعب ولتلغى عشرات القوانين القديمة والحديثة المقيدة للحريات والتي لا مثيل لها الا في النظم الدكتاتورية .

لتصدر الاحزاب صحفها دون منع أو وصاية من الحزب الحاكم . ولتقل كلمتها في الصحافة المسماة بالقومية وفي الاذاعة والتلفزيون، ولتطرح برامجها دون حصار بوليسي أو اعلامي . ولتعقد مؤتمراتها دون منع بقرارات ادارية من وزير داخلية الحزب الحاكم بحجة دواعي الامن، تلك الحجة البالية التي عفى عليها الزمن.وبعد ان يتحقق كل ذلك وليس قبله نستطيع ان نتكلم عن الأغلبية المصرية ورأي الأغلبية وحكم الاغلبية،وقتها نستطيع ان نحتكم للشعب في انتخابات حرة ليختار الحزب والبرنامج الذي يريده لا الذي يراد له . وسنقبل حكم الشعب مهما كان .

خالد محي الدين

الامين العام لحزب التجمع

الوطني التقدمي الوحدوي

تحريرا في : ٢٣ ـ ٩ ـ١٩٨٠

الوثيقة الثانية

مسودة الحكم الصادر في الدعوى رقم ٢٤٨٦ لسنة ٣٤ قضائية المقامة من السيد خالد محيي الدين بصفته ممثلا لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

ضد السادة

١ ـ رئيس مجلس الوزراء

٢ ـ وزير الداخلية

٣ ـ مدير أمن القاهرة

٤ ـ مأمور قسم حلوان

الوقائع

أقام المدعي هذه الدعوى بعريضة اودعت قلم كتاب المحكمة في ٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٨٠ قال فيها انه أرسل في ٣ ـ ٩ ـ ١٩٨٠ عن طريق ممثل الحزب في حلوان الى السيد مأمور قسم شرطة حلوان اخطارا بأن الحزب قرر تنظيم احتفال جماهيري مساء يوم ٢٨ ـ ٩ ـ ١٩٨٠ بميدان المحطة بحلوان احياء للذكرى العاشرة لرحيل الزعيم جمال عبد الناصر. وبتاريخ ٢٣ ـ ٩ ـ ١٩٨٠ استدعي ممثل الحزب بحلوان واخطر بمقتضى المحضر الاداري رقم ٦٦٢٧ بأن قرارا صدر من وزارة الداخلية برفض الاحتفال ومنع اقامة سرادقات.

واستطرد المدعي ان المادة ٥٤ من الدستور تنص صراحة على أن للمواطنين حق الاجتماع الخاص في هدوء غير حاملين سلاحا دون حاجة الى اخطار سابق ولا يجوز لرجال الامن حضور اجتماعاتهم الخاصة كما ان

الاجتماعات العامة والمواكب والتجمعات مباحة في حدود القانون رقم ٤٠ لسنة ١٩٧٧ الخاص بالاحزاب السياسية ومنها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي . . بهذه المثابة فان حق الاجتماعات العامة ليس منحة من الادارة بل حق أصيل للمواطنين ويعتبر بالنسبة للاحزاب السياسية المشروعة من صميم نشاطاتها المحصن دستوريا . كما انه وفقا لاحكام القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٢٣ لا تقتضي الاجتماعات العامة طلبا من صاحب الشأن ولا يلزم صدور قرار بالترخيص من جهة الادارة بل يكفي اخطار هذه الجهة بزمان ومكان الاجتماع .

واضاف المدعي ان الاحتفال بذكرى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لا تتكرر الا كل عام وتفقد مناسبتها اذا انطوى شهر المناسبة بدون ذكراها ، ومن ثم تتوافر حالة الاستعجال .

وانتهى المدعي الى طلب الحكم بوقف تنفيذ والغاء القرار الصادر بمنع اقامة الحفل المشار اليه مع الزام جهة الادارة بالمصروفات .

وتحدد لنظر طلب وقف التنفيذ جلسة اليوم ـ السبت ٢٧ ـ ٩ ـ ١٩٨٠ وفيها ابدى الحاضر عن الحكومة دفعا بعدم قبول الدعوى لرفعها على غير ذي صفة ولرفعها بغير الطريق القانوني لعدم التظلم من القرار المطعون فيه الى وزير الداخلية ـ وفي الموضوع طلب الحكم برفض الدعوى لان الطلب المقدم من ممثل الحزب لم يحدد لجنة للاشراف على الاجتماع طبقا لنص المادة السادسة من القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٢٣ ولان جهة الادارة ارتأت منع الاجتماع للاسباب الواردة بتقرير مدير امن القاهرة المؤرخ ٢٥ ـ ٩ ـ ١٩٨٠ والذي أودع صورة منه . وقد عقب الحاضر عن المدعي على ما ابداه الحاضر عن الحكومة فطلب برفض الدفع وبوقف تنفيذ القرار .

وقررت المحكمة اصدار الحكم في نهاية الجلسة وفيها صدر واودعت مسودته المشتملة على أسبابه عند النطق به .

المحكمة

بعد الاطلاع على الاوراق وسماع الايضاحات والمداولة .

من حيث ان المدعي بصفته يطالب بوقف تنفيذ والغاء القرار الصادر بمنع اقامة الاحتفال الذي يزمع حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي اقامته بمنطقة حلوان مساء يوم ٢٨ - ٩ - ١٩٨٠ بميدان المحطة بحلوان احتفالا بالذكرى العاشرة لرحيل الزعيم جمال عبد الناصر .

ومن حيث انه بالنسبة الى الدفع الذي أبداه الحاضر عن الحكومة بعدم قبول الدعوى فان البادي من الاوراق ان القرار المطعون فيه صدر من مأمور قسم شرطة حلوان، واذا كان ذلك وكان المدعي قد اختصم وزير الداخلية باعتباره الممثل القانوني لوزارة الداخلية التي يتبعها مصدر القرار - فمن ثم تكون الدعوى قد رفعت على صاحب الصفة قانوناً . اما عن عدم التظلم الى وزير الداخلية قبل رفع الدعوى فان المادة ٤ من قانون الاجتماعات العامة رقم ١٤ لسنة ١٩٢٣ لم تجعل من التظلم امرا وجوبيا - بل هو امر جوازي لصاحب الشأن ان شاء لجأ اليه وان شاء رفع دعواه بطلب الغاء القرار مباشرة .

ومن حيث انه تأسيسا على ما تقدم يتعين الحكم برفض الدفع المبدي بعدم قبول الدعوى بشقيه .

ومن حيث انه عن طلب وقف تنفيذ القرار المطعون فيه فانه من المسلم ان طلب وقف تنفيذ القرار الاداري ينبغي ان يقوم على ركنين أولهما جدية الاسباب بأن يكون قائما بحسب ظاهر الاوراق ودون التغلغل في الموضوع على اسباب يرجح معها الحكم بالغاء القرار وثانيهما ركن الاستعجال بأن يترتب على الاستمرار في تنفيذ القرار نتائج يتعذر تداركها فيما لو قضى بالغائه .

ومن حيث ان البادي من الاوراق - وبالقدر اللازم للفصل في طلب

وقف التنفيذ - ان امين حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي بقسم حلوان تقدم بكتاب الى مأمور قسم الشرطة بحلوان بتاريخ ٣ - ٩ - ١٩٨٠ يبلغه فيه ان الحزب بمنطقة حلوان قرر تنظيم احتفال جماهيري مساء يوم ٢٨ - ٩ - ١٩٨٠ بميدان المحطة بحلوان احتفالا بالذكرى العاشرة لرحيل الزعيم الخالد جمال عبد الناصر. غير أن قسم شرطة حلوان اصدر قراره المطعون فيه برفض اقامة هذا الاحتفال.

ومن حيث انه بالنسبة لما أبداه الحاضر عن الحكومة من عدم تحديد لجنة للاشراف على الاجتماع فان هذا القول مردود بأن اغفال هذا التحديد لا يبرر عدم الموافقة على اقامة الاحتفال، لانه كان بامكان جهة الادارة المطالبة ببيان اعضاء تلك اللجنة ولان الفقرة الاخيرة من المادة السادسة من القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٢٣ المشار اليه تنص على انه - اذا لم ينتخب المجتمعون لجنة تكون اللجنة المؤلفة من الاعضاء المبينين في الاخطار.

ومن حيث ان المستفاد من تقرير السيد مدير أمن القاهرة اسباب صدور القرار المطعون فيه تجمل في خشية امتداد يد الشغب اليها.

ومن ان المادة الرابعة من القانون رقم ١٤ لسنة ١٩٢٣ تنص على انه - يجوز للمحافظ او لسلطة البوليس في المركز منع الاجتماع اذا رأوا ان من شأنه أن يترتب عليه اضطراب في النظام أو الامن العام بسبب الغاية منه او بسبب ظروف الزمان والمكان الملابسة له او اي سبب خطير غير ذلك - ومفاد ذلك ان مجرد الخشية من وقوع اضطراب لا تصلح سببا لمنع الاجتماع لان مثل هذا الامر محتمل الوقوع بالنسبة الى أي اجتماع وقد عالجه المشروع في المادة السابقة من القانون المذكور بما منحه للشرطة من حق حضور الاجتماع لحفظ النظام والامن ولمنع كل انتهاك لحرية القانون بل وحل الاجتماع في حال وقوع اضطراب شديد او القاء خطب تتضمن الدعوة الى الفتنة.

ومن حيث انه يلخص مما تقدم ان القرار المطعون فيه غير قائم بحسب

الظاهر على سبب يبرره وأنه صدر بالمخالفة لاحكام القانون، وبالتالي يغدو ركن الجدية متوافرا في طلب وقف تنفيذه. ولا جدال كذلك في توافر ركن الاستعجال بدوره لاقتراب موعد الذكرى المحتفل بها .

ومن حيث انه بالبناء على ذلك يتعين الحكم بوقف تنفيذ القرار المطعون فيه والزام الحكومة بالمصاريف عملا باحكام المادة ١٨٤ من قانون المرافعات .

ومن حيث ان المادة ٢٨٦ مرافعات تنص على انه يجوز للمحكمة في المواد المستعجلة او في الاحوال التي يكون فيها التأخير ضارا، ان تأمر بتنفيذ الحكم بموجب مسودته بغير اعلانه .

فلهذه الاسباب:

حكمت المحكمة برفض الدفع المبدي بعدم قبول الدعوى وبوقف تنفيذ القرار المطعون فيه وامرت بتنفيذ الحكم بموجب مسودته بغير اعلانه .

رئيس المحكمة

المستشار: مصطفى كمال ابراهيم

الوثيقة الثالثة

حملة تطهير « قانونية » في الصحافة المصرية

الحكومة تواصل تجويع النقابة المصرية

تشهد المؤسسات الصحفية في مصر، خاصة المواقع القيادية منها انقلابا واسعا خلال الاسابيع القليلة القادمة. فطبقا للقانون الذي أصدره مجلس الشعب وصدق عليه رئيس الجمهورية في ١٤ يوليو الماضي سيحال كل من بلغ سن الستين الى المعاش، ويجوز للمؤسسات التجديد لسن الخامسة والستين للكتاب فقط، بشرط ان لا يتولوا اية مناصب قيادية.. أما من بلغ الخامسة والستين فليس مسموحا بالتجديد له حتى ككاتب.

وسيبدأ تنفيذ القانون اعتبارا من ١٤ اكتوبر القادم، وسيحال الى المعاش من رؤساء مجالس الادارة ورؤساء التحرير كل من ـ امينة السعيد رئيس مجلس ادارة دار الهلال ورئيس تحرير المصور ـ صبري ابو المجد رئيس تحرير المصور ـ د. حسين مؤنس رئيس تحرير الهلال ـ عبد الحميد عبد الغني نائب رئيس مجلس ادارة اخبار اليوم ـ. وسيحال للمعاش من الكتاب الذين تجاوزوا سن ٦٥ كل من ـ محمد زكي عبد القادر، جلال الحمامصي، مصطفى امين، احمد الصاوي محمد، حسين فهمي، د. لويس عوض، حسين فوزي، توفيق الحكيم، صلاح طاهر ـ.

كما سيحال للمعاش من الذين بلغوا الستين أو سيبلغوه خلال اشهر قليلة ـ وينتظر الا يصدر قرارات استثناء لهم من المؤسسات ـ عشرات آخرين منهم ـ محمد عودة، مصطفى بهجت بدوي، ألفنان زهدي العدوي ـ، ممدوح طه، نجيب المستكاوي، نعمان عاشور، احسان عبد القدوس، انجي رشدي ـ.

ويصل عدد المحالين للمعاش من الصحفيين الى ٨٣ صحفياً .

والهدف من هذا القانون هو اعطاء فرصة للحكومة لتقديم رشوة للجيل الاوسط من الصحفيين الذين يشكون من انسداد طريق التقدم امامهم في المناصب وفي الكتابة نتيجة لاستمرار الجيل القديم .

وقد اصر السادات على هذا البند في القانون، متصورا ان مثل هذا الاجراء سيكسبه تأييدا لدى عدد أكبر من الصحفيين يواجه به الرفض والعداء من غالبية الوسط الصحفي .

وهناك هدف اخر لا يقل اهمية، وهو مواصلة حرب التجويع ضد نقابة الصحفيين المصرية التي تواجه عجزا ماليا في معاشات الصحفيين تصل هذا العام الى ٢٥ الف جنيه مصري، مما يهدد بتوقفها عن دفع معاشات الصحفيين اعتبارا من اول نوفمبر القادم . ونتيجة لحملة الاحالة للمعاشات فان النقابة ستتحمل عبئا اضافيا للمعاشات اعتبارا من أول ديسمبر الحالي يصل الى ٦٠ الف جنيه مصري، اي ان العجز سيصل الى ٨٥ ألف جنيه سنويا .

ومن المعروف ان العجز المذكور في صندوق المعاشات في نقابة الصحفيين، يعود الى قرار الرئيس السادات بأن لا يتجاوز ما تدفعه كمؤسسة صحفية للنقابة من حصيلة الاعلانات فيها ـ ١٠,٠٠٠ جنيه ـ، بينما القانون قد حددها بـ ١ ٪ من حصيلة الاعلانات وهي نسبة تعطي النقابة ما يقرب من ـ ١٠٠,٠٠٠ ـ من الاهرام والاخبار واقل قليلا من المؤسسات الاخرى .

والغريب ان بعض المؤسسات لا تسدد منذ سنوات حتى النسبة الضئيلة التي حددها قرار رئيس الجمهورية مما يجعل النقابة في ازمة مالية دائمة .

الوثيقة الرابعة

مصادرة كتاب « مصر الى أين » ؟ ؟

اهتمت الدوائر السياسية في مصر، اهتماما بالغا بالقضية الخاصة بمصادرة كتاب ـ مصر الى اين؟ ـ للاستاذ محمد عبد السلام الزيات نائب رئيس الوزراء السابق. وكان مثار الاهتمام شيئان.. الكتاب في حد ذاته، والحكم وحيثياته ودلالاته.

فقد اعتبرت دوائر المعارضة في مصر صدور هذا الكتاب من محمد عبد السلام الزيات علامة هامة على مدى واتساع القوى المعارضة للنظام في الوقت الحاضر. فعبد السلام الزيات واحد من منفذي انقلاب مايو ١٩٧١ . كلفه السادات، بعد اقالة شعراوي جمعة واستقالة عدد من الوزراء وقادة الاتحاد الاشتراكي من بينهم محمد فائق وزير الاعلام والمشرف على الاذاعة والتلفزيون بالاستيلاء على مبنى الاذاعة والتلفزيون ووقف اذاعة الاناشيد الحماسية وكلمات عبد الناصر وخبر الاستقالة.

وبالفعل دخل عبد السلام الزيات مبنى الاذاعة والتلفزيون محاطا بكوكبة من الجنود والضباط بالمدافع الاتوماتيكية واستمر يدير هذا الجهاز الهام طوال الايام الاولى لانقلاب مايو.

بعدها تولى مسؤولية الاتحاد الاشتراكي، وهي الفترة التي تعاون معه فيها بعض الشخصيات الماركسية التي أيدت انقلاب مايو في ذلك الوقت مثل لطفي الخولي والدكتور فؤاد مرسي، واسماعيل صبري عبدالله ـ ثم اختير نائبا لرئيس الوزراء، الى ان ابعد عن المواقع الرسمية وظل بعيدا عن الساحة السياسية. ولكنه عاد فرشح نفسه مستقلا في انتخابات ١٩٧٦ وتعرض لحملة عنيفة من حكومة ممدوح سالم وصحف أخبار اليوم. ورغم

خروجه من النظام وعداء النظام الواضح له، فقد حرص طوال السنوات الماضية على عدم اتخاذ موقف صدامي واضح معه. واعتذر اكثر من مرة عن دخول حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي رغم تعاونه الواسع معه ومساندة التجمع له في انتخاب ١٩٧٦، الى ان شارك أخيراً في ائتلاف المصريين الذي يضم أساسا الى جانب ممثلي اليسار المصري - التجمع - الشيوعيون - الناصريون - بعض الشخصيات الوطنية التي شاركت في انقلاب مايو وسلطته فترات طويلة او قصيرة، ولكنها اختارت اخيرا وبعد توقيع معاهدة الصلح المصرية الاسرائيلية وتوالي القوانين المقيدة للحريات، موقع المعارضة.

وتبدو اهمية هذا الموقف الجديد من عبد السلام الزيات اذا ربطناه بمدى المعارضة الذي وصل اليه من خلال صفحات كتابه.

فالكتاب الذي يقع في ٣١٩ صفحة، ينقسم الى مقدمة وثلاثة فصول وكلمة ختامية. الفصل الاول حديث عن النظام السياسي ونظام الدولة ويشمل - الديمقراطية - ديمقراطية السلطة التنفيذية - احادية السلطة التنفيذية وازدواج السلطة، والفصل الثاني ينقسم الى أربعة مباحث: الاساس الاقتصادي - النظام الاقتصادي - القطاع المشترك والقطاع الاجنبي - ديمقراطية الانتاج والخطة والقطاع العام -. والفصل الثالث وعنوانه - النظام القانوني - ويتناول - الاستفتاء على القرار بقانون رقم ٢ لسنة ١٩٧٧، وسلطات المدعي الاشتراكي في القانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٨، المدعي الاشتراكي وسلطاته فيما يتعلق بالنشاط الحزبي - سلطات المدعي الاشتراكي بالنسبة لعضو مجلس الشعب، سلطات المدعي الاشتراكي في قانون العيب - الاستفتاء على معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية، حل مجلس الشعب، قانون الاحزاب السياسية، النظام الدائم ودولة القانون واستقلال القضاء - ثم كلمة ختامية بعنوان - الى اين -؟

يقول عبد السلام الزيات في الكتاب صفحة ٢٤ حول التطورات

الديمقراطية والسلطة المطلقة لرئيس الجمهورية :

ـ على انه يبدو من متابعة التطورات ان هذه المحاولات سرعان ما أخذت في التراجع، لتتزايد باستمرار واضطراد السلطة الاحادية لرئيس الجمهورية، ثم ليصبح رئيس الجمهورية وحده بعد ذلك وفي اعقاب حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ محور القرار ومركزه ومصدره. وقد صدر العديد من الكتب ونشر العديد من الاحاديث والمقالات والدراسات، وعقد كثير من الندوات والمناقشات، والقي العديد من المحاضرات حول الاحداث والتطورات والاتصالات والمباحثات والاجتماعات والمؤتمرات التي بدأت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ بفك الاشتباك الاول بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية في يناير ١٩٧٤، وانتهت الى عقد معاهدة السلام بين مصر واسرئيل في ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩. ورغم اختلاف المجالات التي تناولتها هذه المصادر وتنوعها وتعدد اتجاهاتها، يكاد يكون اجماعها على ان رئيس الجمهورية في مصر، هو وحده الذي يتخذ القرار دون اعتبار لرأي مستشاريه. ويمكن للباحث منذ ذلك الحين ان يرصد تزايدا مضطردا في المواقف والقرارت المفاجئة التي سرعان ما تتبدل الى مواقف وقرارت مفاجئة اخرى تناقض سابقتها. كل هذا يتم في غيبة كاملة عن الوزير المختص او عن مجلس الوزراء شريك رئيس الجمهورية في رسم السياسة العامة للدولة والمسؤول دستورياً عن كل ما يتخذه رئيس الجمهورية من قرارات. ومثل هذه المواقف والقرارات المفاجئة كانت تمثل ارباكا واحراجا لكل الاجهزة الحكومية. وكان رئيس الجمهورية يطلق على هذه السياسة احيانا سياسة ـ الصدمات الكهربائية ـ . .

وقد المح هرمان آيليتس السفير الامريكي السابق في مصر.. الى نقاط عامة استخلصها من علاقات طويلة واجتماعات مع رئيس الجمهورية، ننقل منها ما يتصل بموضوع بحثنا .

١ ـ ان رئيس الجمهوريه تعامل مطولا مع هنري كيسنجر مستقبلا لنصائح وحلول وخطط، ولم يكن مستشاروه انفسهم راضين عنها .

٢ ـ ان رئيس الجمهورية لا يظهر التسامح ازاء ابداء مساعديه ووزرائه اية معارضة لافكاره .

٣ ـ ان رئيس الجمهورية يعتبر تصريحات المعارضة انتقادات موجهة اليه شخصيا .

ويمضي عبد السلام الزيات في توضيح هذه الحقيقة فيقول في نهاية صفحة ٢٥ من كتابه . . ـ ففي مجال السياسة الخارجية، ترتب على انفراد رئيس الجمهورية باتخاذ القرار بعيدا عن وزرائه او مجلس الوزراء ودون مشورة مع المسؤلين عن السياسة الخارجية الى استقالة وزير الخارجية في نوفمبر سنة ١٩٧٧ بعد قرار رئيس الجمهورية المفاجيء الانفرادي بزيارة القدس. وقد اعقب ذلك ايضا استقالة وزير خارجية آخر في مارس عندما كان في رفقة رئيس الجمهورية في الولايات المتحدة الاميركية. ونضيف ايضا الى ذلك ان رئيس الجمهورية قد وجه النقد أكثر من مرة الى تصريحات صدرت من وزير الدولة للشؤون الخارجية في شأن المفاوضات الجارية بين مصر واسرائيل في شأن الحكم الذاتي، واوضح علانية ان هذه التصريحات لا تعبر عن سياسته ـ اي سياسة رئيس الجمهورية ـ ولكأن لرئيس الجمهورية سياسة وللحكومة سياسة أخرى... وتجمع المصادر على اختلال المواقف خلال المحاولات المصرية الاسرائيلية بين رئيس الجمهورية ووزير الحربية حول الترتيبات العسكرية، وان رئيس الجمهورية انفرد باصدار القرار في شأنها. وقد انتهى هذا الخلاف باستقالة الوزارة واعادة تشكيلها مع تعيين وزير حربية جديد. كما تحدث المعلقون طويلا عن تغيب رئيس الوزراء أكثر من مرة عن المحادثات التي اجراها رئيس الجمهورية مع بيغن في مصر بدعوى المرض. وقد كان لهذا الاتجاه انعكاسه ايضا على السياسة الداخلية، اذ

أصبح لا يقف على هرم السلطة الذي أقامه رئيس الجمهورية سوى رجل واحد.. ومن ثم أصبح كل نقد يوجه الى الحكومة موجه الى رئيس الجمهورية ذاته.

ومن هنا يمكن القول بأن هذا الاتجاه الى تكريس نظام احادية السلطة قد توصل بنا الى صورة من الخلط بين النظام والسلطة.. وتأخذ الصورة ابعادا أكثر خطورة مع تولي رئيس الجمهورية رئاسة حزب الاغلبية، اذ يصبح بيده امر السلطة التشريعية، ويتجسد فيه السلطة التنفيذية والتشريعية معاً. وتصبح دولة المؤسسات مجرد شعار لا يحمل من الحقيقة شيئا..

ويقول الكتاب في خاتمة صفحة ٣١٢..

ـ ان محصلة ما شاهدناه خلال رصدنا الواقع على ضوء المقومات الاساسية للدستور الدائم تنبيء بأن هناك مخططا يستهدف الواقع المصري اقتصاديا واجتماعيا وفكريا، وذلك عن طريق فرض نظام واقعي جديد يكون بديلا عن الشرعية الدستورية. والمخطط يجري تنفيذه خطوة خطوة، وكأن الادوار فيه موزعة، وثمة قوة تتولى قيادة وانجاز التغيير الفعلي. وثمة قوة تضفي عليها التبرير الفكري او التشريعي بعد أن يقع فعلا. وقد كسب المخطط أغلب جولاته على المستوى الفعلي وكسب أغلب جولاته على المستوى التشريعي ثم كسب جولته في الاستفتاء الذي جرى في مايو ١٩٨٠ على تعديل الدستور بالنسبة المئوية المعهودة ٩٨,٩٦ ٪.. وعبارة تذويب الفوارق بين الطبقات التي اصبحت مجرد نص ميت مع التحولات الاقتصادية التي جرت متتابعة ومضطردة منذ سنة ١٩٧٤، وبعد ان اطلق العنان لرأس المال الخاص «مصري واجنبي» ليكون بارقام فلكية ليصبح في مصر اعدادا من المليونيرات اضعاف ما عرفته في كل تاريخها، بينما تتردى اغلبية الشعب في هاوية الفقر بدرجة مخيفة.. وتكفل المناقشات التي دارت في مجلس الشعب في ١٨ يونيو ١٩٨٠ عن الخطة المحكمة التي تكفل ان يأتي تشكيل هذا المجلس ـ مجلس الشورى او مجلس العائلة ـ

بالصورة التي اريدت له، ولو كان في ذلك اهدار لكل الاحكام والمبادىء الدستورية المتعارف عليها.

وقد صودر الكتاب، اثر بلاغ تقدم به العقيد عبد الرؤوف صالح مسؤول مكتب الصحافة والنشر والثقافة بمباحث أمن الدولة أشار فيه لتوفر معلومات ان - مطبعة دار اسامة للطبع والنشر قد طبعت كتاب - مصر الى اين؟ - للسيد محمد عبد السلام الزيات نائب رئيس الوزراء السابق - وان هذا الكتاب يتضمن تشكيكا في سلامة النظام الديمقراطي والازدراء بالمؤسسات الدستورية في مصر - وان المباحث العامة قد تحفظت على نسخ الكتاب - ٢٩٠٠ -. واشر السيد المحامي العام لنيابة امن الدولة - رجاء العربي - في نفس اليوم ٢٠ اغسطس باقرار عملية الضبط وعرض الامر على رئيس محكمة جنوب القاهرة.

ونظر الطلب أمام المحكمة برئاسة السيد - بليغ صفوت جندي رئيس المحكمة يوم ١٤ اغسطس وترافع عن عبد السلام الزيات الاساتذة د. يحيى الجمل واحمد نبيل الهلالي ود. عبد الحليم مندور وعبد الله الزغبي وصلاح عبد المجيد. وحجزت القضية للحكم يوم ٣١ اغسطس.

وترسم القاضي خطى المستشار انور أبو سحلي الذي كان يشغل موقع رئيس محكمة جنوب القاهرة قبل اختياره نائبا عاما ثم وزيرا للعدل. فكما كان ابو سحلي يؤيد اوامر الضبط والمصادرة لجريدة - الاهالي - التي كان يصدرها حزب التجمع - ٧ مرات متتالية -، ايد القاضي الجديد امر ضبط ومصادرة كتاب - مصر الى اين - .

وكما كان ابو سحلي يحرص على اضافة حيثيات الحكم الى نص القرار، رغم ان القانون لا يطالب المحكمة في هذا النوع من القضايا بأية حيثيات، ولم يجر العرف قبل مصادرة الاهالي على اتخاذ مثل هذا الاجراء.. كتب القاضي بليغ صفوت حيثيات لقراره في ١٥ صفحة.

وكما كان أبو سحلي يبني حيثياته اساسا على رأي سياسي خلاصته الدفاع عن السادات ونظامه وليس له صلة من قريب أو بعيد بالقانون. اذ بخليفته بليغ صفوت، يكتب حيثيات سياسية.. فيقول ـ ان المؤلف انطلق في كافة فصوله ـ الكتاب ـ يبث الشر والفساد.. وينشر التحريض والازدراء.. متنكرا لكافة الانجازات الدستورية التي تمت بعد دستور ١٩٧١ وجاحدا لارادة الجماهير الحرة في جميع الاستفتاءات التي تمت ومحرضا على الازدراء بكافة النظم مثيرا لكراهية النظام، وكانه نصب من نفسه وصيا على مؤسسات الدولة الدستورية وقيما على القائمين عليها.. والمحكمة اذ تستعرض بعض فقرات من الكتاب المتحفظ عليه، فانما لبيان أي قصد خبيث وفاسد هوى بالمؤلف الى الحضيض من التحريض وبث السموم في النفوس، والخسة في التعبير... ـ.

وكما كان ابو سحلي يحرص على نشر مثل هذه العبارات في الصحف، لجأ القاضي الى الاتصال بالصحف لنشر الفقرات السياسية منها في الاهرام، رغم ان الصحافة لم تشر قبلا الى الموضوع اطلاقا.

وقد علمت ان نسخا محدودة من الكتاب قد تسربت من مبنى مباحث أمن الدولة بالقاهرة الى خارج مصر.

وبعد، فان السؤال الطبيعي في خاتمة هذه الوثائق التي تنطق بزيف الديموقراطية في عهد السادات، هو: ماذا نستخلص من معان للحرية في بلادنا؟ وأحب ان اوجز الجواب الذي اراه على النحو التالي:

١ ـ كانت اللافتة العريضة التي رفعها نظام السادات طويلا، هي الديموقراطية وسيادة القانون. وقد اتضح جليا وحاسما في التطبيق ان اللعبة بسيطة، وهي اصدار قانون كل يوم ضد الحرية وتطبيقه حرفيا. المسألة سهلة، فرئيس الجمهورية المصرية له الحق منفردا في اصدار قرارات لها قوة القانون. ومجلس الشعب، السلطة التشريعية، لا يضم سوى معارضا

واحدا، وبقية الاعضاء الموقرين هم اعضاء حزب الرئيس. اما الاستفتاء الشعبي فاننا نفسح لاكثر الصحف الامريكية دعاية للسادات وهي الوشنطن بوست تقول ما نصه بعددها المؤرخ ٢٠ - ٥ - ١٩٧٩ « اقل عدد من الناس هم الذين يتوجهون لصندوق الانتخاب الذي يبدو لعيونهم انه ليس الصندوق الاصلي المليء باوراق رتبتها اجهزة الامن من قبل الاستفتاء»... هل هذا يكفي؟

٢ - لنتخذ من حزب التجمع مثلا على معنى الحرية الراهن في مصر، فهو حزب معارض ينص قانون تشكيل الاحزاب على ان له الحق في اصدار صحيفته السياسية التي تعبر عن رأيه. والذي حدث ان الحكومة راحت تصادر اعداد « الاهالي » واحدا بعد الاخر، حتى اوقفتها عن الصدور نهائيا بعد العدد السابع عشر. ومع ذلك، فالحكم الذي يملك كل الصحف المصرية لا يمنح المعارضة حق الرد على مقال يدخل في « باب القذف ».

ولا بأس من التكرار، فقد اغلق النظام على التوالي مجلات - الكاتب - و - الطليعة - و - الاهالي -، وافسح المجال واسعا لمجلات - الدعوة - و - منبر الاسلام - و - المسلم المعاصر -... اي انه اغلق كافة النوافذ على الفكر القومي التقدمي، وفتح كل الابواب امام فكر الاخوان المسلمين وبقية الجماعات الدينية المتطرفة.

٣ - رغم ذلك، فهناك مقاومة ضارية من جانب المعارضة المصرية في الداخل والخارج. ولا ينبغي بأية حال ان نتخذ من نجاح المقاومة احيانا في التعبير عن نفسها دليلا على ديموقراطية السادات... فالحقيقة هي ان نجاح المقاومة واكرر (احيانا) يعتمد اساسا على بطولة القائمين بها لا على سماحة ولي الامر الذي لم تغلق سجونه ومعتقلاته في اي وقت.

ثم يعتمد نجاح المقاومة على التقاليد العريقة في مصر منذ فجر النهضة القرن الماضي.

اي اننا نستطيع الاختصار بأن ثلاثة عوامل تفعل فعلها وتثمر المعارضة:

أ ـ هناك صراع في مصر لم يحسم قط لمصلحة النظام. هناك مقاومة.

ب ـ هذه المقاومة في الداخل اساسا وفي الخارج امتدادا، تنجح احيانا وتخيب في بعض الاحيان.

ج ـ نجاح المقاومة المصرية مدفوع الثمن دائما بالسجن والتعذيب والتشريد والموت، كذلك فهو ثمرة تقاليد سارية المفعول حتى ان القضاء المصري يحكم في بعض الحالات لمصلحة المعارضة.

٤ ـ الدكتاتورية ليس لها اصدقاء. على الصعيد السياسي تخلص النظام تدريجيا من واجهاته الاساسية: الليثي ناصف رئيس الحرس الجمهوري الذي انقذ السادات ليلة ١٤ مايو ١٩٧١ انتحر في لندن منذ سنوات.

محمد حسنين هيكل الذي شارك باعترافه في اعداد الانقلاب، طرد من الاهرام منذ سنوات. محمد احمد صادق وزير حربية الانقلاب حكم عليه بالسجن مع ايقاف التنفيذ منذ سنوات. ممدوح سالم وزير داخلية الانقلاب ورئيس الوزراء بعدئذ اصبح في خبر كان. وآخرون وآخرون من الصف الثاني والثالث.

الامر نفسه يتم الان في اجهزة الاعلام، فالذين كلت ايديهم من التصفيق، اما انهم يموتون بالسكتة القلبية في مطارات العالم (علي حمدي الجمال ـ احمد رشدي صالح ـ مرسي الشافعي) واما انهم يحالون الى التقاعد بدءا من توفيق الحكيم ـ تأملوا!! وليس انتهاء بلويس عوض، وتأملوا اكثر واكثر!!

وفي هذا السياق تأتي مصادرة كتاب محمد عبد السلام الزيات كدرس مزدوج: فالرجل الذي تسلم اعلان الانقلاب ليلة ١٤ مايو لا يستطيع بحكم القانون ان يصدر كتابا يسأل: مصر الى اين؟ والشق الاخر من الدرس ان

القضاء الذي يحكم مرة لخالد محيي الدين قد يحكم مرة اخرى ومرات لمصلحة السادات .

ـ . . . فالحرية صراع لا ينتهي .

ـ والمقاومة في مصر ضارية ولا تنتهي .

ـ لم تنته مصر ، ولا شعبها .

ـ ولم ينته السادات ونظامه بعد ، ولكنه ، بالقطع سينتهي . . !

١٩٨٠/١٠/١٣

حرب الصّحافة
المصريّة ومعركة
تغيير الهويّة

اعرف سلفا ان اجواء الشرق الاوسط ساخنة، من اقصى المشرق الى اقصى المغرب .

اعرف مثلا ان « اسرائيل » شنت حربا حقيقية على المقاومة الفلسطينية في جنوب لبنان .

واعرف ايضا ان السادات جدد تهديده العسكري للجماهيرية العربية الليبية .

واعرف اخيرا ان العلاقة وثيقة بين الحرب الفعلية والتهديد بها في اسبوع واحد هنا . . وهناك .

اي انني اعرف ما يعرفه العرب ويطالعونه او يسمعونه يوميا في كل مكان . . ولعلني اعرف اكثر قليلا عن الخلفيات السياسة والاهداف العاجلة للمشهد العسكري في جنوب لبنان وغرب مصر .

ورغم ذلك كله، فانني استأذن في حديث من القلب، ربما بدا للوهلة الاولى بعيداً عن العاصفة المخنوقة في قمقم الشرق الاوسط . . . هو حديث المهنة التي احترفناها منذ أكثر من ربع قرن .

● فتلبية لدعوة كريمة من اتحاد الصحفيين العرب قمت بالاشتراك في مؤتمر هذا الاتحاد للتضامن الاخوي مع الصحفيين المصريين المضطهدين في الداخل والخارج .

وأحب ان أعترف بأنني ترددت طويلا في قبول الدعوة لسبب واحد، هو أنني أعتقد مخلصا بأن الصحفي او الكاتب المصري ليس وحده هو المضطهد في معظم ارجاء وطننا العربي، وليس وحده هو المطارد أو المعرض للتشريد أو النفي أو السجن. بل انني أرى اضطهاد الرأي الآخر سمة بارزة في حياتنا العربية كلها، تطال المواطن العربي عموما، والصحفي العربي خصوصا.. لا ينفرد الكاتب أو الصحفي المصري بهذه السمة أو يتميز بها.

لماذا أذن هذا المؤتمر؟

قيل لي ان السبب هو قوانين السادات الاخيرة التي تهدد الحريات وفي مقدمتها الحريات النقابية للصحفيين.

وقيل لي انه اذا أراد الاخوة العرب ان يتضامنوا معنا، فهل نرفض ذلك، أو هل نستطيع الرفض؟

واشهد انني وغيري قبلنا الدعوة غير مقتنعين تماما، سواء بدواعي المؤتمر او بمبررات انعقاده. ولكننا وجدناها فرصة لنلتقي نحن المشتتين في أرجاء الأرض وشعابها.

قبل اللقاء كانت اخبارنا تصل لبعضنا البعض مبتورة مشوهة، وأكاد أقول موجهة لتمزيق وحدة الصحفيين المصريين في الخارج. وبعد اللقاء كنا باختلاف تياراتنا الفكرية والسياسية وحدة واحدة. فقد خرجنا من أغلى الأوطان في ظروف متشابهة ولهدف واحد، هو ممارسة الحرية في الفكر والتعبير. وبعد اللقاء كنا باختلاف اتجاهاتنا الايديولوجية وحدة واحدة في تحديد الهدف الأكبر من نضالنا في الخارج، وهو ان نكون امتداداً متواضعا لخط الدفاع الاول في الداخل، لاسقاط النظام الراهن في مصر. وبعد اللقاء كنا باختلاف أرائنا في السبل والوسائل وأشكال المستقبل، وحدة واحدة في نشدان الحوار الديمقراطي الواسع اساسا واحدا ووحيدا

لبناء المجتمع المصري الجديد .

هذا موجز مختزل لما تم بيننا في كواليس فندق هيلتون الباريسي وفي الشوارع والازقة والمقاهي التي واصلنا فيها الليل بالنهار .

أما ما قلناه للأخوة المتضامنين معنا قبيل انعقاد المؤتمر، فخلاصته نقطتان :

☐ الاولى، هي أننا لا ننوي بأية حال، وعلى أية صورة، ان نخلق من هذا المؤتمر أو عنه أي شكل تنظيمي للصحفيين المصريين في الخارج يبدو بديلا أو شبه بديل لنقابة الصحفيين المصريين في الداخل . اننا اعضاء في هذه النقابة المناضلة، ونتمنى ان يكون هذا المؤتمر دعما لها قبل ان يكون دعما لنا . فزملاؤنا في الداخل هم الذين يواجهون النظام مباشرة، بكل شجاعة وشرف واحساس عال بالمسؤولية . وقد احتاج السادات لعشر سنوات كاملة حتى يتمكن من ضرب نقابتنا ـ بسبب مواقفها الصامدة ـ فلم يستطع الا ان يصدر القوانين الاخيرة التي لجأ فيها الى استحداث ما يسميه بالمجلس الاعلى للصحافة .

☐ النقطة الثانية، هي ان التضامن معنا من اي طرف عربي لا يلزمنا في المقابل بادانة أو تأييد طرف اخر . فهذا المؤتمر، للصحفيين المصريين، ومن ثم فلا مجال للتعرض باسمنا لاية جهة عربية أخرى، والا فاننا اذا لم نكتف بفتح ملف السادات . سنكون أمام موقف محدد هو فتح بقية ملفات الصحافة في كل الوطن العربي دون استثناء وليت ذلك كان موضوع المؤتمر . أما وأن مصر وحدها هي الموضوع، فاننا نرفض أن تكون مصر او الصحافة المصرية هي المناسبة للنيل من جهة عربية لحساب اخرى .

قلنا هاتين النقطتين، بأعلى الأصوات وبكل الوسائل، حتى باتتا ميثاقا غير مكتوب بيننا وبين أمانة اتحاد الصحفيين العرب صاحبة الدعوة .

وفي حدود الالتزام بهذا الميثاق، استطيع القول بان المؤتمر قد نجح في

ألا يتحول الى ساحة قتال مع طرف غاب، أو مع طرف لم يشارك في التمويل أو مع طرف لم يزايد أو لم يبادر.

وفي حدود أخرى، يمكن الاختلاف في تقييم النتائج النهائية للمؤتمر، بالفشل أو النجاح.. سواء كانت هذه النتائج هي القرارات الصادرة أو البحوث المقدمة أو المناقشات التي دارت أو الترجمة العملية للتوصيات. هنا ـ لابد ـ أن تتعدد الاجتهادات ووجهات النظر.

★★★

ولعلي مطالب بتسجيل أو شبه تسجيل لمداخلتي التي حاولت فيها أن اوضح بضعة أمور، هي بالترتيب:

١ ـ انني لا أميل الى التأريخ الاكاديمي لنشأة الصحافة المصرية بالحملة الفرنسية على مصر، وانما اميل الى التأريخ السوسيولوجي الذي يدفعني لرؤية النشأة القومية للصحافة المصرية. وربما أضيف في هذا السياق المسرح والسينما أيضاً، فهجرة الكتاب والصحفيين والفنانين السوريين واللبنانيين الى مصر منذ أواخر القرن الماضي هي التي تفاعلت مع التربة المصرية المستقلة نسبياً عن الامبراطورية العثمانية، وأثمرت أضخم المؤسسات الصحفية والمسرحية والسينمائية طيلة قرن من الزمان. إن دار الهلال والاهرام والمقطم ودار المعارف، ومجلات الجامعة والمقتطف والكتاب هي للرواد العرب من السوريين واللبنانيين. وقد تفاعلوا مع الافكار والاقلام والمنابر وحتى القضايا المصرية، فأثمروا في حقيقة الامر ـ نشأة قومية ـ عربية للثقافة والاعلام في مصر.

٢ ـ بعد قرن من الزمان نجد الهجرة المعاكسة أو الهجرة المضادة، الى مختلف العواصم العربية. وربما كانت هناك جوانب ايجابية لهذا الخروج. ولكن التحفظ الواجب تسجيله هنا ان الانتاج الثقافي والفني والاعلامي المصري لم ينقطع قط عن المنابر العربية سواء كانت شاشات السينما أو

المجلات والصحف ودور النشر أو الراديو والتلفزيون دون ان يضطر اصحاب هذا الانتاج الى الخروج من مصر وما يشبه الاستقرار في الاقطار العربية الاخرى.

لذلك ارى المغزى الجوهري كامنا في ان نظام السنوات العشر الاخيرة في مصر، يستهدف اولا واخيراً تغيير الهوية القومية للمصريين، للمرة الاولى في تاريخهم منذ الفتح العربي الاسلامي، فالقضية المحورية ليست هي الانفتاح الاقتصادي او اضطهاد الحريات ولا حتى هي الصلح مع العدو الطبقي والقومي. هذه كلها تجليات تغيير الهوية. هذه كلها التفاصيل المادية المباشرة لتغيير الهوية. لم يحدث قط في تاريخ مصر. في ظل الملوك والسلاطين والاغوات، ان واجه المصريون تشكيكا في هويتهم القومية، فضلا عن محاولة تغييرها، الا في عهد السادات..

- فالشوفينية المصرية التي كانت تيارا ضمن تيارات، وتيارا يكاد يكون مقصورا في حلقات ضيقة من منابر الفكر والثقافة، اضحت الان هي الايديولوجية الرسمية للدولة، وهي - الهوية - التي يراد استبدال عروبة مصر بها. وهذا ما يفسر السعار الاقرب للجنون في مواجهة السادات الحادة مع الصحافة وكافة اجهـزة الاعلام. هـــذا هـــو جيشـــه الرئيسي والحقيقي في تغيير الهوية القومية للمصريين. انه لا يحتاج لقوى الامن المركزي ولا للاغتيالات حتى يحقق هذا الهدف. انه يحتاج لأدوات غسل الدماغ المصري اولا وأخيرا، انه يحتاج للاقلام والكاميرات ومكبرات الصوت أكثر كثيرا من حاجته الى الرصاص والمسدسات كاتمة الصوت. انه الرجل الذي بدأ عهده بفصل ١٢٠ صحفيا وكاتبا من أعمالهم. وهو الرجل الذي لم يتوقف لحظة عن تهديد رجال الاعلام الموالين له، بأنهم لا يفهمونه ولا يوصلون ما يريد للناس. ماذا يريد؟.. يتصور بعضهم ان المطلوب هو تمجيد الرئيس فيزايد، أو مدح الامريكان فيفعل، أو استقبال الاسرائيليين فيرحب. وبعد ذلك

يسمع بأذنيه السباب والشتائم والإهانات المريرة فيموت بالسكتة القلبية ـ كعلي حمدي الجمال رئيس تحرير الاهرام في مطار واشنطن. وكأحمد رشدي صالح رئيس تحرير آخر ساعة في مطار لندن. وكمرسي الشافعي رئيس تحرير روز اليوسف ـ.. لماذا؟. لانهم وغيرهم من الموالين والخدم والعبيد لا يفهمون المطلوب جيدا. غيرهم يفهم ولا يستطيع بعد أن قدم اقصى درجات التنازل عن التاريخ القديم ـ كعبد الرحمن الشرقاوي الذي نقل من روز اليوسف بين عشية وضحاها ـ.. وغيرهم يفهم ولكن بطريقة ـ كمصطفى أمين الذي أوقف عن الكتابة مرارا وتكرارا ـ. المطلوب هو تغيير الهوية. فمن يستطيع أن يفعل؟.

٣ ـ تجيب دراسة احصائية للدكتور سعد الدين ابراهيم الاستاذ المصري بالجامعة الامريكية في القاهرة نشرتها مجلة ـ الفكر العربي ـ اللبنانية بعددها المزدوج ٤ و ٥ أن الحوار الواسع حول عروبة مصر الذي فجرته مقالات توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزي قد أسفر عن هذه النسبة: ٩٩ في المائة من كتاب مصر في الداخل، دعموا عروبة مصر ودافعوا عنها على صفحات الاهرام والاخبار والجمهورية برغم أهوال الدكتاتورية، وان واحدا في المائة فقط، قال بحياد مصر أو بمصريتها، دون أن يدخل في هذا الاحصاء آراء الكتاب المصريين المقيمين في الخارج.

فاذا المحنا الى أن الواحد في المائة القائل بحياد مصر أو فرعونيتها ينتمي أصحابه عمرا وجيلا وتاريخا الى الماضي، وأن التسعة والتسعين تنتمي الى الحاضر والمستقبل، فاننا نستخلص بضمير علمي بارد أبعد ما يكون عن العاطفة أن نظام السادات قد اخفق اخفاقا ذريعا في خلع المصريين من هويتهم القومية، رغم الارهاب والمغريات، وأن هذا الاخفاق يجعلنا نطمئن ـ دون تفاؤل ساذج ـ، الى ان الانفتاح الاقتصادي والتحالف مع أمريكا والصلح مع اسرائيل، ليست أكثر من ظواهر عابرة مع النظام

العابر. وهكذا تثبت عروبة مصر للمصريين أكثر من أي وقت مضى، انها تعني لهم الاستقلال والديمقراطية والتقدم الاجتماعي، بينما تعني لهم شوفينية الدولة التابعة: ـ الاحتلال والقهر والتخلف. ـ

٤ ـ ماذا فعل السادات بجيشه الاعلامي لتغيير الهوية؟ افرغ له الساحة اولا ليقاتل الماضي ـ التاريخ ـ بمفرده.. بدأ عهده كما قلت بفصل ١٢٠ كاتبا وصحفيا.. ثم أوقف على التوالي مجلات: الكاتب، الطليعة، الاهالي. منع من الكتابة والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح كل طاقة فكرية أو فنية أو اعلامية ترفض الانضمام الى جيش تغيير الهوية. لاحق الذين في الداخل بالقوانين المزورة وطارد الذين في الخارج بالتشهير والتجريح والمحكمات الغيابية والتهديد المستمر بسحب الجنسية وجوازات السفر.

وعلينا الا نقرأ الاحداث والاجراءات والقرارات من السطح.

علينا أن نستلخص الجوهر من ركام الجزئيات والتفاصيل.

علينا أن نقول مثلا أن المئة والعشرين كاتبا وصحفيا الذين فصلوا لعروبتهم عام ١٩٧٣ هم يساريون باتجاهات اليسار المختلفة.

وعلينا أن نقول أيضا أن المجلات الثلاث التي أوقفت لعروبتها هي مجلات يسارية باجتهادات متباينة.

وعلينا أن نقول أن الممنوعين لعروبتهم في الداخل من النشر والاذاعة والتلفزيون والمسرح والسينما هم يساريون بمعان وتعريفات وأيديولوجيات عديدة.

وهل يلزم أن نقول ان المطاردين في الخارج، من المناضلين الجسورين عن عروبة مصر، هم يساريون أيضا وأيضا؟.

وهل ثمة ما يمنع الاعتراف علنا وبشرف ان معركة المصير القومي داخل مصر وخارجها قد أفرزت هذه النتيجة العلمية الهائلة: وهي أن

القومي الحقيقي هو يساري بالضرورة؟ وان اليساري الحقيقي هو قومي بالضرورة؟ .

وهل كنا نحتاج لعشر سنوات من الثورة المضادة في مصر حتى نحصل على هذه النتيجة؟ .

ما أبهظه من ثمن؟ .

٥ ـ غير أننا يجب أن نضيف الى التسخة والتسعين في المائة من الكتاب المصريين العرب في الداخل، الذين تصدوا ببسالة خارقة لمقاومة جيش تغيير الهوية. تلك الصفحات المغموسة بالعرق والدم والتي تصلنا من القاهرة والاسكندرية وأسيوط وأسوان على هيئة مجلات صغيرة سرية وشبه علنية بلغت حتى الان ١٧ مجلة، وكذلك الاعمال الأدبية المطبوعة على ورق رخيص وبأحرف متآكلة وقد بلغت ١٢٠ كتـابـا وكتيبـا طيلـة عشر سنوات، كلها اشعار وقصص ومسرحيات ومقالات تحكي عن وجه مصر الآخر، وجه مصر الحقيقي والاصيل، بل وجهها الواحد الذي لم تتنازل عنه قط، وجهها العربي، وجهها الناصري، وجه أحمد عرابي وسعد زغلول.

هذا الوجه الذي يرد على أولى الشائعتين الخطيرتين، وهي أن الصحافة المصرية انتهت، أو ان الشعب المصري نفسه قد انتهى. ولكم أحزننا العرب ـ لا كمصريين ـ أن تسود هذه النغمة على بعض الاقلام العربية خارج مصر. بل وتصدر في تصريحات بعض المسؤولين العرب الذين تصعب عليهم التفرقة بين حاكم مصر وشعب مصر.

أما الشائعة الخطيرة الثانية، فهي ان الحريات في مصر أكثر ازدهارا منها في أي بلد عربي آخر. ليس ذلك صحيحا على الاطلاق، بحكم المقياس الذي نقيس به ما جرى ويجري في مصر. منذ قرن كامل كانت النشأة القومية للصحافة المصرية. والهرم الان أصبح مقلوبا. لان الهوية القومية للمصريين التي لم تكن موضع شك اضحت هدفا استراتيجيا للتغيير

الجذري. في العام ١٨٨٢ عثرت القوات البريطانية في مكتب محمود سامي البارودي رئيس وزراء الثورة العرابية على برنامج يقول أول بنوده أن مصر في حال نجاح الثورة سوف تتحد مع سوريا والحجاز. بعد مائة عام يتحالف النظام المصري مع - اسرائيل - ويخرج العرب من القاهرة.. قاهرة المعز لدين الله!

ومعهم يخرج بعض الصحفيين والكتاب المصريين الى بيروت وبغداد ودمشق وعدن والجزائر وطرابلس، وبقيةُ عواصمَ العرب.

ولكن...

لان تسعا وتسعين في المائة من كتاب مصر داخل القاهرة يرسخون هوية مصر العربية، ولان الاجيال المصرية الطالعة كلها لا ترى نفسها الا في عروبتها الراسخة، فان - العصر الاسرائيلي - في تاريخ مصر ليس أكثر من ظاهرة عابرة لنظام عابر. لا يتصل بقلب مصر وشعبها العظيم.

وسنعود اليها في يوم قريب.. القاهرة دائما لكل طاغية ومغتصب ومحتل.. القاهرة لكل الهويات الزائفة المنتحلة.

لا أقول أن القاهرة هي التي ستعود، فهي باقية بانتظارنا جميعا، نحن الذين تشردنا منها، وغيرنا من أبناء العرب الذين صنعوا صحافتها منذ قرن من الزمان.

●*●

٨٠/٨/٢٥

حول المسألة الطائفية في مصر★

بين عامي ٧١ و١٩٧٢ عرفت مصر مجموعة هائلة ومتصلة من الحرائق التي اشعلت بدورها سؤالا هائلا ومتصلا في وجدان المصريين وعقولهم... اذ كان هناك اكثر من قاسم مشترك بين مجموعة الحرائق. فقد بدأت بدار الاوبرا المصرية التي أسسها الخديو اسماعيل في القرن الماضي وافتتحها باوبرا عايدة للموسيقار الايطالي جيوسبي فردي، وكادت تنتهي بحريق «أونا الجبل» تلك المنطقة الاثرية القريبة من الاقصر، لولا انها اخذت في طريقها «قصر الوالي» والمسجد التاريخي الملاصق له في حي القلعة.

كان القاسم المشترك بين هذه الحرائق كلها هو العنصر الحضاري الذي يجمع بين اهداف الحريق.

وكان هناك نوع اخر من الحرائق يبدأ من احتراق «المصانع الرئيسية للسكك الحديدية» بالقرب من محطة القاهرة، ولا يكاد ينتهي باحتراق اوراق الامتحانات لمدرسة «الفسطاط» الثانوية.

وكان القاسم المشترك بين هذه الحرائق ايضا، هو ان الاشياء المحترقة تعود ملكيتها الى الدولة والشعب.

ولكن ما كان يجمع بين هذين النوعين من الحرائق، هو ان الفاعل ظل

★مداخلة اشترك بها الباحث في ندوة «مصر: عشر سنوات بعد عبد الناصر» التي نظمتها الأمانة الدائمة لمؤتمر الشعب العربي وعقدت في بيروت بين ٢٢ و ٢٣ يوليو تموز ١٩٨٠.

دائما مجهولا، فتنسب الجريمة احيانا الى القضاء والقدر او الى نوم خفير الحراسة أو الى تماس كهربائي مشؤوم، الى غير ذلك من « تسديد للخانات ».

وكان من الطبيعي ان يتذكر المصريون حينذاك حريق القاهرة الكبير في ٢٦ يناير (كانون الثاني) ١٩٥٢ للدرجة التي تصوروا معها أن القاهرة - بل مصر كلها - تحترق من جديد، ولكن بالتقسيط. والمثير في الامر، ان ذلك تم في وقت بدت فيه ظواهر الحال كما لو ان النظام الجديد الذي كرسته احداث ١٤ مايو (ايار) ١٩٧١ قد احتوى « المعارضة المحتملة » للانقلاب بكافة اجنحتها، فمن تعيين وزيرين ماركسيين في الحكومة للمرة الاولى في تاريخ مصر، وبعض الوجوه التقدمية الاخرى في الامانة العامة للاتحاد الاشتراكي الى ابرامه معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي الى رفع شعار « دولة العلم والايمان » الى الاتفاق الدستوري حول الاتحاد الثلاثي بين مصر وسوريا وليبيا، توهمت الغالبية من المراقبين ان الامور قد استقرت للنظام الجديد، ومن ثم فما معنى هذه « الحرائق » التي تشعل النار في رموز حضارية أو أموال الشعب؟

غير ان مهارة اعمدة الانقلاب في « احتواء » المعارضة المحتملة، وخاصة بما اصدرته غداة الانقلاب من برامج وبيانات دستورية تؤكد السير في طريق عبد الناصر، لم تصمد طويلا امام العين الشعبية البصيرة، والفطرة الجماهيرية الواعية بما يجري سرا، وتحت السطح. ذلك ان ما تراءى لبعضهم انه مفاجيء او انه خلل امني يحتاج الى تفسير، او تناقض ليس هناك ما يبرره بين ما يبدو في العلن من « استقرار » للنظام، وما يحترق في عواصم مصر من آيات للحضارة واموال للشعب، لم يكن لدى الاغلبية الصامتة سرا مستغلقا، اذ كان يتسرب اليها بين الحين والاخر بعض « الوقائع » التي لا ينقصها البرهان.

كان يتسرب اليها، مثلا، ان احد اعمدة الانقلاب وهو محمد عثمان

اسماعيل الذي عين في البدء مساعدا للامين العام للاتحاد الاشتراكي لشئون الوجه القبلي (الصعيد) والذي يشغل اليوم منصب محافظ اسيوط، قد اعلن في ذلك الوقت (١٩٧٢) لاعضاء الاتحاد الاشتراكي بمحافظة بني سويف ان اعداء مصر ثلاثة على الترتيب: المسيحيون، فالشيوعيون، فاليهود. وان احمد عبد الاخر، ثاني اعمدة الانقلاب، قد كرر القول حرفيا في مكتب امانة القاهرة.

كان يتسرب ايضا ان محمد عثمان اسماعيل واحمد عبد الاخر وحامد محمود (الثالوث الرئيسي السري للانقلاب) قد كونوا خلايا ارهابية من الشباب المتطرف دينيا داخل الجامعة للتصدي، كما اعترف بعضهم في احد التحقيقات، للملحدين والمشركين وحين سئل هذا البعض - على اثر حادث ضرب المطواة الذي جرح فيه أحد الطلاب جرحا بليغا - عمن يكون هؤلاء الملحدون والمشركون اجاب المتهم: هم المسيحيون والناصريون والشيوعيون.

كان يتسرب كذلك ان «دليلا للعمل» التنظيمي قد تم طبعه في اروقة الاتحاد الاشتراكي، يتضمن في ذلك الوقت المبكر خروجا صريحا على مواثيق الثورة الاساسية (الميثاق الوطني وبيان ٣٠ مارس) ودعوة صريحة الى الدولة الدينية.

ولان ذلك كله كان يتسرب الى الشارع الشعبي، رغم الاعلام الديماغوجي المتقن، فان هذا الشارع لم ير ثمة تناقضا بين احتراق الحضارة واموال الشعب، وما يدعيه النظام من اشتراكية وديمقراطية. لذلك حين احترق سقف جمعية «دار الكتاب المقدس» في «المطرية» - احد احياء الشمال الغربي من القاهرة - لم يتوقع الناس تحقيقا ولا اتهاما، بل اعتبر الامر «حريقا سياسيا» في مستوى جديد اكثر خطورة، على الصعيد العملي المباشر، من الحرائق السابقة.. فالحريق المادي مؤلم، والحريق الحضاري او القومي موجع واكثر ايلاما، أما الحريق الطائفي فكارثة، خاصة في بلد

كمصر، عرفت على طول تاريخها بالمناعة ضد الحروب الاهلية والحصانة ضد الحروب الطائفية.

وقد ترسخت هذه المناعة وتلك الحصانة عبر التاريخ في مواقع حاسمة من المصير الوطني، بالمشاركة الفعالة لاقباط مصر في مقاومة الغزو الصليبي، وباشتراكهم الايجابي والمؤثر في ثورة ١٩١٩ وبالتمييز النوعي للمرحلة الناصرية التي لم تقع خلالها اية حادثة طائفية.

ففي ظل الديمقراطية الليبرالية قبل الثورة، كان المسيحيون المصريون من القواعد الشعبية الثابتة لحزب الوفد، حزب الاغلبية انذاك. ويؤرخ الجميع للفكرة العربية في مصر بكلمات امين عام هذا الحزب مكرم عبيد التي قالها في القدس عام ١٩٣٦ وكرر قولها في مصر العديد من المرات: «نحن عرب. نحن عرب. نحن عرب». في ظل الليبرالية الهشة السابقة على ثورة ١٩٥٢ لم تقع حادثة طائفية واحدة. بل رفض الاقباط قانون حماية الاقليات الذي اراد الاحتلال البريطاني أن يفرضه عام ٢٢ في تصريح فبراير - شباط من ذلك العام. كما رفضوا تعيين يوسف وهبة باشا المسيحي رئيسا للوزراء، وهي الخطة التي أراد بها الانكليز أن يفرقوا بين المسيحيين وحزب الوفد من ناحية، وبين المسيحيين والمسلمين من ناحية اخرى. وعاد الاقباط عام ١٩٢٣ ليرفضوا أن ينص الدستور على أية نسبة عددية لهم في المجالس التشريعية أو التنفيذية.

غير أنه حين كانت تستولي على الحكم الاقليات الدستورية بحكوماتها الدكتاتورية العملية للعرش والاحتلال، كانت الاحداث الطائفية تفاجىء الناس خاصة بعد تأسيس جماعة الاخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨.

وهذا هو القانون الاول: **لقد ترافقت الاحداث الطائفية في مصر مع ازمنة القهر والاستبداد، منذ العصر التركي الى عصور الاحتلال الغربي الحديث.**

كذلك، فان عصر عبد الناصر الذي عرف الاجراءات الاجتماعية الواسعة والحروب الوطنية المتعددة لتحرير الارض، لم يعرف الحوادث الطائفية لانه لم يفرق بين الاقطاعي المسلم والاقطاعي المسيحي ولا بين الفلاح المسلم والفلاح المسيحي. وكانت خيرات المرحلة الناصرية للجميع، كما تحمل ضريبتها ايضا الجميع. بينما كان التفاوت الطبقي الحاد قبل الثورة، يسمح في غيبة «الوفد» عن الحكم، أي في غيبة الديمقراطية النسبية، بان تصبح الامتيازات احتكارا فئويا طائفيا.

وهذا هو القانون الثاني: **لقد ترافقت الاحداث الطائفية في مصر مع ازمنة الظلم الاجتماعي وانعدام المساواة بين المواطنين منذ الخلافة العثمانية الى وقتنا الراهن.**

ويعي المصريون في ذاكرتهم التاريخية ان مواد الدستور التي أعدها الحزب الوطني والثورة العرابية عام ١٨٨١ قد خلت من النص على دين ما للدولة، وان بين الوثائق التي ضبطتها قوات الاحتلال البريطاني لدى محمود سامي البارودي، رئيس وزراء الثورة، وثيقة تؤكد على قيام «الوحدة» بين مصر وسوريا والحجاز في حالة نجاح الثورة. ويتذكر المصريون أيضا ان ما لم ينجح فيه عرابي حاوله جمال عبد الناصر باقامة الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨ وقد خلا دستور دولة الوحدة من أي نص على دين الدولة.

لذلك كان القانون الثالث هو **أن الاحداث الطائفية ترافق زمن الاقليمية والتجزئة والتفتت منذ انهيار الدولة الاسلامية الاولى الى عصرنا الحاضر.**

ومهما قيل في عصر عبد الناصر من سلبيات فان أكثر أعداء هذا العصر حقدا لن ينكر انه كان عصر التحرر الوطني، لا في مصر وحدها ولا في بلاد العرب وحدهم، بل في العالم الثالث باكمله، انه عصر النضال ضد الامبريالية والاستعمار الجديد الذي ساهم في بنائه العرب المصريون بالدم في

أربع حروب وعشرات الثورات الوطنية. وقد كان دما مقدسا، أيا كانت عقائد اصحابه، فالعدو لم يفرق بينهم وهو يطلق الرصاص أو القذائف. ولم يحدث قط في هذه الحروب التحريرية أي حادث طائفي، مما يجعل **القانون الرابع هو أن الاحداث الطائفية ترافق ازمنة الخيانة للتراب الوطني.**

اذا كنا قد استطعنا استخلاص هذه القوانين سلبا وايجابا من التاريخ الاجتماعي والوطني والقومي للمصريين من العصور السابقة، وخصوصا العصر الناصري، فان تطبيقها على الاحداث الطائفية في عهد السادات يصبح هينا وتفسيرها يصبح اقرب منالا، بل ونصبح قادرين على تحديد هوية النظام المصري الراهن بدقة ووضوح.

فقد كان احتراق سقف جمعية الكتاب المقدس في المطرية عام ١٩٧٢ نقطة في سياق الحرائق الحضارية والوطنية ذات «الفاعل المجهول»، ولكنها النقطة التي رافقت انتفاضة طلاب الجامعات وعمال المصانع في ذلك العام. لذلك كانت نقطة تحول نوعية من الحرائق السابقة الى الحريق السياسي الشامل. كان طلاب الجامعات والعمال والمثقفون من النقابات المهنية المختلفة، يطالبون بتحرير الارض واقتصاد الحرب فاذا بصناديق البريد المنزلية تستقبل منشورات تبين بالفحص الدقيق (كما جاء في تقرير لجنة تقصي الحقائق البرلمانية حينذاك) ان غالبيتها مطبوعة في احدى دول الشرق الاوسط بحرف وعلى ورق ليس موجودا في مصر كلها. وأكد التقرير ان بعضا اخر من هذه المنشورات مطبوع في كندا واستراليا والولايات المتحدة. وقد تبين أن فريقا من الاقباط المهاجرين الى تلك الدول، واجهزة الدولة الاسرائيلية، ومؤسسة عالمية هي مجلس الكنائس العالمي، قد شاركت بانصبة متفاوتة في خطة إرسال هذه المنشورات من داخل مصر، تطالب بانصاف المسيحيين في الوظائف العامة وبتمثيلهم في المراكز الاساسية للسلطة. وكان اخطر هذه المنشورات بيان موقع باسم

البابا شنودة بطريرك الاقباط الارثوذكس .

وبالرغم من أن الاجهزة الحكومية ومختبرات الدولة قد اثبتت بالدليل المادي القاطع أن هذه المنشورات مزورة، فانها سارعت - كما حدث في واقعة احتراق جمعية الكتاب المقدس - الى تقييد الحادث ضد مجهول. وقد أفسح هذا التعمد في عدم الامساك بطرف الخيط المؤدي الى الجناة هنا وهناك، أن تنطلق حملة من الشائعات والشائعات المضادة ذات الطابع الطائفي: كالقول بان ستة من الشباب المسلم قد اعتنقوا المسيحية في الاسكندرية، والقول بان جمعية اسلامية تستدرج الفتيات القاصرات المسيحيات لتزويجهن من مسلمين، الى غير ذلك من حكايات لم تثبت صحتها على الاطلاق، ولكنها انتقلت كالنار في الهشيم بطول البلاد وعرضها... الامر الذي خلق مناخا متوترا بالاحاسيس الطائفية، فاهتزت البلاد من اقصاها الى اقصاها. وتصادف وجود العقيد معمر القذافي في القاهرة آنذاك (١٩٧٣/٢/٨) فقال في خطاب مشهود بالاتحاد الاشتراكي ما نصه: ونحن في ليبيا نؤمن بالتصور الالهي للاسلام، وان الاسلام لا يضم اتباع سيدنا محمد فقط... بل كل من آمن بالرسل، وبالتالي لا يفرق بين المؤمنين برسالة عيسى ورسالة محمد.. ان الفهم الصحيح يقضي بممارسة الجميع لشعائرهم الدينية وعلى أن يمارس كل منا شعائره سواء في المنزل او المسجد أو الكنيسة أو في مكان. بل واختتم العقيد القذافي خطابه قائلا بالحرف: «اذا كانت بيننا مجموعة ملحدة فينبغي ان نحميها بدلا من اضطهادها» (الاخبار المصرية ١٩٧٣/٢/٩). وكانت الكلمات أكثر من مهمة في ذلك الوقت بالذات، ولان صاحبها هو معمر القذافي بالتحديد، اذ كان هناك من يحاول القاء تبعة الاحداث الطائفية في مصر على كاهل الثورة الليبية ذات البعد الاسلامي.

على اية حال، فقد اثمرت الاحتكاكات الطائفية حينذاك أول قوانين القمع في دولة السادات، وهو قانون ٣٤ لسنة ١٩٧٢ والمعروف عرفا

بقانون الوحدة الوطنية. وهو القانون الذي لا يعالج في أي من مواده أية مشكلة طائفية، بل هو يصادر حرية الفكر والتعبير والتنظيم والعمل السياسي مصادرة كاملة لم تعرفها قوانين صدقي باشا ايام الملك.

في هذا الوقت أيضا (ايلول ١٩٧١) صدر القانون الاول للاستثمارات الاجنبية، وقبله بعدة أشهر (شهر شباط) كانت مبادرة الرئيس لفتح قناة السويس، ثم نودي على عام ١٩٧٢ عاما للحسم، ولكنه تحول في ما بعد الى عام طرد الخبراء السوفيات.

غير انه في جميع الاحوال كان عام الطلاب والعمال والمثقفين، عام الشارع المصري ـ والعربي عامة ـ في المطالبة بالحرب.

وقد أطفأ هذا الشارع عمليا النيران الطائفية ليشعل، عمليا كذلك، نيران الحرب الوطنية والقومية، فقد ضمت انتفاضة يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢ القيادات الوطنية الطلابية والعمالية والمهنية من صفوف الشعب العربي في مصر دون تمييز بين المسيحيين والمسلمين. وحين قامت الحرب كانت دماؤهم جميعا تروي صحراء سيناء. وحين صدرت قبيل الحرب قوائم المعزولين سياسيا وقوائم المعتقلين من الطلاب والمثقفين، كان واضحا أن الفتنة الطائفية لم تكن اكثر من غطاء نسجته بعض ماكينات السلطة لتخفي المعارضة الشعبية المتنامية لهوية الانقلاب الجديد. كذلك كانت الغطاء الذهبي لقوانين القمع التي توالى صدورها. تماما كما كان الاتحاد الثلاثي مع سوريا وليبيا، وحرب اكتوبر، غطاء قوميا لستر العورة الاقليمية. وهي العورة التي بدأت تتكشف بمجرد انتهاء الحرب.

ففي أيام صيف ١٩٧٤ قامت احدى المنظمات الدينية المتطرفة باختراق الكلية الفنية العسكرية، وكادت تحدث انقلابا على الانقلاب... ولم يكن من الممكن تقييد الحادث الذي هز البلاد ضد مجهول، فحوكم بعض الجناة وأعدم بعضهم. ولكن هذا الاجراء الاداري العنيف تجاهل تطورات الظاهرة من أصولها، حيث تبين ان اعدادا متزايدة من الشباب يهجرون

أعمالهم أو وظائفهم أو معاهدهم ويرحلون الى كهوف بعض جبال الصعيد في الوجه القبلي جنوب وادي النيل. وهناك يتدربون عسكريا ونفسيا وسياسيا على الاساس العقائدي الذي سبق لمحمد عثمان اسماعيل ان حدده في الاعداء الثلاثة. وكما قالت الصحف المصرية وقتذاك، فقد تم اكتشاف ٣٢٠٠ قطعة سلاح من بينها مدافع مضادة للطائرات في احد اوكار محافظة قنا. ولم يربط التحقيق في أي من مراحله بين حادث الكلية العسكرية، وهجرة الشباب من المدن، وكميات السلاح غير الشرعية.

وكان الدكتور هنري كيسنجر قد اعلن «فشل» مهمته في التوصل الى اتفاق ثان لفك الاشتباك في مارس ـ اذار ١٩٧٥ وبعد شهر واحد فقط انطلقت الرصاصة الكتائبية الاولى في الصدر الفلسطيني في ١٣ ابريل ـ نيسان ١٩٧٥ ثم اقبلت قمة سالزبورغ بين فورد والسادات في يوليو ـ تموز من العام نفسه، ليتحول الفشل الاعلامي السابق الى نجاح الخطوة الاولى نحو معاهدة الصلح المنفرد، وذلك بابرام اتفاقية سيناء الثانية اول سبتمبر ـ ايلول ١٩٧٥ حيث انطلق الرصاص الطائفي في الصدر اللبناني الوطني، وراح السادات أثناء مروره بقناة السويس في الذكرى الاولى لافتتاحها يعلن أنه لا يخوّن الشيخ بيير الجميل ويؤمن بعروبته.

في هذا الوقت تماما كان الازهر يتقدم بمشروع إقامة الحد على المرتدين عن الاسلام. وهو المشروع الذي يعني في التطبيق اعدام المسيحي الذي اعتنق الاسلام واراد العودة الى دينه الاصلي. وهي ظاهرة اجتماعية معروفة في المجتمع المصري.. فما كان من المستشار جمال صادق المرصفاوي رئيس محكمة النقض الا ان صرح بأن مشروع قانون الحدود قد حوّل الى وزارة العدل لتطبيقه على المسلمين وغير المسلمين عملا باقليمية القوانين (١٩٧٧/٦/١١). وكان مجلس الدولة قد وافق بدوره على ذلك ونشرت موافقته في الصحف.

وفي ١٧ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧ عشية الانتفاضة العظمى للشعب

العربي في مصر، عقد أخطر مؤتمر ديني مسيحي في تاريخ البلاد منذ ستة وستين عاما، أي منذ مؤتمر ١٩١١ الذي عقد في أسيوط على أثر مقتل رئيس الوزراء بطرس غالي باشا بايعـاز وتـوجيـه وتحريـض الاحتلال البريطاني. ومن بيان المؤتمر الجديد يمكن اكتشاف ما يلي:

★ ان اجتماعا اخر قد تم في ١٩٧٦/١٢/١٧ في الكاتدرائية المرقصية الكبرى.

★ ان المفردات الرئيسية في البيان هي: الشعب القبطي (الامة القبطية) السلالة العريقة في القدم.

★ الدعوة الى صوم انقطاعي يشمل جميع المسيحيين على أرض مصر لمدة ثلاثة أيام.

★ المطالب الاساسية هي: حرية العقيدة، حماية الزواج المسيحي، تكافؤ الفرص، تمثيل المسيحيين في الهيئات النيابية، الغاء التفكير في قانون الردة، التحذير من الجماعات الاسلامية المتطرفة، الغاء القوانين العثمانية التي تقيد اقامة الكنائس، استبعاد الطائفية العرفية من الوظائف العامة، حرية النشر.

وفي الوقت نفسه وصلت من كنـدا واستراليـا والولايـات المتحـدة الاميركية عدة مذكرات الى المسؤولين في رئاسة الجمهورية ورئاسة الوزراء ورئاسة البرلمان، تتضمن الافكار ذاتها التي وردت في بيان الكنيسة، واضافت اشارة الى بعض المقالات التي تنشرها الصحف الرسمية (كالاهرام في ١٩٧٦/٣/١٢ و ١٩٧٦/٩/٢٤ و ١٩٧٦/١٠/٢٢) باقلام بعض كبار رجال الدين، يتهمون فيها المسيحيين بالكفر والشرك بالله. وتبين ان هذه «المذكرات» المرسلة من الخارج، هي قرارات اتخذت في «مؤتمرات» للاقباط المهاجرين، وانها تدعو بدورها الى الصوم والصلاة والاتصال باجهزة الاعلام باوروبا واميركا لتوضح «المسألة القبطية»... حتى ان مجلة جديدة بالفرنسية تدعى «العالم القبطي» صدر عددها الاول في

باريس عام ١٩٧٧ وكتب افتتاحيات لها كل من الرؤساء جيسكار ديستان وليبولد سنغور وانور السادات.

وكما حدث عام ١٩١١ حين عقد المؤتمر الاسلامي المضاد للمؤتمر المسيحي، فقد عقدت الجمعيات الاسلامية برئاسة شيخ الجامع الازهر مؤتمرا مضادا لمؤتمر الكنيسة في شهر يوليو، تموز، ١٩٧٧ دعا الى تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا شاملا وتفصيلا وصريحا وفي مختلف مجالات الحياة على كافة المصريين مسيحيين ومسلمين، وتطهير أجهزة الاعلام من الملحدين والمشركين. كذلك فعلت مجلة «الدعوة» لسان حال الاخوان المسلمين في عدد فبراير ـ شباط ١٩٧٧.

وفي منتصف ليلة الثالث من يوليو ـ تموز ١٩٧٧ وقع حادث استثنائي روع المواطنين المصريين، اذ انتشر نبأ اختطاف شيخ ازهري كان وزيرا للاوقاف هو الدكتور محمد حسين الذهبي، وان الجهة التي اختطفته هي جماعة التكفير والهجرة التي حكمت عليه بالاعدام وشملت الحكم بالنفاذ. وأتضح أن هذه الجماعة هي احدى الجماعات المتطرفة التي انشق بعضها عن الاخوان المسلمين وظهر بعضها الاخر في كنف النظام ورعايته، وتربى بعضها الثالث في كهوف الجبل.

وبالرغم من أن النظام قد شن حملة «دينية» على هذه الجماعة، وبالرغم من أن أجهزة الامن قد اكتشفت مخابىء سرية في اسيوط تختزن عشرات الالوف من قطع السلاح الخفيف والمتوسط والثقيل، وان بعض هذه المخابىء يمتلكه المسلمون وبعضها الاخر يمتلكه المسيحيون، فان احدا لم ينتبه في غمرة المفاجأة التي اقتحمت الناس جميعا بزيارة السادات للقدس المحتلة، الى ان اغتيال الشيخ الذهبي بصفته رجلا معتدلا، كان مجرد مقدمة للاحداث الطائفية اللاحقة... فقد وقع بعدها مباشرة حادث مثير في محافظة المنيا جنوب القاهرة، حين اقدم بعض الشباب المسلم على احراق الكنيسة الرئيسية، مما دفع الشباب المسيحي في الليل التالي الى حرق مسجد

المدينة وفي اليوم الثالث كان هناك مشهد « لبناني » يحدث للمرة الاولى في تاريخ مصر اذ اقيمت الحواجز في البلدة وبدأ الخطف على الهوية .

واشتعل الفتيل مجددا حين نشرت الصحف في الاسبوع نفسه خبرا مثيرا ، اذ حكمت احدى المحاكم للاحوال الشخصية لرجل مسيحي بحقه في الزواج من « اخرى » مع احتفاظه بالزوجة الاولى ، تطبيقا للشرع الاسلامي على غير المسلمين في دولة دينها الرسمي هو الاسلام . وقد ايدت المحكمة الثانية الحكم . وانتشر اللهب الطائفي من حرق واعتداءات بدنية ، توجت بحادث مروع باحدى قرى اسيوط (محافظة محمد عثمان اسماعيل) حين احتفلت احدى الجمعيات الدينية باسلام احد المسيحيين المقيمين في قرية اخرى . ورأت الجمعية ان يتم الاحتفال بمسقط رأسه فمنعها شباب البلدة وعلى رأسهم راعي الكنيسة ، فما كان من الجمعية المذكورة الا ان ارسلت بعض اعضائها ليلا فقتلت الكاهن . وفي الصباح وقعت مجزرة لم تفاجىء احدا من رجال الامن ، وان هزت الضمير الشعبي هزا عنيفا .

ولكن رئيس الجمهورية في برقية هي الاولى من نوعها الى مؤتمر للمسلمين المهاجرين الى كندا كتب اليهم في الشهر نفسه يقول « ان الاسلام هو الوسيلة الوحيدة التي تنقذ العالم من شرور الالحاد وما يجره من جرائم اخلاقية وامراض نفسية ونزعات شيطانية » ونشرت الصحف هذه البرقية التي استفسر الناس بشأنها : هل يمكن ان يكون ذلك ردا على جماعة التكفير والهجرة التي لا سبيل لاتهامها بالالحاد ؟

وفجأة سافر البابا شنودة الى الولايات المتحدة وقابل الرئيس كارتر . وفي حضور السفير اشرف غربال اشار الرئيس الاميركي اشارة استثنائية لا علاقة لها بالبروتوكول حين قال انه لا يمكن تجاهل مشاعر ثمانية ملايين قبطي . . . ونقل السفير المصري في واشنطن الاشارة ومغزاها من سيد البيت الابيض .

وفي جلسة البرلمان الشهيرة التي قرر فيها السادات السفر الى فلسطين

المحتلة راح يؤكد ما سبق ان كرره بمناسبات اخرى « لن يلي في هذا البلد منصب يؤثر على تكوين الرأي العام أو على الجماهير أو بأي شكل من الاشكال يؤثر على تكوين اجيالنا المقبلة... لن يلي هذا المنصب أي ملحد » (الاهرام ١٠/١١/١٩٧٧)، واندهش الناس مرة أخرى، اذ ان الجماعات الدينية المتطرفة لا يمكن تعدادها في حساب الملحدين، ولكنه تحويل للمعركة الدائرة الى غير وجهتها... وعندما كان الرئيس ينحني للعلم الاسرائيلي في مطار اللد، كانت برقية التهنئة الاولى تصله من الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الازهر الذي كان يقوم بزيارة مفاجئة لواشنطن.

★★★

بين عامي ١٩٧٧ و ١٩٨٠ وقعت أسوأ الاحداث الطائفية في التاريخ المصري الحديث. فكما ان انتفاضة يناير (كانون الثاني) ١٩٧٢ قد رافقتها الاحداث الطائفية التي لم توقفها مؤقتا سوى حرب اكتوبر، كذلك فان الانتفاضة الشعبية الكبرى في ١٨ و ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩٧٧ قد رافقتها وتلتها الاحداث الطائفية دون ان تتوقف بل لعلها ازدادت ضراوة وعنفا وافتعالا حتى وصلت الى حرق اقدم كنيسة اثرية في مصر القديمة، وحتى وصلت ايضا الى حد الباس احد شباب الجمعيات الاسلامية المتطرفة ثياب الكهنوت المسيحي واعلانه في حفل عام اعتناقه للاسلام، وكشف حقيقته بعد ذلك وكذلك الى حد ظهور جمعيات مسيحية متطرفة تقوم بتسليح اعضائها وتعليمهم اللغة القبطية المنقرضة.

وزاد في تعقد الموقف ان منصب وزير الخارجية الذي خلا باستقالة اسماعيل فهمي ومحمد رياض عشية زيارة القدس المحتلة واستقالة محمد كامل ابراهيم عشية اتفاقيات كمب ديفيد قد ملأه السادات بمفكر يميني معروف هو استاذ الجامعة بطرس غالي... الذي يعرف الناس من سيرة جده انه اغتيل لانحرافه الوطني كما يعرف الناس انه متزوج من يهودية. وبالرغم من

سماحة المصريين الدينية، الا ان تعيين هذه الشخصية بالذات في مكان تخلى عنه مسلمون، ترك اثرا سلبيا في الشارع المصري. وقد كان تعيينا مقصودا، بحيث ان شباب احدى الجماعات الدينية التي اتخذت موقفا مضادا لتطبيع العلاقات مع اسرائيل قد انحرفت بشعاراتها فجأة في أسيوط، لتطالب باقصاء بطرس غالي بصفته مسيحيا، لا بصفته احد أعمدة الصلح المنفرد... الامر الذي تحول الى معركة طائفية مسعورة لم يتخذ فيها رجال الامن موقفا.

ثم تطور الموقف بصدور جملة قوانين القمع التي اخرها قانون العيب، وتعديل الدستور بحيث تم ادخال كافة القوانين الطائفية في صلب الهيكل الدستوري للبلاد. وهذا كله بالرغم من ان الاتجاهات الدينية المتطرفة والمنظمة قد هاجمت السادات احيانا والنظام نفسه بعنف. ولكن خطة الرئيس ودولته كانت معالجة التطرف الديني بمزيد من التطرف وتحويل المعركة كلها الى عدو وهمي يدعي الالحاد. وهي الكلمة الرامزة الى اليسار.

لذلك، فحين اعلن البابا شنودة اعتكافه باحد اديرة الصحراء، ودعوته المسيحيين الى الصوم الانقطاعي من جديد، اضطر النظام ليكشف عن هويته الثيوقراطية المعادية للعلمنة، بأن هاجم الرئيس شخصيا وللمرة الاولى في تاريخ البلاد، القيادة الدينية العليا للاقباط هجوما مباشرا، وان يركز يوم ١٥ مايو ـ أيار الماضي تركيزا هو الاخر الاول من نوعه، على انه رئيس مسلم لدولة اسلامية... في وقت جمدت الدول الاسلامية عضوية مصر في مؤتمرها بالرباط، بسبب السلوك السياسي المصري المنحرف عن الاسلام في قضية فلسطين.

ولكن موقف البابا المؤيد لخطوات السادات من البداية الى النهاية، اظهره في الاحتجاج الاخير كرمز طائفي بعد أن كان رمزاً وطنياً... ومن هنا خطورة التفاف المسيحيين المصريين من حوله، فهو ليس جمعية

دينية متطرفة بل هو رأس الكنيسة الشرعية. لذلك كان تهديده وانذاره من جانب رئيس الدولة بمثابة تهديد مباشر ـ ايا كانت الملابسات ـ لجميع الاقباط الذين لم يخطر ببالهم يوما هذا الانقسام العلني من القمة.

ان السادات، ونظامه، ليس معاديا في الجوهر للتطرف الديني الاسلامي او المسيحي طالما ان الفتنة الطائفية تدعم تنازلاته الوطنية والقومية للعدو، وطالما انها تشغل المواطن العادي البسيط عن الجوع والقهر وطالما أن الطرفين المتطرفين يعاديان اليسار بكافة اجتهاداته ومدارسه الفكرية والسياسية.

ولان الاطراف تكشف بعضها بعضا، فان البيانات والوثائق والوقائع المتاحة، تؤكد على النقاط التالية:

١ ـ ان الرئيس كارتر شخصيا هو الذي عرض على البابا شنودة الثالث ان تؤسس اميركا جامعة قبطية للمسيحيين في مصر لمواجهة الازهر. وان المخابرات الاميركية نفسها، كما قال السادات شخصيا تمول مؤتمرات بعض المسيحيين المصريين المهاجرين الى الخارج، وهي التي تعمل في صفوف بعض المسيحيين في الداخل.

٢ ـ ان اسرائيل، عبر الجامعة الاميركية في القاهرة هي التي تجند بعض الطلاب الاقباط المتطرفين باسم القدس، لجذب المسيحيين المصريين الى زيارتها.

٣ ـ ان المخابرات المصرية هي التي أوفدت بعض الجنود والضباط المسيحيين الى لبنان للاشتراك مع حزب الكتائب في الحرب.

٤ ـ ان اعادة بعض المصانع والشركات والاراضي المؤممة الى بعض اصحاب الجاه من الاقباط كانت تشجيعا لهم على تأييد سياسة الانفتاح الاقتصادي.

٥ ـ ان مجلة «الدعوة» للاخوان المسلمين في مصر هي التي دعت المصريين الى عدم استخدام العنف مع الاسرائيليين في القاهرة، واستخدامه

بضراوة في سورية .

٦ ـ ان بعضا من اعمدة السلطة بقيادة وزير الداخلية هي التي دربت عناصر الجماعات الدينية الاسلامية في الجامعات .

٧ ـ ان بعضا من الدول العربية هي التي مولت وتمول ودربت وتدرب بعض هذه العناصر على أراضيها ، بمعرفة السلطة المصرية .

٨ ـ ان مجلس الكنائس العالمي الذي دفع الفاتيكان الى اصدار وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح هو نفسه الذي يعمل في صفوف الاقباط عبر بعض الاساقفة المصريين المرتبطين عضويا به .

٩ ـ ان الاتهام بالشيوعية لكل مسيحي مصري معارض هو الخطة الجديدة ـ القديمة التي ينفذها النظام في الوقت الحاضر، مع اعتبار كل قبطي شيوعيا حتى يثبت العكس ، باتفاقه المطلق مع سياسات النظام، حتى ولو تعارضت مع رأي الكنيسة .

١٠ ـ تسويد المنهج الاقليمي في التربية، بحيث تصبح الحضارة الفرعونية هي الاصل العرقي للمصريين، واستبعاد تعبير الحضارة العربية واحلال تعبير الاسلامية مكانها واضافة الحضارة العبرية الى مختلف المناهج .

هذه التفاصيل العشرة هي مقدمات ونتائج في الوقت نفسه: فلقد تخلى حكم السادات عن ليبرالية ما قبل ثورة ١٩٥٢ وعن راديكالية عصر الثورة الناصرية، فجمع بين القمع والظلم الاجتماعي الصارخ وكذلك تخلى نظام السادات عن النضال ضد الاستعمار الذي عرفته مصر في أزمنة الملكية ، وعن الهوية القومية العربية التي رسخها الحضور الناصري في مصر، فجمع بين الهزيمة الوطنية والاقليمية الشوفينية . وكان طبيعيا لذلك ان يلتقي مع غلاة العنصرية في الكيان الصهيوني . وكان طبيعيا لذلك ايضا ان يكون عهده نقطة خارج السياق التاريخي لمصر، بل مندوبا ساميا للثورة المضادة القادمة من الخارج .

وكان طبيعيا اخيرا ان ترتبط الاحداث الطائفية بهذا العهد حتى زواله، لانها الثمرة الطبيعية لغياب الديمقراطية ونقصان السيادة الوطنية وغياب العدل الاجتماعي وسجن الهوية القومية في معتقل الامبريالية الاميركية برعاية الكيان الصهيوني

أوراق ممنوعة من النشر

لا مكان لمثل هذه « الأوراق » في كتاب فكري متخصص. أعرف ذلك سلفاً. لكني أحاول نشرها، هنا، لا لأهمية المقالين الممنوعين من النشر في الصحافة اليومية أو الأسبوعية، بل لأطرح على الرأي العام الثقافي قضية « فكرية » لا يعود بعدها المقالان أكثر من « استشهاد » بالوقائع على أهمية هذه القضية بحد ذاتها، والتي أحب ايجازها في نقطتين:

الأولى: هي أن القمع الذي تمارسه الأنظمة العربية ضد الثقافة والمثقفين لا يقتصر على الفكر داخل الحدود الاقليمية لهذا القطر أو ذاك. بل هو يتجاوز هذه الحدود إلى خارجها، حيث كان المثقف العربي ولا يزال يطلب « حق اللجوء الفكري ». واركز على « الفكر » وحده، لأن مطاردة السياسيين المعارضين من التقاليد العربية السارية المفعول منذ أمد بعيد. أما مطاردة « الكلمة » المستقلة عن التنظيم السياسي، فهي وان لم تكن ظاهرة جديدة هي الأخرى، إلاّ أنها لم تبلغ قط من إحكام جهنمي كهذا الذي بلغته في السنوات العشر الأخيرة. وتصبح القضية اكثر تعقيدا، حين نضرب مثلين مباشرين، احدهما منذ قرن كامل، والآخر منذ سنوات قليلة ولا يزال مستمرا.

أما المثل الأول فأختاره من « النهضة الثانية » كما أحب أن ادعو المرحلة « العرابية » في تاريخنا الفكري الحديث في أواخر القرن الماضي وبدايات القرن الحالي... حيث كانت مصر هي الاختيار العربي للمفكرين

والأدباء والفنانين السوريين واللبنانيين الذين لجأوا إليها من القهر العثماني. في ذلك الوقت كان من الممكن كجمال الدين الافغاني ومحمد عبده أن يناقشا شبلي شميل وفرح أنطون حول أقدس المقدسات الوطنية والدينية، وأن ينشر «الايمان» و «الالحاد» و «الوطنية» و «القومية» و «الاممية» و «الاشتراكية» و «الرأسمالية» في صحف ومجلات ودور نشر القاهرة والاسكندرية في ظل الخديو والاستعمار البريطاني المباشر.

دارت عجلة الزمان مائة سنة، وإذا بالمفكرين والأدباء المصريين يهجرون بلدهم بالعشرات يلتمسون حرية التعبير في صحف الوطن العربي باتساعه، والمجلات العربية في الغرب بطوله وعرضه. وهي صحف ومجلات انظمة تعارض حكم السادات علنا، ومن ثم فالمفترض بها أن ترحب بالأقلام المعارضة.

وقد حدث ذلك فعلا، أن رحبت كل اجهزة الاعلام العربية داخل الوطن العربي وخارجه بالاصوات المصرية المناوئة لنظام السادات. ولكن حدث شيء آخر ايضاً. حدث أن هذه الاجهزة التابعة مباشرة لدولها، أو الممولة أي التابعة بشكل غير مباشر، أن ربطت ترحيبها بالاقلام المصرية بمدى تطابق أصواتها مع صوت هذا النظام أو ذاك. وكأننا بالضبط لجأنا من ارهاب السادات وقهره لحرية الرأي، إلى ارهاب متعدد الأطراف. وبدلاً من قمع نظام واحد أضحينا تحت رحمة الرقابة لعديد من الأنظمة.

لذلك يفضل البعض منا العودة إلى القاهرة أيا كانت المغامرة. ويفضل البعض الآخر الصمت بالعمل في اي شيء غير الصحافة والاعلام. ويناور البعض الثالث بالتنازل مرة والمواجهة مرات. ويسقط البعض الأخير في حمأة النخاسة العربية.

وليس هذا الذي أقوله خاصاً بمصر وحدها، ولكني ضربت مثلاً بارزاً فقط، فالمثقفون العرب المطاردون من انظمة اخرى يملأون مختلف العواصم، ويعانون ذات الاهوال.

ولعلني مطالب بالاعتراف من خلال تجربتي الشخصية ككاتب عربي من مصر خرج منها أوائل عام ١٩٧٣ فأقول: إن نشر « الكتاب » هو أيسر الأمور بالنسبة لي، لأن عدد النسخ المطبوعة من أي كتاب قليلة قياساً الى توزيع المجلة او الجريدة اليومية، ولأن دور النشر في المقابل كثيرة. في المرتبة الثانية من سهولة النشر يأتي دور البحث العلمي أو الدراسة الفكرية، حيث المجلات المتخصصة ازدادت وتعددت خطوطها السياسية، بحيث يبقى هناك هامش للاختيار من بينها والقبول من جانبها. ولكنها بالتأكيد اقل ترحيبا من دور النشر، واكثر ترحيبا من المنابر اليومية أو الأسبوعية.

أما تجربتي مع المجلات الاسبوعية والصحف اليومية، فانها الى جانب كونها المتنفس الوحيد، كانت ايضاً « المختنق » غير الوحيد ان جاز التعبير، فما أكثر ما حذف لي من كلمات وفقرات ومقالات وعناوين في اوقات اشرفت خلالها بنفسي على التحرير، وفي اوقات أظن أن أسمي خلالها كان يستطيع تحمل تبعات ما يوقع عليه.

إلى أين نذهب اذن؟ اننا لم نخرج من مصر لحساب أنظمة أخرى، بل لحساب الشعب العربي في مصر والأمة العربية كلها... فهل يكون المطلوب هو اعادتنا لتنضم غالبيتنا إلى طابور الصامتين، وقلتنا إلى اجهزة السادات؟ هل هذا هو المطلوب؟

وإلاّ فما تفسيركم لكلام عربي يقول عنا - رغم كل هذه المعاناة - « إن المناضل المصري يفضل النضال من بارك لين أو ميدان الطرف الاغر أو الشانزيليزيه »... هكذا حرفيا؟ (الكفاح العربي - عدد ١٧ - ١٩٨٠/١١/٢٣).

طبعا، الرد عليه بأن تقاليد المعارضة من الخارج ليست مصرية إلاّ حديثاً جدا، وهي عربية وعالمية منذ عصور وعصور لم يعد مجدياً كما ان الرد عليه بان الاغلبية الساحقة من المناضلين المصريين لا زالوا في ظل الارهاب الساداتي - الاميركي الاسرائيلي؟ - يتمترسون في خط الدفاع

الأول عن الوطن والأمة، لم يعد مجديا. كذلك فالرد عليه بأننا نأتمر فقط بتوجيهات مناضلينا داخل مصر وحدها، لم يعد مجديا هو الآخر.

ولكن «القضية» برمتها تظل قائمة ومعلقة: هل أصبح محكوماً بصورة نهائية على المفكر العربي - لا المصري وحده - أن يكون مرتهنا لأحد الأنظمة، وإلاّ فالاعدام؟ وبعد ذلك تسألون بلوعة: أين الفكر العربي الحديث، وتحملونه احيانا مسؤولية الهزائم؟

النقطة الثانية: هي أن هذين المقالين اللذين يليان هذه المقدمة القصيرة كاستشهاد على القمع، لا يتعرضان من قريب أو بعيد لأي نظام عربي.

فالمقال الأول يناقش «فكرة» مفاجئة تقول بأن العروبة تتناقض مع المسيحية. ورغم أن الفكرة ذاتها ليست مشكلة، إلاّ أن توقيت اذاعتها هو المفاجأة. فقد نشرت الفكرة بين تاريخين متقاربين: التاريخ الأول هو ١٤ مايو - ايار ١٩٨٠ حين القى السادات خطابا جاء فيه أن الأقباط ليسوا اكثر من «سكان في مصر» - وكان ذلك دفعاً مثيرا للّهيب الطائفي الاستثنائي الذي اشعل فتيلة النظام منذ نظم بعض الجماعات الدينية المتطرفة لمواجهة قوى المعارضة، فاذا بالبداية التي أرادها الحكم لا تتحكم في المسار فضلا عن النهاية الفاجعة، وهي وقوع احداث طائفية لم تعرفها مصر في تاريخها الطويل. وكان السادات أول حاكم مصري يواجه المسيحيين المصريين بأنه «رئيس مسلم في دولة اسلامية»، وهي حقيقة لا تحتاج إلى هذا النص العلني إلاّ اذا كان المقصود باثارتها هو تثبيت مقولة «مواطن من الدرجة الثانية» في ضمير المسيحي المصري، وتحريض المواطن المسلم على التشبث بهذا التمايز من موقع التفوق «الشرعي». وكلها أمور لا علاقة لها بمصر أو المصريين.

في السابع من يوليو - تموز ١٩٨٠ كان بشير الجميل يعلن بقوة السلاح في احدى مناطق لبنان أن دويلته الطائفية الموحدة البندقية على وشك القيام بل التكريس «لمسيحيي الشرق كله». وهي العبارة التي عاد

السادات فاستخدمها مبشرا العالم بأن بيار الجميل سيقيم دولة لجميع المسيحيين العرب .

حين تفاجئنا في هذا المناخ الصهيوني (أي مناخ التهديد باقامة دويلات طائفية على النمط الاسرائيلي) فكرة تقول بالتعارض بين المسيحية والعروبة ، ألا يحق لنا أن ندهش لتوقيتها وأن ننقد محتواها ؟

وهذا هو كل ما حاوله المقال الأول الممنوع من النشر، قناعة خالصة من كاتبه بأن الموضوع ليس دينيا على الاطلاق، بل هو مسألة سياسية خطرة تدفع بقطاعات عريضة أو ضيقة من ملايين العرب بعيدا عن مقاومة الغزو الصهيوني ، وبعيدا بعيدا عن وحدة الأمة .

لم يتعرض المقال اذن ـ كما سنرى ـ لنظام حكم، بل لرأي، من الأمانة القومية مناقشته، حتى لا يتحول إلى سلطة طائفية عند أصحاب الدكاكين .

ولكنه لم ينشر .

ويسجل التاريخ هذا السؤال: أين كان الفكر العربي حين ذاعت هذه « الفكرة » ؟

ولا يقول احد أن الارشيف السرّي للثقافة العربية لم يذع بعد ، وأن مئات المواجهات الحرّة لم يكتب لها أن ترى النور، لأن صاحب المال هو صاحب السلْطة في اعلان رأيه وحجب الرأي الآخر. وانه في زمن النفط العربي تمتد السلْطة من داخل الحدود إلى خارجها . . . فاذا كان هناك « مونولوغ الحاكمين » سائداً ، و « ديالوغ المفكرين » غائبا ، واستخلصتم أن الفكر قد مات ، فان عليكم واجباً بسيطاً هو أن تحددوا للاجيال القادمة من كان القاتل ومن كان القتيل .

أما المقال الثاني، فقد كتب غداة الضم القانوي من جانب الكيان الصهيوني للقدس المحتلة « عاصمة موحدة وابدية لاسرائيل » .

لم أناقش فيه موقفاً لنظام أو تصريحاً لحاكم، وما أكثر المواقف

والتصريحات التي استحقت المناقشة حينذاك .

ولكني أردت أن أعرّي القضية من ثيابها الدينية « المقدسة » وكأن القدس لم تضم إلاّ هذا العام، وكأن القدس هي المحتلة وحدها لا فلسطين. ولم أختر لهذه التعرية التيار الديني في السياسة العربية المعاصرة حيث تتحول القضية الوطنية ـ القومية عند هذا التيار إلى مجرد الصراخ على احتراق المسجد الاقصى أو كنيسة القيامة، وكأن احتراق ارض عربية ـ فلسطينية بكاملها ـ بالاحتلال الاستيطاني ليس هو جوهر القضية. كنت اعرف سلفا أن المنطق الديني لهذا التيار يلتقي في خاتمة المطاف مع المنطق الديني للصهاينة انفسهم .

غير أنني أردت تعرية هذا التيار من زاوية اخرى، هي موقف الكرسي البابوي في الفاتيكان، وهو الموقف الذي يؤثر دوليا على مئات الملايين من الكاثوليك، ويؤثر محليا على مئات الالوف من المسيحيين العرب .

لا يتعرض المقال اذن لحاكم عربي، ولا لنظام حكم عربي، ولا للدين بحد ذاته، بل لمؤسسة اجنبية تخضع للنقد في موطنها نفسه .

وقد حاولت في المقال أن أقيم الحدود بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية، وأن ألقي الضوء على أساليب « تهويد المسيحية » التي اتبعتها الصهيونية، وأساليب اختطاف المسيحيين العرب من كنائسهم القومية إلى مراكز تابعة للنفوذ الاجنبي من خارج الحدود .

ورغم أن المقال كتب بأسلوب صحفي، فقد استندت على الوقائع والمعلومات في سرد السياق الموضوعي للقضية برمتها .

وكان مصير المقال كمصير الذي سبقه، رغم انه دفاع عن قومية التراب العربي والوجدان الديني العربي ... لأن قضية « الدين » ـ كمؤسسة لا كعقيدة ـ محرّم الخوض فيها بعد مائة سنة من الزمن الذي كانت تناقش فيه المؤسسة والعقيدة معاً، وعلناً .

هل نعود إلى الوراء؟ هكذا سيؤرخون لجيلنا ساخرين بعلامة سؤال؟

كلا، فقد كان الفكر حاضراً، والضمير ايضا. وكنا على استعداد للشهادة من اجل ما نعتقد انه الحق. ولكنهم حرموا علينا، حتى حق الاستشهاد، واحتكروا لانفسهم «بطولة الرأي الواحد» التي سنظل نرفضها ولو لم نجد غير اظفارنا وجدران المقابر أدوات للكتابة والنشر.

المقال الأول:

١ـ ماذا قال النقيب نبيل جرجس للواء فؤاد غالي؟

ربما كان الطيار العربي السوري نبيل جرجس ملازماً، حين كان العميد فؤاد عزيز غالي أول من يعبر قناة السويس من قوات مصر في حرب تشرين ويرفع العلم على القنطرة شرقا بعد أن حررها شبراً شبراً، ومن ثم يصدر الأمر بترقيته إلى رتبة لواء قائداً للجيش الثاني.

ولكن النقيب نبيل جرجس، بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ، يركب طائرته المقاتلة دفاعاً عن سماء لبنان وقضية فلسطين، وحين يخسر الطائرة يربح الحرب بينما يجلس اللواء فؤاد عزيز غالي في مكتب للشؤون الادارية بالقوات المسلحة المصرية، يخسر ولا يربح، لا الحرب ولا السلم، منذ فقد الوطن.

واعتقد مخلصاً أن حواراً صامتاً قد دار بين العسكريين العربيين ـ الشاب والكهل ـ لم تقطعه الرصاصة التي كادت تصيب سيارة البابا شنودة الثالث البطريرك المصري، ولا الرصاصات الكلامية التي كادت تصيب عروبة المسيحيين العرب.

كذلك أعتقد مخلصا أن حوارا صامتا قد دار بين العسكريين العربيين ـ العامل والمتقاعد ـ لم تقطعه الدعوة الكلامية إلى الجهاد المقدس ولا المقررات الخطابية للجنة القدس ولا قطع العلاقات مع الدول الاجنبية التي لا تنقل سفاراتها من المدينة المقدسة.

أما الحوار الأول، فان موجزه التاريخي والجغرافي والحضاري، تحدده النقاط التالية:

□ إن العروبة أو القومية العربية، بالنسبة للمسيحي والمسلم على السواء، لم تكن في يوم من الايام ثمرة الانصهار العرقي أو التوحد الديني. ومع ذلك، فان قطاعات عريضة من المسيحيين العرب في المشرق هم سلالة عربية نقية العرق. كذلك، فان بطاركة الأقطار العربية الكبرى هم الذين يسروا سبل النجاح للفتوحات الاسلامية لبلادهم. كذلك أيضاً، فقد حافظت الاديرة والكنائس المشرقية على التراث العربي الاسلامي في أسوأ العصور، وتخصص بعضها في دراسة اللغة والآداب العربية.

□ لا نحتاج إلى القول بأن عرب شبه الجزيرة قبل الرسالة الاسلامية كانوا من المسيحين واليهود والوثنيين، ومن ثم فعروبتهم التي لا سبيل للشك فيها لا تنتسب لدين من الاديان. ومع ذلك، فلنقل أن الاسلام قام بدور توحيدي حاسم للعرب جميعاً. ولكنه لم يكن قط التوحيد الديني، بل التوحيد القومي، لأنه «لا اكراه في الدين» من ناحية، ولأن القرآن اعترف صراحة بأهل الكتاب.

□ من أي عرق جاء السيد المسيح؟ ليس هذ هو المهم، فالأهم أنه «جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله، أما الذين قبلوه فأعطاهم سلطانا أن يصيروا ابناء الله أي المؤمنين باسمه»، فمن الطبيعي أن يتوجه المسيح برسالته إلى اليهود أولاً، ولأن هذه الرسالة إنسانية شاملة لا علاقة لها بأسطورة «شعب الله المختار» فقد رفضوه حتى الصلب «دمه علينا وعلى أولادنا». لذلك كانت المسيحية في جوهرها، عهداً جديداً (كما يسمى الانجيل بحق) وثورة كاملة على اليهودية، فاذا كانت دعوة المسيح هي «اريد رحمة لا ذبيحة»، فانه هو نفسه الذي قال في موقع آخر «ما جئت لالقي سلاماً بل سيفا»، «ولأفرق الولد عن أبيه والبنت عن أمها والأخ عن أخيه» مشيرا بذلك إلى أن رسالته هي الحد الفاصل كالسيف بين الايمان القديم والايمان الجديد. لذلك فهو حين يقول «ما جئت لانقض الناموس بل لأكمل الناموس» يعود إلى شرح ذلك جيدا حين يقول «قيل للقدماء كذا وكذا.. أما أنا

فأقول لكم.. الخ» مما يعني أن استكماله للناموس كان اضافة ثورية إليه، كان ثورة تعترف بالتراث ولا تتوقف... تماماً، كما فعل الاسلام في ما بعد.

☐ لا تحتاج إلى شهادة احد المبادرة التاريخية للمسيحيين العرب في المشرق (خاصة سوريا ولبنان) إلى الدعوة القومية العربية، واقطارنا تئن تحت وطأة الهيمنة العثمانية. كان المفكرون المسيحيون العرب روادا تاريخيين في تكريس هذه الدعوة في القرن الماضي. واستمرت سارية المفعول في ما نشأ من احزاب قومية عربية طيلة القرن العشرين. إن حزبا قوميا لا شبهة في عروبته كحزب البعث العربي الاشتراكي قد عرف في صفوفه القاعدية والقيادية على الدوام مناضلين مسيحيين من مختلف الأقطار العربية المشرقية. كذلك «حركة القوميين العرب» في نشأتها وتطورها عرفت من القيادات والقواعد المسيحية ما لا يحتاج إلى حصر. وفي مصر كان الرجل الذي نادى من داخل القيادة الوفدية «نحن عرب. نحن عرب. نحن عرب» هو المسيحي وليم مكرم عبيد.

ماذا تركنا الاشخاص والرموز والاحزاب، إلى الشعب نفسه، فاننا نجد المسيحيين والمسلمين يداً واحدة وقلبا واحداً وروحا واحدة ضد الصليبيين والاتراك والفرنسيين والانكليز والاسرائيليين دفاعا عن الارض، وضد الاباطرة والسلاطين والملوك والطغاة دفاعاً عن الحرية، وضد الباشوات والاقطاعيين وكبار الرأسماليين والطفيليين على الانتاج دفاعاً عن العدل. كان الدم عربيا ولا يزال في كل ساحات المعارك، لم يفرق العدو نفسه بين مسيحي ومسلم.

☐ أما ما يحتاج إلى ايضاح، فهو أن البعض لا يعرف أن ثمة فرقا شاسعاً بين المسيحية الغربية والمسيحية الشرقية. ولن نغوص هنا في الفروق اللاهوتية بين الكنيستين هنا في الشرق وهناك في الغرب، وانما نكتفي بالقول أن الاساس الموضوعي الراسخ لهذه الفروق هو النزعة الاستقلالية

للمسيحية الشرقية. وفي عبارة اخرى، فان هذا الاستقلال هو «تعريب الكنيسة» بالنسبة للمسيحيين العرب في الشرق، فلا سلطان روحياً عليهم من أي مركز أجنبي في الخارج، ولا تقاليد اجنبية وافدة على صلواتهم وطقوسهم من الخارج. بل كل السلطان من ارض الوطن، وكل التقاليد من ترابها.

ومن ابرز هذه التقاليد التى لا يمكن للمسيحي الغربي أن يفهمها أو يدرك أبعادها، أن المسيحي العربي لا يشعر بغربة عن الاسلام، بل العكس يرى في الحضارة الاسلامية جزءا لا ينفصل عن تكوينه الروحي الأصيل.

وهذا لا ينفي مطلقا أن الوضع مختلف أشد الاختلاف في المغرب العربي الكبير، حيث تترادف كلمتا المسيحي والغربي بحيث يصبح العربي هو المسلم فقط، أما المسيحي فهو الأوروبي (الفرنسي في المغرب والجزائر وتونس، والايطالي في ليبيا) وبالتالي فهو المستعمر. ليس من مسيحيين مغاربة، لذلك فهم معذورون حين لا يتصورون العربي مسيحيا. واذكر بهذه المناسبة أنني شخصيا تعرضت لحادث مثير في العام الماضي، أثناء محاضرة كنت القيها في الرباط. كانت الندوة حول «الوحدة العربية بين النظرية والتطبيق». وقدمني زميلي الكبير محمد عودة بصفتي كاتبا عربيا مسيحياً من مصر شارحاً دور المسيحيين العرب في الدعوة القومية. وحدث وجوم شامل في القاعة عند سماع آلاف الشباب المغاربة هذا التعريف، فما كان من عبد الكريم غلاب النائب والكاتب المغربي الذي تربى في المشرق، إلاّ أن استدرك قائلاً «ومع هذا فزميلنا مسلم بالثقافة والحضارة» فانحنيت برأسي شاكرا، واذا بالقاعة تضج بالتصفيق. بعدها بشهور كنت مدعوا لندوة اخرى في ليبيا. وخلال ساعة وخمس عشرة دقيقة في التلفزيون كنت ادافع خلالها عن المقاومة الثقافية المصرية البطولية داخل مصر، واذا بالمذيعة الليبية «تهنئني» في خاتمة الحوار على موقفي من الاسلام، وقد نمت إليها الحكاية المغربية مبالغاً فيها. ولم اجد ما أقوله ـ وقد فوجئت ـ سوى

أنه « موضوع قديم وطبيعي » . وكررت ذلك عدة مرات حتى يفهم الناس ما اعنيه بقولي الآن: انني كمسيحي عربي لست غريبا عن الاسلام فهو جزء من تكويني . ولكن الالتباس المغربي لا يجب أن يتحول إلى « نظرية » تسقط العروبة عن المسيحيين العرب، فهي ليست منحة من أحد حتى تسترد، بل هي اختيار تاريخي وهوية قومية دفع أصحابها الثمن . . لدرجة الشهادة .

وربما كان هذا هو المغزى الذي دفع جمال عبد الناصر منذ عشرين عاماً أن يفتتح المبنى الجديد لبطريركية الاقباط الارثوذكس في القاهرة، وان يقدم للبابا كيرلس السادس شيكا بمبلغ مائة الف جنيه لاستكمال البناء قائلاً « هذه احدى قلاع مصر العربية » .

★ ★ ★

والقضية برمتها ليست حوارا نظريا، بل لأن الكلمات تقوم بدور سياسي شئنا أو لم نشأ .

في مصر، مثلا، أحداث طائفية يريد لها البعض أن تزداد التهابا لتغطي على جرائمهم الوطنية والقومية، فيطلقون الرصاص على سيارة البابا شنودة .

وفي لبنان، مثلا ايضا، تكوين اجتماعي لا يحتمل الحساسيات الطائفية، فلا أقل من إطفاء الحريق بدلاً من القاء المزيد من البنزين .

فنحن نجتاز دون أية مبالغة اخطر المراحل في تاريخنا العربي الحديث .

لذلك كان المساس بقضايا ـ خاطئة من الاساس ـ هو نوع من التفجير البريء أو المقصود، لا يهم، فالنتيجة واحدة: وهي أننا نقدم للعدو أثمن الهدايا . بعضنا يحرث له الارض لاقامة المزيد من المستوطنات، وبعضنا يعبِّد له الطرق لاقامة الدويلات .

لم يكن ضم القدس بالأمر الجديد، ولكن التشريع لهذا الضم كان يعني أمراً جديداً: هو أن ثمار الصلح المنفرد بين مصر والكيان الصهيوني، لا

زالت ناضجة وصالحة للقطف. إن تكريس ضم القدس لم يكن اكثر من رمز إلى أن « اسرائيل» ماضية في طريقها لتصفية القضية الفلسطينية فوق الارض.

وتحت الارض ايضاً.

فما أن صوت البرلمان الصهيوني على تقنين ضم القدس، حتى كان مجلس الوزراء يجتمع ليقرر ما هو أخطر، وما هو بعيد عن التداول بين العرب إلى اليوم. قرر المجلس الاسرائيلي، البدء في فتح قناة تحت وفوق الارض تمتد من البحر الميت إلى البحر المتوسط. وهو قرار يعني ببساطة بالغة انتهاك السيادة الاردنية المتبقية على شرق البحر، وتأكيد السيادة الصهيونية على قطاع غزة.

قرار لا يقل خطورة عن ضم القدس، ولا أحد يتكلم. وفي اليوم التالي قرار مكرر باقامة ٤٩ مستوطنة جديدة في الاراضي المحتلة.

وفي اليوم الثالث قرار بغزو الجنوب اللبناني برا وبحرا وجوا.

وفي مواجهة ذلك كله لم يصدر عن العرب إلا موقفان: الأول هو الدعوة إلى « الجهاد المقدس» الذي يصل إلى أعلى ذراه بقطع العلاقات مع الدول الاجنبية التي لا تنقل سفاراتها من القدس.

والآخر هو المقاومة.

مقاومة الشعب الفلسطيني الخارقة في الاراضي المحتلة. مقاومة القوات المشتركة الفلسطينية واللبنانية في الجنوب تقطع الطريق على العدو بكل ما لديهم من طاقة على المقاومة.

العرب، هم التلاميذ الفلسطينيون الذين يواجهون الجندي الصهيوني بحصاة، وهم ايضا المقاتلون الابطال عن قلعة الشقيف ـ أرنون.

العرب في كل مكان، هم هؤلاء، حتى ولو منعتهم بعض الحكومات من التظاهر دعماً لشعب مصر وتأييدا لفلسطين وصلاة للبنان...

العرب في كل مكان، هم هؤلاء، حتى ولو سجنتهم بعض الحكومات، وعذبتهم حتى ينسوا اسم فلسطين.

العرب في كل مكان، هم هؤلاء، حتى ولو كان اللواء فؤاد غالي لا زال جالساً على مكتب لتصريف الشؤون الادارية، بدلاً من تحقيق البطولات على أرض الفداء.

.. لأن اللواء المصري يفهم من حركة النقيب السوري في سماء لبنان أن الأمة العربية لا تموت

.. ومن ثم، فمصر لن تموت

وستتعانق الدماء العربية من جديد ذات يوم - مهما طال البعاد - على ارض فلسطين.

★★★

لست أحلم

ولكنه الايمان، الاكثر دقة في لحظات التاريخ السوداء، من حسابات الكمبيوتر.

١٩٨٠/٨/٥

٢ ـ القدس أم « أورشليم قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين » ؟

لعلني لا زلت اذكر منذ اكثر من اربعين عاماً، كيف كان أبي يحكي لي ولاخوتي قصة زيارته للقدس، وكيف كانت امي تحسده على انه نال ما يتمنى فشاهد كنيسة القيامة، ورأى قبر المسيح . . . أما هي فأمنيتها ظلت حبيسة الفقر والضلوع حتى ضاعت القدس، وماتت صاحبة الامنية دون أن تعود « عاصمة الرب » .

في طفولتي لم اهتز لقصة الزيارة المقدسة التي قام بها أبي واشتاقت إليها أمي، ذلك انني في تلك المرحلة الباكرة جدا من العمر كنت تلميذا مواظبا في « مدارس الأحد » حيث تعلمت أن المسيح نادى القدس ذات مرة قائلاً « أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين » . وقد فهمت في حينها أن السيد المسيح يكره هذه المدينة . . . فلماذا زارها أبي وتتوق لزيارتها أمي؟

في الصبا ادركت لماذا لعن يسوع أورشليم، فلم تكن المدينة في كلماته هي البناء المشيد بالحجر، بل كانت في ما اظن هي « رجال صهيون » من باعة الحمام والصيارفة الذين قلب موائدهم وطردهم من الهيكل بالسياط قائلاً « بيتي بيت الصلاة يدعى، وانتم جعلتموه مغارة لصوص » .

في تلك اللحظة قررت أورشليم أن تنفذ قانونها، وتغتال المسيح، وفي اللحظة نفسها حولها دمه من أورشليم التي كانت إلى القدس التي اصبحت. وتحولت المسيحية جداراً تاريخيا شاهقا بين عهدين: بين صهيون وفلسطين.

لذلك، ففي مطلع الشباب فهمت المغزى الديني الذي كان يدفع أبي بجهاس لتذكر زيارته لمدينة المسيح، ولكن العاصمة المقدسة ارتبطت في خيالي على الفور بقصة فلسطين.

أسوق هذه الكلمات في البداية لأقول أن قداسة البابا يوحنا بولس الثاني أستاذ متخصص في اللاهوت، ويفهم اكثر مني بغير شك قضية القدس في الانجيل والحياة على السواء. يفهمها على صعيد الفكر والواقع معاً.

ولكن الفهم شيء، والانتماء شيء آخر.

إنني كانسان مسيحي لا أفهم في المسيحية عشر معشار ما يعرفه البابا الكاثوليكي القادم من بولونيا.

ولكني كمواطن عربي - وفي هذا الانتماء المحدد يشترك معي جميع المسلمين العرب - أعتقد انني افهم واشعر بمعنى القدس اكثر من البابا والكنائس الغربية كلها.

ومن هذه النقطة ايضاً أسمح لنفسي بالقول أن البابا الذي يقبل الارض كلما هبطت طائرته في احدى العواصم، حتى أصبحت هذه القبلة المقدسة هي صورته الثابتة في اذهان مئات الملايين، لم يتخيل قط معنى «الأرض» المقدسة التي تم تكريس اغتصابها في قانون الكنيست الاسرائيلي الذي سن منذ اسبوعين، لتوحيد القدس عاصمة ابدية لصهيون. أي باعادتها إلى أورشليم.. قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، كما كان يُناديها المسيح.

وحتى لا نظلم البابا، فان القدس قد اغتصبت منذ ثلاثة عشر عاماً.

وحتى لا نظلمه مرة اخرى، فإن ما يعنينا هو فلسطين بما فيها القدس، وليس القدس بمعزل عن فلسطين.

ولكننا لا نستطيع أن نفهم نحن العرب ـ مسيحيين ومسلمين ـ كيف يمكن للقصر البابوي في الفاتيكان أن يهتم اقصى درجات الاهتمام بكل شاردة وواردة في العالم الواسع، ويتجاهل حدثا دوليا مجلجلا في الشرق الأوسط يدعى «تهويد القدس» أو توحيدها، سيان. بل، أكثر من ذلك، هو يتسلم دعوة من رئيس الوزراء مناحيم بيغن لزيارة القدس الموحدة ـ أي المهودة ـ فلا ينتهز الفرصة ويعلق بحرف.

.. لو كان البابا يوحنا بولس الثاني رجلا يكره الكلام، لالتمسنا له العذر. ولو كان الحديث معقدا او غامضا وبعيدا عن أية ظلال دينية، لالتمسنا له العذر. ولكن الحقيقة هي أن الرجل يحب الكلام والصور كأي نجم عالمي في السياسة الدولية، وله الحق. والحقيقة ايضا أن القدس لها أبعادها الدينية عند المسيحيين والمسلمين، بالاضافة أنها كقضية ابعد ما تكون عن التعقيد والغموض.

.. واذن، فما هي الحكاية؟

والحكاية لا تخص البابا وحده، ولا دولة الفاتيكان وحدها، بل تخص «المسيحية الغربية» عموماً. وحتى اكون واضحاً، فهي المسيحية التي تقودها الولايات المتحدة الأميركية، لا كعقيدة دينية، بل كاستراتيجية سياسية.

حتى اكون واضحاً اكثر، فانني لا أقصد بتعبير المسيحية الغربية، مذاهب الايمان الكاثوليكي أو البروتستانتي، وانما اقصد التيارات الايديولوجية المنظمة التي تقوم أميركا بتصديرها تحت ستار «انشقاقات» لاهوتية مفتعلة، أو العكس تحت ستار «تجمعات» دينية مفتعلة ايضاً.

وحتى اكون واضحاً اكثر واكثر، فاني سأضرب بعض الأمثلة...

لن اتكلم عن الارساليات القديمة قدم الاستعمار، حين كان الضابط والكاهن ـ أو المسدس والانجيل ـ يتقدمان بعثات التبشير في احتلال افريقيا.

ولن اتكلم عن اخفاق هذه الارساليات في اجتذاب المسلمين، وتخطيطها بعدئذ لاجتذاب المسيحيين من كنائسهم القومية إلى دائرة النفوذ الديني الاجنبي.

لن اتكلم عن ذلك كله، لانه معروف.

ولكني سأتكلم ـ مثلا ـ عن المذاهب المفاجئة التي قدمت من الولايات المتحدة في الخمسينات والستينات: شهود يهوه، الادفنتست (السبتيون)، البلاموس.. إلى آخره إلى آخره.

هكذا فجأة انشقت كنيسة لوثر العظيم إلى سبعماية مذهب جديد في الولايات المتحدة الآن، حسب الاحصاء العالمي للسنودس المقدس في اميركا ذاتها.

واستطيع أن أقول بضمير مطمئن، أنني شاهدت هذه المذاهب، وهي تهبط على مصر كالمطر منذ قيام الثورة عام ١٩٥٢ إلى أن أمر جمال عبد الناصر بطردها من البلاد خلال ايام في الستينات.

طردها بناء على تقارير من جهتين لا صلة لاحداهما بالأخرى.. فالتقرير الأول كان من الانباكيرلس البطريرك الراحل للاقباط الارثوذكس. وكان التقرير يشكو من أن جماعات «دينية» أميركية تندس في صفوف ابناء الكنيسة الوطنية تدعوهم إلى معتقدات مشبوهة، كالدعوة إلى أن اسم الله عز وجل هو «يهوه» كما جاء في التوراة، وكالدعوة إلى اتخاذ يوم السبت للعبادة المسيحية بدلاً من الأحد، الأمر الذي يشتم منه أن هذه الجماعات الغريبة تعمل على «تهويد المسيحية» من ناحية، وعلى اخراج

ابناء الكنيسة الوطنية عن طاعتها بكسب ولائهم لمراكز اجنبية من ناحية اخرى .

واضاف تقرير البابا الراحل أن هذه الجماعات تقوم في سبيل دعوتها بسلوك ووسائل وأساليب غير مشروعة دينيا بجذب الشباب إلى نواد للرقص المختلط ، وبمنح بعض المحتاجين من الفقراء بعض المال .

أما التقرير الثاني فكان من اجهزة الأمن، وهو لا يختلف في وقائعه وتفاصيله عن تقرير القصر البابوي المصري، وان اضاف وثائق خطيرة تؤكد ان هذه الجماعات موفدة في معظمها من وكالة المخابرات المركزية ، والقليل منها هو شبكات تجسس لاسرائيل .

هنا أمر الرئيس عبد الناصر باغلاق « معابد » هذه الجماعات كلها ، واعتقال المشتبه في كونهم جواسيس ، وطرد الآخرين على الفور .

وحتى لا ننسى، فقد تم ذلك عام ١٩٦٥ .. أي في ذروة الانقلاب المسلح الذي أعده الاخوان المسلمون في ذلك الوقت لقلب نظام الحكم .

في عبارة أخرى، كانت الاجهزة الاجنبية تعمل على الموجة الدينية باذاعتيها : المسيحية والاسلامية .

وحتى لا ننسى ايضاً ، فقد كان ذلك قبيل حرب ١٩٦٧ بعامين اثنين فقط .

★ ★ ★

هذا هو المثل الأول ، الذي تنشق فيه الكنيسة الأميركية بقدرة قادر الى سبعماية مذهب للتصدير .

المثل الثاني هو « التجمع المسيحي » المفتعل تحت عنوان « مجلس الكنائس العالمي » .

وحتى لا نتهم بالافتراء، فاننا سنترك النيويورك تايمز ـ الصحيفة

الأميركية الكبرى - هي التي تنشر عام ١٩٦٦ أسماء المؤسسات والمعاهد والمراكز التي تمولها وكالة المخابرات المركزية، فاذا بمجلس الكنائس العالمي احداها وابرازها.

والقضية ليست هنا، فالأهم أن هذا المجلس كان اهتمامه شبه الوحيد هو «العالم الثالث»، ثم كان اهتمامه الوحيد هو «الشرق الأوسط».

وفي هذا الاطار، لم نقرأ طيلة عشرين عاماً وثيقة دينية واحدة لمجلس الكنائس العالمي، تقرب بين كنيسة واخرى. بل كانت وثاقة كلها تدور حول مواجهة «الالحاد» الذي لا ندري كيف خص به القدر شعوب العالم الثالث بالذات، واقطار الشرق الاوسط على وجه التحديد. ولكن وثائق المجلس تكشف الواحدة بعد الاخرى عن أن الالحاد المقصود هو التأميم والاصلاح الزراعي ومجانية التعليم والتسلح من المعسكر الاشتراكي وتكشف ايضاً عن أن المطلوب هو التقارب بين الاسلام واليهودية. وان المسيحية العالميـة (أي مسيحيـة المجلس المذكـور) تستطيـع القيـام بهذا الدور «التاريخي»!

.. ولا يحتاج الكلام مني إلى شرح أو تعليق. ولكن اخطر الوثائق وأشهرها هي تلك الوثيقة التي تقدم بها كاردينال أميركي، وحظيت بموافقة مجلس الكنائس العالمي الذي قدمها بدوره إلى الفاتيكان.. فحظيت بالموافقة البابوية واعتمدت كوثيقة مقدسة لا تقبل الجدل.

كانت هذه الوثيقة تقول: نعم، لقد صرخ اليهود في وجه بيلاطس البنطي الحاكم الروماني الذي حاكم المسيح: اصلبه، اصلبه، دمه علينا وعلى أولادنا. ولكن هذا الصراخ لا يعني مطلقا أن أبناء هؤلاء واحفادهم مسؤولون عن صلب المسيح.

وحتى لا ننسى، فقد صدرت هذه الوثيقة غداة الهزيمة العربية عام ١٩٦٧.

ولست اعتقد مخلصا، أن هناك مسيحيا في الشرق أو الغرب كان يفكر في ذلك الوقت أو في اي وقت، عما اذا كان اليهود المعاصرون مسؤولين عن صلب المسيح أم لا. ولكني اعتقد مخلصا كذلك، ان اختراع فكرة الوثيقة كان جزءا من الحملة الصهيونية داخل مجلس الكنائس العالمي، لتبرير اليهود امام الضمير المسيحي العربي... لا عن صلب المسيح، بل عن صلب فلسطين بكاملها، وسيناء كلها، والجولان باكمله.

هذا هو سر الوثيقة، ولست اجد لها مغزى آخر، فمن غير المعقول أن يهبط هذا الاكتشاف المفاجىء على كاردينال اميركي بعد الفيّ عام من صلب المسيح. ومن غير المعقول أن يكون القصر البابوي وكافة معاهد اللاهوت الكاثوليكي في العالم، قد نامت عشرين قرنا على هذه الفكرة الخطيرة.

ولكن غير المعقول يصبح معقولاً جداً، بعد رحيل البابا التاريخي العظيم يوحنا الثالث والعشرين.

بعد رحيله اكتشفت الولايات المتحدة خطأ ستالين... فحين اتوا على ذكر الفاتيكان امامه سألهم ساخراً: كم فرقة عسكرية لدى البابا؟

أجابت وكالة المخابرات المركزية بعد زمن: لديه اكثر من نصف مليار كاثوليكي في العالم. وربما كان الملك بلا جيوش اكثر هيبة واحتراماً عند المستضعفين في الارض من الملوك اصحاب الاساطيل. انه، على الاقل، يجعل مملكتهم في السماء، ويسمح لنا بالتربع على عروش الارض.

وليس من المهم ما قالته المخابرات الأميركية، فالاهم ما فعله، ويفعله الفاتيكان.

... وان كان الناس، وبعض وسائل الاعلام، تربط بين مسيرة القصر البابوي بعد رحيل البابا يوحنا الثالث والعشرين، والطريقة المثيرة التي اتى بها البابا يوحنا بولس الثاني.

لم يكن الرجل في الحسبان، إذ انطلق الدخان الابيض من نوافذ الخلوة الفاتيكانية، قبل أن يجيء بشهر. وتم تنصيب احد الاساقفة الايطاليين بابا بالفعل.

بعد ثلاثين يوماً فقط، مات البابا الجديد فجأة. أقصر فترة في تاريخ العرش البابوي كله.

ودارت « الخلوة » من جديد

وتعثر الدخان الابيض طويلا طويلا

ثم ظهر فجأة.

واذا بالبابا الجديد اسقف غير ايطالي، للمرة الأولى منذ عشرات السنين.

اكثر من ذلك، أنه اسقف من أوروبا الشرقية، للمرة الاولى ايضاً في التاريخ الكاثوليكي على الاطلاق.

اسقف شاب من بولونيا

وكانت الفكرة في الاختيار - أيا كان صاحب الاختيار - بالغة الذكاء، فراعي الرعاة للعالم الكاثوليكي قادم من دولة لا تشعر فيها الكنيسة بأنها سيدة الدين والدنيا. وبدا الأمر للكثيرين يومها، كما لو كان تحديا للمعسكر الاشتراكي.

ثم تأكد الأمر لدى بعضهم، حين ترافق اختيار البابا البولوني المنتخب مع شعارات الرئيس الاميركي الجديد - يومها - جيمي كارتر عن حقوق الانسان. وهي الحملة التي افتتح بها عهده للنيل من المعسكر الاشتراكي.

وبدأت الأجهزة المتخصصة في صناعة النجوم، تدفع البابا يوحنا بولس الثاني إلى مقدمة المسرح الدولي... رحلات متتابعة تنقلها الاقمار الصناعية للحبر الاعظم، من اقصى الجنوب الافريقي إلى اقصى الشمال الأميركي.

وحين قام بزيارة لتركيا - حيث يتضاءل عدد المسيحيين إلى اقصى درجة - طلب أن يصلي في كنيسة آيا صوفيا. ولأن الاحوال في البلد المسلم العنيف كانت متوترة، فقد اعتذر الاتراك لقداسة البابا في لهجة مهذبة.

ولكنه لم يستطع تفهم الاعتذار، فقد أبرق إلى الاسبان يطلب إليهم منع اي زائر مسلم من الصلاة في «المسجد الكبير» بقرطبة... وقد دهشت السلطات الاسبانية لهذا الطلب، ولكن الكنيسة الكاثوليكية اصرت على تنفيذ اوامر الحبر الاعظم.

وحين وصل إلى باريس - بعد غياب ١٦٦ سنة لم تطأ فيها ارض فرنسا اقدام البابوات - فانه لم يجد ما يقوله لحشود الفقراء من العمال الفرنسيين والمهاجرين إلاّ: احذروا الالحاد.

وتقوم عدسات التلفزيون بتصوير البابا وقد حمل طفلا اسود، أو وقد انحنى على امرأة عجوز يستمع إليها. وتعلق مئات الالوف من صوره في كل مكان يزوره، وقد رفع غصن الزيتون. وتصدر عنه مئات الكتب في كل اللغات، الأمر الذي لم يحدث لبابا من قبله. وحين يفاجأ في اميركا اللاتينية بأن الاساقفة الكاثوليك يقفون ضد الحكم العسكري في بلادهم، فانه يوجه إليهم النصح بأن المسيح جاء ليلقي سلاماً لا سيفا، فلا يكون من اسقف شجاع إلاّ أن يقول له: ليت الحبر الاعظم يذكر حكامنا بهذه الآية، فهم الذين يحملون السيوف.

★★★

ولا شك أن البابا المثقف يدري الكثير عن حقوق الانسان في فلسطين المحتلة.

ولا شك انه يدري باغتصاب القدس من قبل أن يجلس على العرش البابوي بزمن طويل.

ولا شك انه يدري بأن « حادثا » ما خطيرا وقع منذ اسبوعين لعاصمة المسيح .

ولا شك أنه تسلم دعوة من رئيس الوزراء الاسرائيلي لزيارة القدس حتى يكتسب الاغتصاب شرعية الفاتيكان .

ولا شك انه لم يرفض بعد الدعوة رفضاً معللا بالحيثيات التي قد تقنع « الضمير المسيحي في الغرب » بأن صهينة القدس تعني اعادتها إلى أورشليم ، قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين .

وأخشى انه لن يفعل ، لالف سبب وسبب .

أولا ، بسبب « الدور » الذي رسموه له من قبل أن ينتخب ، الدور المرسوم له ـ هناك ـ لكي يصبح نجما عالميا في السياسة الدولية ، نجما يحمل على صدره الصليب المقدس ويرفع راية الجهاد في العصر الجديد للحرب الباردة .

وثانيا ، بسبب اللغة التي يقرأ بها الانجيل ، أي اللغة اللاتينية .

أما نحن العرب ـ مسيحيين ومسلمين ـ فنقرأ الانجيل ، بلغة اخرى ... هي العربية .

★ ★ ★

.. وارجوا ألا اكون قد تجاوزت .

١٩٨٠/٨/٢٣

بداية ونهاية

(١)

تمكن نظام السادات بعد اغتصابه للسلطة في ١٥/٥/١٩٧١م لفترة لا تقل عن ثلاث سنوات من أن يضلل قطاعا عريضا من الحركة السياسية المصرية والعربية والدولية باعلانه منذ البدء أنه يسير على خطى عبد الناصر، وأن ما قام به في ١٥ مايو - أيار ١٩٧١م كان عبد الناصر نفسه على وشك القيام به. وفي هذا السياق اتخذ الخطوات التالية:

١ - مشاركة مصر في الاتحاد الثلاثي مع ليبيا وسوريا ٧٠/١٩٧٣م.

٢ - ابرامه معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفياتي مايو/١٩٧١ م.

٣ - اصداره برنامج العمل الوطني الذي يتبنى المقولات الاساسية في مواثيق ثورة يوليو ودستور ١٩٧١م الذي يرسخ مبادئها.

٤ - تعيينه بعض العناصر اليسارية في الحكومة والاتحاد الاشتراكي ومجلس الشعب.

٥ - التركيز على مبدأ سيادة القانون وشعار دولة المؤسسات والزعم بأنه ينجز مهام البند السادس من المبادىء الستة لثورة يوليو وهو « اقامة ديمقراطية سليمة ».

٦ - القيام بحرب اكتوبر تشرين الاول ١٩٧٣م بالاشتراك مع سوريا.

أسدلت هذه الخطوات شعارا كثيفا على عيون قطاع عريض من القوى السياسية في مصر والوطن العربي والعالم، فلم تستطع اكتشاف

الوجه الحقيقي لنظام السادات في وقت مبكر، رغم ان هذه الاقنعة كلها ما كانت لتخفي بعض الظواهر الحاسمة.

أ - ففي فبراير - شباط ١٩٧١م تقدم السادات منفردا ورغم معارضة اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الامن القومي بما عرف حينذاك «بمبادرة السادات» لفتح قناة السويس وانسحاب القوات الاسرائيلية عشرة كيلو مترات فقط شرق القناة مع ضمان حرية الملاحة لجميع الدول بما فيها اسرائيل، وقد كانت هذه المبادرة هي البداية الحقيقية للخلاف بين السادات وما اصطلح على تسميته بمجموعة علي صبري.

ب - وفي سبتمبر/ايلول ١٩٧١م صدرت اولى قوانين الانفتاح الاقتصادي التي اعطت رؤوس الاموال الاجنبية من الامتيازات والضمانات ما يكفل لها غزو السوق الوطنية دون أية مخاوف.

جـ - وفي عام ١٩٧٢م تم طرد الخبراء السوفيات في مناخ اعلامي يشي وكأن الاستغناء عن الحليف الدولي يرادف الاستقلال الوطني، وكأن مصر كانت تحت الاحتلال السوفياتي في زمن «عبد الناصر».

د - وفي عام ١٩٧٢م ايضا اشتعلت اول فتنة طائفية نتيجة انفتاح النظام على الجماعات الاسلامية المتطرفة ورعايتها تدريبا واعلاما وتشريعات.

هـ - وفي عام ١٩٧٢م كذلك صدر اول قانون قمعي يلغي عمليا مبدأ سيادة القانون بسن تشريع عرف باسم «قانون الوحدة الوطنية» من شأنه السماح للسلطة بالقبض على أي مواطن بتهمة غامضة هي المساس بالوحدة الوطنية. وكان النظام منذ مايو/ايار ١٩٧١م قد استحدث منصب المدعي العام الاشتراكي الذي يسلب القضاء العادي حقه واستقلاله كما يسلب المواطن قاضيه الطبيعي.

و - وفي اول عام ١٩٧٣م قام النظام بطرد ١٢٠ كاتبا وصحفيا من عملهم الصحفي. وفي عام ١٩٧٤م اغلق مجلة «الكاتب» ذات

الصوت القومي التقدمي. وفي عام ١٩٧٧م اغلق مجلة «الطليعة» المنبر اليساري الوحيد.

ز - وفي عام ١٩٧٤م صدرت القوانين الاساسية المعدلة للانفتاح الاقتصادي بحيث اخضعت الاقتصاد الوطني المصري لهيمنة الاستثمارات الاجنبية دون قيود أو شروط مستوحاة من خطة تنمية، وبدأ تفكيك القطاع العام وتعديل قانون الاصلاح الزراعي.
كما صدر قانون السلام الاجتماعي الذي يستكمل القمع القانوني الذي بدأ بقانون الوحدة الوطنية. وبدأت في هذا العام نفسه مسيرة الحل المنفرد تحت الرعاية المباشرة للولايات المتحدة الاميركية.

ح - وفي عام ١٩٧٥م نجحت مفاوضات الحل المنفرد في ما يسمى باتفاقية فض الاشتباك الثانية في سيناء. وكانت هذه هي الخطوة الحاسمة في تغيير الاستراتيجية المصرية بالتخلي عن الشريك العربي السوري في حرب اكتوبر وفي التخلي عن الحق العربي الفلسطيني في استرجاع الاراضي المحتلة وفي الانفراد بالقرار بمعزل عن مراجعة جميع العرب وبمعزل عن قرارات القمة العربية في الرباط والجزائر.

ط - مع بداية ١٩٧٧م كانت المباحثات السرية والعلنية بين نظام السادات والاسرائيليين والاميركيين قطعت شوطا في التخطيط لتسوية منفردة بين مصر واسرائيل. واشترط وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان حينذاك أن تبرهن مصر عمليا على انها عرفت عدوا آخر غير اسرائيل. وفي ٢٢ يوليو/تموز ١٩٧٧م قام السادات فعلا بمغامرة عدوانية على الحدود الليبية. وبعد أقل من اربعة أشهر فقط كان يتوجه الى القدس المحتلة في اكثر مشاهد الاستسلام عارا في تاريخ العرب الحديث.

وفي عام ١٩٧٨م تم توقيع اتفاقيات كامب ديفيد بداية التحالف

الاستراتيجي بين نظام السادات والدولة الصهيونية والولايات المتحدة الاميركية.

ك ـ وفي عام ١٩٧٩م تم توقيع معاهدة الصلح الاستسلامي بين مصر واسرائيل تنفيذا لاتفاقيات كامب ديفيد تحرم مصر عمليا من السيادة الوطنية على سيناء، وتحرم الشعب الفلسطيني من حق تقرير المصير.

ل ـ وفي موازاة الصلح المنفرد قام النظام باستفتاء مزور للشعب اصدر بموجبه مجموعة جديدة من قوانين القمع تمنع القوى السياسية المعارضة حق نقد المعاهدة، وقام بحل البرلمان الذي كان من بين اعضائه قلة من المعارضين الحقيقيين، وزيف الانتخابات حتى لا يعودون، رغم ان البرلمان السابق الذي اقر المعاهدة لم يحتل معارضة القلة، فقام بفصل بعض اعضائه وفي مقدمتهم كمال الدين حسن نائب رئيس الجمهورية السابق.

م ـ وفي عام ١٩٨٠م الذكرى الاولى لابرام المعاهدة وتطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل، قام النظام باستفتاء جديد اصدر بموجبه ما سمي «بقانون العيب» وتشريعات جديدة «قانون الاشتباه» من شأنها الزج بأبي مواطن في السجن سنوات دون محاكمة، والحكم عليه بالاعدام او السجن المؤبد لمجرد أن أية جهة «رأت» فيه خطرا على الامن. واصبح للمدعى العام الاشتراكي صلاحيات مطلقة تجاوزت كل القوانين المدنية والسياسية السابقة.

ن ـ واحتدمت في البلاد نيران الفتنة الطائفية كما لم يحدث من قبل. وفي محاولة يائسة دعاها السادات بأنها «مسألة حياة او موت» قام بما لم يحدث ايضا من قبل.. فبعد عشر سنوات من الادعاءات الديموقراطية واغلاق المعتقلات، وسن التشريعات القمعية والاستفتاءات المزورة البديلة للاعتقال، قام السادات باعتقال الوف القيادات والكوادر من مختلف الاتجاهات السياسية في الاسبوع الاول

من سبتمبر/ايلول ١٩٨١م في ابشع حملة قمع لم يعرفها التاريخ المصري الحديث..

كما قام باجراء استثنائي بالغ الخطورة من شأنه اذكاء الفتنة الطائفية بوضع البابا شنودة الثالث بطريرك الاقباط الارثوذكس تحت الاقامة الجبرية في الصحراء الغربية واعتقال عدد كبير من المطارنة والاساقفة والكهنة. كذلك قام باعتقال اكثر أئمة المساجد شعبية وعدد من قيادات الجماعات الاسلامية.

كان ما حدث في الثالث والرابع من سبتمبر/ايلول ١٩٨١م اعتقالا للشعب المصري بأكمله باحتجاز المع رموزه السياسية طيلة نصف قرن في السجون والمعتقلات. وكان ذلك تتويجا لجملة القرارات الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن ايجاز نتائجها على النحو التالي:

- ارتفاع ديوان الخزينة للمصارف والحكومات الاجنبية الى ٢٤ مليار دولار عام ١٩٨١م.
- ارتفاع نسبة التضخم الى ٣٤ في المائة عام ١٩٨٠م.
- ارتفاع العجز في ميزان المدفوعات الى ٧,٨ عام ١٩٧٩م.
- ارتفاع عدد العاطلين عن العمل الى ١,٤ مليون عام ١٩٧٩م.
- ارتفاع الاسعار عام ١٩٨٠م/٣٠٠/ في المائة بالنسبة لاسعار ١٩٧٠م و ١٨٥ في المائة بالنسبة الى عام ١٩٧٤م.
- ارتفاع نسبة الجريمة حتى تصدرت مصر المركز الثالث بين الدول الاكثر ترويعا عام ١٩٨٠م حسب احصاء الامم المتحدة.

وبالرغم من ان قطاعا مهما من القوى السياسية المصرية والعربية والدولية لم يكتشف لعدة سنوات حقيقة نظام السادات، الا أن الشعب العربي في مصر قد اتخذ من الاجراءات المضادة لهذا النظام طيلة عشر سنوات ما يمكن ان نشير اليه بالاشارات السريعة التالية:

* في يناير/كانون الثاني ١٩٧٢م قامت حركات الطلاب والعمال والمثقفين بانتفاضتها المشهودة التي استمرت طيلة العام الجامعي، واستأنفت مسيرتها مع شتاء ١٩٧٣م حيث قام النظام باعتقال مئات الطلاب وتسريح عشرات الكتاب والمثقفين.

* في يناير/كانون الثاني ١٩٧٥م ظهرت من جديد حركة الطلاب في القاهرة والاسكندرية والمنصورة واسيوط، كما شاركهم العمال في مصانع حلوان وشبرا الخيمة واسوان بالاضراب والاعتصام، وفي ابي قير وقعت مذبحة الصيادين التي تصدى فيها الامن المركزي لاهل المنطقة بالرصاص.

* وفي يناير/كانون الثاني ١٩٧٦م اشتعلت حركة الشباب من جديد مع احتلال العمال لمصانع المحلة الكبرى وتسييرها ذاتيا وتكوين ما سمي (بكومونة المحلة) اكبر مدينة صناعية في مصر مما دفع الجيش للتدخل بالطائرات.

* وفي ١٨ و ١٩ يناير/كانون الثاني ١٩٧٧م قامت مصر كلها من الاسكندرية شمالا الى اسوان جنوبا بانتفاضة شعبية شاملة، هزت اركان النظام هزا عنيفا في العمق.. بحيث دفعت السادات على الفور للاستنجاد المباشر بأميركا واسرائيل فكانت مغامرته المجنونة ضد ليبيا في يوليو ١٩٧٧م.. وكانت زيارته المشؤومة لاسرائيل في نوفمبر من العام نفسه. كان الاسراع في طلب الحماية الاميركية الاسرائيلية هو الرد العاجل من جانب النظام على ثورة شعبية حقيقية افتقدت التنظيم.

* وبين عامي ١٩٧٨م و ١٩٨١م تمكنت المعارضة الشعبية رغم اهوال القمع والتشريعات النازية والحماية الاميركية المباشرة بموجب التسهيلات العسكرية والمناورات المشتركة والقواعد المتحركة، تمكنت المعارضة من تنظيم صفوفها اولا في كيانات حزبية متماسكة سواء

تحت الارض او فوق السطح في اطار الشرعية. ثم تمكنت من التدرج في تصعيد حملتها على النظام بدءا من الاحتجاج على التردي الاقتصادي والاجتماعي وانتهاء بمعارضة سياسة كامب ديفيد. ان حزب العمل الاشتراكي الذي ولد بالموافقة على المعاهدة انتهى به الامر الى سحب موافقته. وحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي الذي صودرت جريدته (الاهالي) اقتحمت نشرته الداخلية (التقدم) عشرات الالوف من البيوت المصرية، والمعارضون المستقلون من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ضمهم الائتلاف الوطني، واصبحت جريدة (الشعب) لسانا للمعارضة الوطنية كلها. ثم تمكنت المعارضة الوطنية بعد تنظيم كياناتها الحزبية وتماسكها من توحيد جهدها حول الحدود الدنيا المشتركة بينها في جبهة وطنية ديموقراطية ولدت في الممارسة اليومية للنضال الشعبي في الشارع واوشكت - عشية الاعتقالات الكبرى - على الاعلان عن قيامها كبديل للنظام الامر الذي دفع السادات الى القول بأن المسألة اصبحت «مسألة حياة او موت».

كانت هذه الجبهة قد بلغت حدا رائعا من التنسيق في نضال المثقفين ضد تطبيع العلاقات الثقافية مع اسرائيل كما حدث في معرض الكتاب الدولي، كذلك ما وقع في النضال البطولي لنقابة المحامين التي صمدت امام الارهاب للحظة الأخيرة.

ان هذه الجبهة التي تضم ممثلي مختلف الطبقات الاجتماعية الوطنية وممثليها في حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي والتيارات الناصرية وحزب الوفد والحزب الشيوعي وبعض الجماعات الاسلامية وحزب العمل الاشتراكي وحزب الجبهة الوطنية والائتلاف الوطني والشخصيات العامة المستقلة، هي ذروة العمل السياسي الشعبي المنظم في مصر بعد عشر سنوات من النضال المستمر وبعد عامين فقط من ابرام معاهدة الصلح المنفرد.

* وهذه الجبهة التي بادر النظام الى اعتقال الالاف من بين قادتها وصفوفها لم تكن رغم القهر منفصلة قط عن الشارع الشعبي وقواته المسلحة التي قالت باعلى صوت مسلح في السادس من اكتوبر/ تشرين الاول ١٩٨١م : لا للخيانة، لا لكامب ديفيد ، لا للغزو الصهيوني، لا للقواعد الاميركية، والمجد لمصر العربية الحرة المستقلة.

وهوت راس النظام مضرجة بدماء العار.

* * * *

(٢)

ليس سرا ان السادات اختلف مع قطاع عسكري عريض في حرب ١٩٧٣م، وان هذا الاختلاف مصدره الرئيسي المسافة الكائنة بين القرار السياسي والخطة العسكرية.. ففي الوقت الذي كان فيه السادات يخطط بالحرب لصلح قادم، كان القادة العسكريون وفي مقدمتهم رئيس الاركان الفريق سعد الدين الشاذلي يقاتلون من اجل التحرير. وقد ادى هذا الاختلاف بين قمة السلطة والقوات المصرية المسلحة الى عدة ظواهر:

١ ـ تغيير قيادات حرب اكتوبر ١٩٧٣م من المستويات العليا والوسطى باسناد مهام ادارية الى بعضها في الجهاز الدبلوماسي والادارات المدنية الاخرى، وتشويه بعضها الاخر بالافتراء على قدراتها والتشكيك في كفاءتها واحيانا في قواها العقلية.

٢ ـ تسريح اعداد غفيرة من افراد القوات المسلحة عقب الحرب بحجة ان السلام قادم وحجة الرخاء بتخفيض ميزانية التسليح.

٣ ـ الانقطاع التدريجي عن تقنية السلاح المتطور على اثر تجميد العلاقة مع السوفييت وارتفاع شعار «تنويع السلاح» بغية التحول الى نظام الدفاع الغربي، ومن ثم هبوط مستوى التدريب والتخلف العسكري

على المستوى الذي بلغته قوات العبور.

٤ ـ اختلاف اهداف عسكرية ـ سياسية، مغايرة للاهداف الوطنية والقومية التقليدية لدى الجيش المصري بارسال القوات والسلاح الى السودان والصومال وزائير والمغرب وسلطنة عمان، والدخول في مواجهة عسكرية مباشرة مع ليبيا.

٥ ـ تكوين تنظيم امني خاص بالنظام داخل الجيش، واكتشاف منظمات عسكرية وطنية واعدام اعضائها سرا، خاصة بعد وقوع ثلاثة احداث انفجارات واطلاق نيران على طائرات حربية بداخلها ضباط امريكيون وبعض اصحاب الرتب الكبيرة من الجنرالات المصريين قبل واثناء وبعد المناورات المشتركة (١٩٨٠م).

٦ ـ اغتيال الفريق احمد بدوي وزير الدفاع السابق وجميع قادة الاسلحة في المؤسسة العسكرية في طائرة هليوكبتر قرب واحة سيوة بالصحراء الغربية (١٩٨١م).

تلك كانت بعض الانعكاسات المباشرة لاتساع المسافة بين القرار السياسي والتكوين الوطني للقوات المسلحة المصرية، والتي تعاظم اتساعها بين نهاية الحرب وبداية تطبيع العلاقات مع اسرائيل والتبعية المباشرة للولايات المتحدة الامريكية.

غير ان ما كان يجري داخل الجيش المصري لم يكن بمعزل عما يضطرم به المجتمع المصري من تحولات عميقة اهمها:

أ ـ لجأ الشعب الى كافة الوسائل ومن بينها السلاح وازداد عدد المنظمات التي تدرب افرادها على حمله واستخدامه.. وكما حدث في القوات المسلحة حدث ايضا في المجتمع، فقد بادر النظام في وقت مبكر الى دعم وتدريب بعض الجماعات الدينية المتطرفة لمواجهة القوى الوطنية في الجامعات.

ثم توالى المسلسل الطائفي الذي افتعلته السلطة لصرف انظار الشعب عن مشكلاته الحقيقية، ولكنه كشف بما لا يدع مجالا للشك عن ان الشارع الشعبي اصبح مسلحا من ناحية وان حساسيته بلغت حد الالتهاب من ناحية اخرى، وانه قد حسم الامر لتوجيه كل الجهود بما فيه السلاح ضد النظام.

ب ـ كان الفساد والرشوة والاختلاس قد بلغ حد المطالبة برفع الحصانة عن اربعة نواب من رجال الحزب الحاكم بالتهم التالية: الاتجار في المخدرات، تحرير صكوك بدون رصيد، والقتل. وكانت رائحة الاتهام للحكومة ذاتها تزكم الانوف منذ حادث سقوط الليثي ناصف قائد الحرس الجمهوري من مستشفاه في لندن الى حادث اطلاق الرصاص على سيارة البابا شنودة الى ما اذاعه النائب احمد فرغلي من ان هناك خطة لاغتيال خالد محي الدين وقد فقد النائب المذكور (عن حزب العمل الاشتراكي) مقعده في البرلمان بسبب هذا التصريح.

جـ ـ كانت الراسمالية الوطنية قد بلغت حدا من الانزعاج لدرجة أن مجلة «الاهرام الاقتصادي» على مدى ستة اشهر (يناير ـ يونيو ١٩٨١م) قد نشرت اعنف ما كتب الى الان ضد التطبيع على الصعيد الاقتصادي، مؤكدة بالارقام ان التجارة والصناعة والزراعة في مصر على وشك الانهيار التام بسبب الغزو الامريكي ـ الصهيوني للسوق المحلية المصرية.

د ـ كذلك كان «التطبيع» مع العدو الصهيوني قد بلغ حدا من استفزاز الشعور العربي والاسلامي لدى المصريين تحولت معه المساجد الى قلاع للمقاومة الشعبية، كما كانت خلال مرحلة مواجهة الاستعمار، وذلك باعتماد اسرائيل على «السلام» المصري في ضرب الجنوب اللبناني وبيروت وبغداد والعدوان الامريكي على خليج سرت.

هـ ـ وقد أكتشف النظام فجأة ان الشعب المصري بكل طبقاته الاجتماعية الوطنية مسلمين ومسيحيين يعارض خطواته الاستسلامية بنجاح شعبي ساحق، وفي ظل قوانين القهر، وان توحد هذه المعارضة المتعاظمة قاب قوسين او ادنى، فقام بعمل جنوني في الثالث والرابع من سبتمبر ـ ايلول ١٩٨١م باعتقال اكثر من ١٥٠٠ قيادي وطني من كافة الاتجاهات السياسية المصرية.

ولما كان الجيش والشعب في مصر وحدة لا تنقسم منذ الثورة العرابية الى الثورة الناصرية، فقد كان من الطبيعي ان ما يجري في الشارع الشعبي المصري مرتبطا اوثق الارتباط بما يجري داخل الجيش المصري.

وكان طبيعيا ان ترد القوات المسلحة على معاهدة الصلح المنفرد بعد عامين فقط من ابرامها، وبعد شهر واحد على اعتقال الشعب المصري ممثلا في المع رموزه السياسية.

ورغم الحماية الامريكية المباشرة لرئيس النظام فقد استطاع الجيش ان ينفذ حكم الاعدام الذي اصدره الشعب في مشهد بطولي جسور هو البداية الاولى لتصحيح التاريخ.

ان ما وقع في السادس من اكتوبر تشرين الاول ١٩٨١م هو حصاد التراكمات الحاكمة لنضال الشعب المصري وقواه الوطنية طيلة عشر سنوات، هو نقطة لقاء الغضب الشعبي المتصاعد وثأر القوات المصرية المسلحة لشرفها العسكري وتأكيد ارتباطها العضوي بالشارع الوطني وطموحاته المشروعة في الاستقلال والسيادة والتقدم.

ان ما وقع في السادس من اكتوبر ١٩٨١م ايضا هو ثمرة لقاء النضال الشعبي المصري بالنضال الشعبي العربي الذي جسدته محاكمة السادات في اطار مؤتمر الشعب العربي الذي كان رد الفعل القومي الاول والاكبر على زيارة السادات للقدس المحتلة. وهي المحكمة التي اصدرت حكم التاريخ على رأس الخيانة: الاعدام.

ان ما وقع في السادس من اكتوبر ١٩٨١م أخيرا، هو تأكيد انساني عام يقدمه الشعب المصري وامته العربية للعالم، وهو ان خيانة الاهداف الوطنية والقومية مصيرها المحتم هو الموت، وان الحسابات الاجنبية المعادية لامتنا وحضارتنا مصيرها الزوال، وان نضالنا لتحقيق الأهداف الاصيلة لتراثنا سوف يستمر.

فهرس المحتويات

bidding

good - bye

by

GHALI SHOUKRI

Dar al-Afaq al-Jadida

BEIRUT - LEBANON